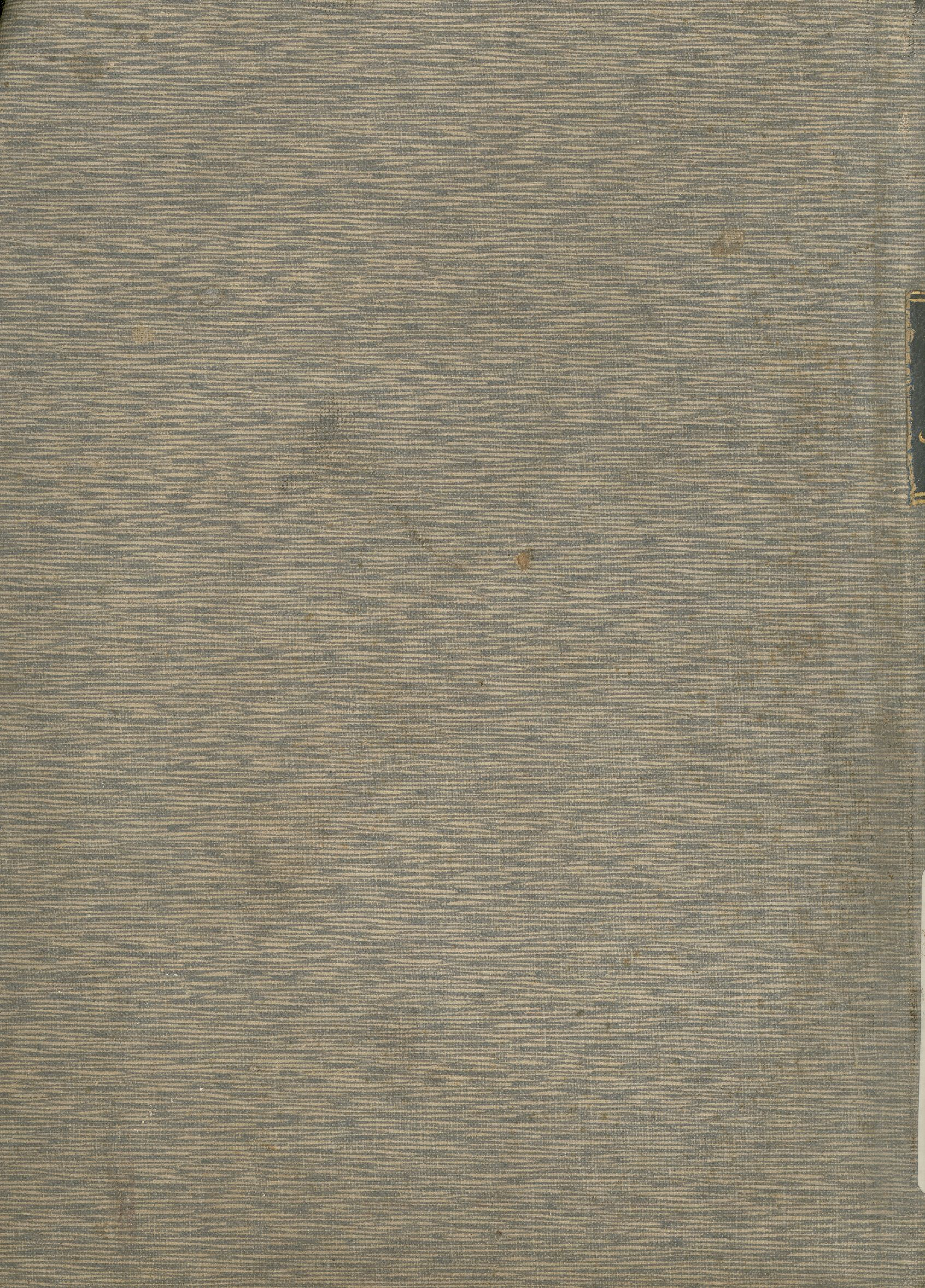


اهداءات ٢٠٠٣

أسرة /عبد الرزاق باشا السنهوري

القاهرة

محمد عوض محمد

مِنْ حَدِيثِ الشَّرْقِ وَالغَرْبِ

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٧

أيها الصديق !

هل فى صدرك الرَّحب الكريم موضع تُوسِعُهُ لأخٍ قديم الود ، صادق الحب ؛ تريد روحه الجائشة أن تتنفَّس ، وقلبه المُفْعَمُ أن يفيض ؟ . . .

هذه أساطير وخاطرات خطرت ، ملكت على الفِكْرِ سُبُلَهُ ، فلم يستطع تشريدها ، أو الفرار منها . . . وما برحت تلح وتلحف ، وتُحدق به من كل صَوْبٍ ، تريد أن تثبُت وأن تستقرّ ، وتَرْسَخ ؛ فلم يجد الفكر عنها مَصْرِفاً . . .

لقد كانت هذه الخاطرات تبدو حيناً فى عبُوسٍ وكآبة ، ثم تنقلب فجأةً ضاحكة ساخرة ؛ تارةً تَجِدُّ حتى تُدْمى الجفن والفؤاد ؛ وتارة تهزأ وتسخر حتى ترى فى كل شىء موضِعاً للعبث الطائش .

وهى فى كل هـذا مُلِحَّة ملحفة أنْ تُقْبَل على عِلاَّتها ، وأن يُصغى إلى نَغَمَاتها على تَنَافُرِها ...

فهل فى الأُذُن العزيزة بقيَّةٌ من الصبر ، وأثارة من الجَلَد تستطيع بها الإنصات إلى هذه التُّرَّهات ؟ ...

فهرس

صفحة

صفحة

عاصفة فى قدح

عاصفة فى قدح :

أخذت السحابة البيضاء المحلقة فى الجو تهتز طرباً وعُجباً ، لأن اثنين من الملائكة — اسمهما غالوت وفالوت — وهما من ملائكة السماء السادسة ، قد استقرا فوقها هنيهة ، واتخذا من بياضها الناصع مقعدا .

فلماذا جاء هذان الملَكان إلى جوّنا السفلى ، وماذا يبغيان من كرتنا الأرضية ؟

ذلك ما نريد أن نستطلع خبره اليوم ، ونجدّ فى البحث عنه.

لقد كان اليوم يومَ عطلة فى السماء السادسة . فانطلق الملكان — وهما من أرقّ الملائكة حاشية وأخفّهم ظلا — فى الفضاء الواسع الطويل العريض ، وأخذا ينتقلان من كوكب إلى كوكب ، ومن برج إلى برج ، يتفرجان على المكان وعلى السكان . ويمجّدان الواحد الديان .

وكان فالوت مُغْرماً بالزهرة ، لأنه كان يعشق الجمال الخالص العارى من كل شائبة . وكان يعجبه أن يجلس بالقرب منها ، وينظر إليها وهى ترقص رقصة السديم ، فتأتى بالسحر والعجب

العجاب ، وتكون فتنة للناظرين . ولكن كان يحلو له بنوع خاص أن يراها وهي ترقص رقصة المجرة . وهي أبدع رقصة في الفلك كله ، فينظر إليها وهي تتدافع وتتجاذب ، ويرتج جسدها الزئبقي البض على نغمات الموسيقى الكونية ، ويتمايل قوامها الرشيق بحركات خفاف ، تخف لها الأحلام ، وتطيش لها العقول . . . .

ولا أريد أن أزيدك وصفاً ، ياصديقي ، لرقصة المجرة هذه ، لئلا يدركك من الجنون ما أدرك (طانهاوزر) المسكين حين شغفه هوى الزهرة ، واستماله جمالها ودلالها .

على كل حال إن فالوت كان يحب الزهرة حبا جما ، ولا يريد أن يعدل بها و برؤيتها شيئا ، خصوصاً في أيام العطلة ، التي تطلب فيها النفس الراحة والاستجمام بعد الجهود الملائكية الجبارة

هذا ما كان من أمر فالوت . . .

وأما ما كان من أمر غالوت ، فكان ذا مزاج مختلف عن مزاج صديقه . . . وكان ملكا فيلسوفاً . ولو أنه من أهل الأرض لكان من أمثال الفارابي أو الكندي أو أرسطو أو أستاذاً للفلسفة في كلية الآداب . وقد أدته نزعته الفلسفية لأن ينشد الغريب لا الجميل من الأشياء . ولهذا كان أشهى

شىء إلى نفسه فى أيام العطلة أن يقصد إلى كوكبنا السافل، لكى يتسلى بما يجرى به من المهازل .

ودار بين الملكين حوار عنيف لطيف، وحديث حاد عذب؛ يريد كل منهما أن يأخذ صديقه إلى الكوكب الذى يفضله . . . وطال الخلاف بينهما حتى دام بضع ثوان، وكاد أن يستمر بضع ثوان أخرى لولا أن قال محب الأرض لمحب الزهرة :

— « أتعلم ما الذى تستطيع أن تراه فى الأرض ؟ إنك سترى أهلها يثيرون زوبعة فى فنجال من الشاى . »

— « وما الشاى هذا ؟ »

— « شراب اخترعه واحد من أهل الأرض، يشربه العابد فلا يغفل طرفه حين يريد أن يسهر لعبادة ربه . »

— « أليس فى عبادة الرب من قوة الإيقاظ ما يغنى عن تعاطى الشراب ؟ »

— « قلت لك إن أهل الأرض قوم غريبو الأطوار . »

— « وتزعم أنهم يثيرون زوبعة فى فنجال شرابهم هذا ؟ »

— « أجل وحقك ! »

— « إذن هلم بنا إليهم ! »

وهكذا ترى ، أيها الصديق ! أن النفس — حتى نفس الملائكة — تعشق الغريب من الأشياء ، حتى يصرفها عن الجميل ... وهو الرأى الذى حاولت مراراً أن أفهمك إياه — فلم تكن تفهم — يوم سألتنى كيف رضيت جارتنا سرحاء أن تهرب من زوجها الوسيم القسيم ، إلى ذلك الأسود البشع الدميم . . . والآن وجب عليك أن تسلم خاضعاً ذليلا ، بأن الغريب النافر أقوى جاذبية من الجميل الباهر . . .

وهكذا انتصر غالوت على فالوت ، واستقر الملكان على السحابة البيضاء يتفرجان على الزوبعة التى قامت بين المؤلف والقارئ . . . .

وهأنذا أصفها لك ، فأنصت إلىّ ولا تضجر . وطَوّل بالك ولا تتذمر .

* * *

جلس المؤلف إلى مكتبه ، وقد أسند رأساً أشعث أغبر ، إلى ذراعين قد انتفخت عروقهما ، وارتجت شرايينهما ، ثم جعل يحك رأسه بيمينه ، ويبرم شاربه بيساره ... وهو فى حيرة من أمره ، لا يكاد يعرف ماذا يصنع بنفسه .

وأمامه على بعد ثلاثة أذرع مُتَّكأ وثير ، قد تمدد عليه

القارئ ، وعلى شفتيه وأنفه علائم التَّبَرُّم والاستياء : وهو يلقى على المؤلف — من آن لآن — نظرات فيها مزيج من السخرية وعدم الاكتراث . ومن حولهما رهط من الأصحاب والخلان ، بين جالسين على الكراسي يدخنون سيجاراتهم ، أو وقوفٍ بأركان الغرفة في هدوء وانتظار لما سيحدث .

كان هذا اللقاء بين هذين الطرفين المتعارضين ، وبين هذين العنصرين الغريبين ، نتيجة لتوسط أهل الخير ، لعلهما يستطيعان أن يُزيلا ما بينهما من جفاء ، وأن يتفقا على معاهدة صلح ، تُرضي الفريقين ، ويسود بها الصفاء ولو إلى حين . وقد ظن الوسطاء أن لم يبق بد من مثل هذا اللقاء بعد الانفجار الهائل ، الذي حدث منذ بضعة أشهر ، وكاد يؤدي إلى خصام أبدي لا تحمد عقباه ...

فقد كتب المؤلف رسالة شديدة اللهجة ، ونشرها في الصحف ، وأذاعها للناس بآلة الإذاعة . وهو يشكو فيها القارئ مر الشكوى : ذلك الكائن الذي مال بعطفه التدلل ، وملأ أنفه التبرم ، وأبى أن يعجبه شيء ، أو يرضى بما يقدم إليه من زادٍ فكري بديع ، قد تفنن المؤلف في تنسيقه وإعداده ، وتمليحه وتجميله ...

تُقَدِم إليه القطعة المخترعة المبتكرة ؛ فينادي : « يا للعجب ! أما آن لنا أن نخرج من عالم الخيال والتخريف ، إلى عالم الحقيقة والصراحة ؟ أليس فى حقائق الحياة ما يغنى عن كل هذا الشطط الخيالى ، وهذه التصورات الحمّائية ؟ » .

ثم تقَدّمْ إليه القطعة الأدبية الجدية ، ذات المعنى العميق والفكرة الدسمة ، والمغزى الدقيق . فيصيح فى وجه المؤلف : « لقد سئمنا هذا الجد وهذا العمق ؛ وقد آن لك أن تعطينا فكاهة حلوة ونكتة طريفة . أم تراك قد نضب معينك إلا من هذا العبوس الدائم ، وهذه الحموضة المضجرة ؟ » .

ويرى المؤلف أن فى هذا الكلام جانباً من الصواب ، ويريد أن يرضى القارئ جهده . فيجول جولته ثم يقدم إليه الفكاهة المرحة ، والدعابة الرشيقة ، وهو يظن أنه قد أدى الخدمة وقام بالواجب ...

فينظر إليه القارئ نظرة ملؤها اللوم والتقريع : « ما بك أيها المؤلف ؟ أتكتب إلىّ كأننى ثكلى فقدت واحدها ، وتريد أن تضحكها بهذا الهراء والسخف ؟ إن الذى أبغيه فكاهة دقيقة هادئة تبعث الابتسام ولا تثير الضحك . . . ولعمرى لن أسمح لمؤلف يوماً أن يكون أضحوكة الدهر ، وسخرية الناس . إنما أريد منه كتابة ولا أطلب منه سخفاً » .

فيسارع المؤلف ويحرر مقالاً بديعاً ، دقيق الفكاهة ، مليح النادرة ؛ ثم يضعه بأدب واحتشام بين يدى القارئ : فلا يلبث هذا أن ينظر إليه نظرة ، حتى يتناوله مغضباً ، ويمزقه إربا ... ويصيح بمؤلفه : « يا عجباً لك ! فى هذا الوقت الذى تشتد فيه الأزمة وتتهدد العالم حرب طاحنة ، وتهتز نواطح السحاب فى أمريكا فرقاً ، ويفتح أبو الهول عينيه دهشة ، ويتوارى مديرو الشركات عن عيون المساهمين . . تنصرف نفسك إلى الفكاهة والدعابة .. هذا أوان الجد ، الذى يجب أن تكتب فيه ما يوقد الشعور ويثير الهمم ، ويرفع حرارة القلب ، حتى تنهض العزائم إلى أسمى مراتب النجدة والنخوة ، وإلا فما الخيبة أملى فيك ! » .

ويرى المؤلف أن هذا تقريع مقبول على علاته . فيكتب قطعاً عديدة تتوقد حماسة وغيرة ، وتنهض بالبليد إلى أعلا درجات البأس والشهامة . فيتناولها القارئ ثم ينظر إليه ويقول : « يا عجباً لك أيها المؤلف ! هل طلبت منك حرارة فى درجة الغليان ، لكى نطهى عليها اللحم ، أو نطبخ بها القهوة ؛ بل ونحمى بها الأتون فى معمل لصهر الحديد ؟ ما هذا الإسراف ؟ أما كان يكفيك أن تستثير الهمة إلى درجة حرارة معقولة

لا تتجاوز الخمسين أو الستين درجة مئينية ؟ ما هذا ، هل نحن فى عالم صناعة أم فى عالم أدب ؟ . والآن وقد سكنت الأمور ، فاكتب مقالة تهدئ بها الخواطر ، وترجع بها السكينة إلى الأفئدة !! » .

ـ فيطأطئ المؤلف رأسه على مضض ، ولا تمضى أيام حتى يكون بين يدى القارئ كتاب فخم ، فيه تسكين وتطمين ، وإراحة للخاطر ، وشفاء لما بالصدور .

ـ فهل تحسب القارئ قد رضى بما قدم إليه ؟ . إنه جاء إلى المؤلف ونظر إليه نظرة ملئت بالتيه والخيلاء ، وقال : « يا سيدى المؤلف سألناك كتاباً تهدئ به الشعور ، ولم نسألك لوحاً من الثلج لكى نصنع به المثلجات !! » ، ثم يلقى بالكتاب فى وجهه ويخرج من غير تحية ولا مجاملة . تاركا المؤلف فى بئر عميقة من اليأس والقنوط .

ويظل المؤلف على هذه الحال زمناً غير قليل ، وهو هامد فى مكانه لا يتحرك ، وكأنه من شدة الدهشة والجزع قد فقد الرشد ، ثم بعد لأى يفيق . . . فيحل الغيظ محل اليأس ، والغضب مكان الدهشة ، ويتناول أشد أقلامه مراساً ، وأنفثها للسم الزعاف ، ويكتب مقالاً يشكو به القارئ من الشكوى ،

ويعلن فيه للناس تلك الحالة العجيبة التى آلت إليها نفسه ؛ فقد أصبح ممتلئاً صدره ضجراً كما امتلأ أنفه كبراً ، وبات من شدة العجب بنفسه ، ومن تعدد الأهواء ، متبرماً بكل شىء ، وساخطاً على كل شىء .

فماذا يفعل المؤلف بهذا المخلوق الذى لا يعرف لنفسه رأياً ، ولا يكاد أن يستقر على حال من القلق ؟ ...

كانت هذه الرسالة متناهية فى الشـــدة ، بحيث أيقن الكثير من الناس أنها قضت القضاء المبرم على ما بين القارئ والمؤلف من صلات ، ولكنها كانت مقالة بديعة ذات أحرف من نار ؛ ولا تزال أندية الأدب تتحدث عن روعتها إلى اليوم .

ومن بعدها كسر المؤلف قلمه وألقى به فى الفضاء ، وكسر ألواحه ، ومزق صحائفه ، ورمى بها فى مهب الرياح . . .

وكذلك أعرض القارئ عن المؤلف ، وأخذ يبحث فى الحياة عن عِوَضٍ يستعيض به عن تلك السطور الممتعة ، والصفحات الرائعة ، وبات الجو الأدبى تغشاه كهرباء شديدة الخطر ، وسحب ملؤها بروق تريد أن تنفجر ، وصواعق تريد أن تنقض ، وامتلأت السماء بغبار كثيف ، جعل التكون

فى ظلام حالك ؛ حتى اضطر غالوت وغالوت إلى الاقتراب من الأرض ليطلما على بقية العاصفة .

وأدرك فريق من العقلاء ، الذين يجدهم الإنسان أحياناً على سطح الأرض —ولو أنهم من فصيلة توشك أن تنقرض— أن العالم كله سينتهى إلى بؤرة هلاك سحيقة ليس له منها مخرج إلى يوم الحشر ، إذا لم يصفُ الهواء الأدبى ، وتتحسن الصلات بين المؤلف والقارئ ، وتهب نسمات من الحب والتقدير ، فتزيل تلك السحب والغبرات ، التى تتهدد الناس بالويل والثبور .

ولهذا قرر العقلاء أن يسعوا سعياً حثيثاً بين المؤلف والقارئ لإصلاح ذات بينهما ، وأقسموا جهد أيمانهم لا ينثنون عن مرامهم حتى يبلغوه ، مهما لقوا فى سبيله من شدة وعنت وشطط ، ولم يكن مرامُهم هذا بالشىء الهين اليسير ، لولا أن ساعدتهم قوى الطبيعة وأحكام السليقة .

فإن القارئ لم تمر به الأشهر مروراً سهلاً ؛ بل لم يلبث أن أحس فَقْداً أليما ، وكأنما الحياة جوفاء قفراء ، وحيثما اتجه لا يجد إلا ضيقاً وحرجاً ، وفضاء وجدباً .

ونازعت المؤلف نفسه إلى ذلك القلم المحطم ، والصحائف الممزقة ، ولولا بقية من كبرياء لأبصره الناس مكبًّا على وجهه

يبحث عن قلبه ، ويلتقط القطع المتناثرة من صحائفه . تاقت النفس إلى معاودة غرامها القديم ؛ إذ ليس فى شرع الغرام أن الصد والهجران يمنعان الحب من أن يظهر ، وناره من أن تضطرم .

ولهذا لم يكد المصلحون أن يصمموا على طرق باب الصلح حتى ألفوه مفتوحاً على مصراعيه ، ولم يعانوا مشقة فى تحريض القارىء أن يصاحبهم إلى دار المؤلف ، وأن يشرب عنده قدحاً من القهوة الشرقية ، ذات العبير المنعش .

واستقبل المؤلف أضيافه فى شىء من الرزانة المتكلفة ، وصدره يكاد ينفجر من فرط السرور . ومد القارىء يده إلى المؤلف مصافحاً بهدوء وفتور ؛ وهو يود لو يعانقه و يمطر خديه وابلا من القبلات . ثم جلس على الأريكة متكئاً ، يتكلف الكسل وعدم الاكتراث . . و يريد أن يخفى وراء دخان سيجاره اضطراب المتلهف المشتاق .

هكذا التأم عقد المجلس ، وساده سكون لم يجسر أحد على أن يقطعه بلفظ ، ودارت أقداح القهوة العذبة ، وأخذت تحمل إلى كل أنف ذلك الأريج الذكى الذى حملته حباتها من جبال اليمن ، وتربتها العاطرة ، حيث التفت كل حبة على ذلك العطر

محتفظة به حريصة عليه ، حتى تؤدى رسالتها كاملة ، من باطن الفناجيل المصقولة ، فتنعش النفوس ، وتشرح الصدور .

واستطاع القارئ بعد ذلك أن يعتدل فى مجلسه ، و بدا فى محياه بعض ما تكنه نفسه من الاهتمام ... وقال : « إنى قصدت دار المؤلف بغية الصلح ، ولست بمنكر هذا . . . وحسبى دليلا على نيتى الخالصة الصافية أنى أنا الذى سعيت إليه ، ولم أنتظر حتى يسعى إلى . . . ولكنى أريد من المؤلف أن يدرك أنه ليست له قيمة من غيرى ؛ فإن الزهرة مهما زكا عطرها ، ولطف عبيرها ، ليس لها فى الدهر قيمة ، إلا بفضل الذى يقدرها قدرها ، ويتمتع بعطرها . . . فعلى المؤلف أن يراعى خاطرى ، وأن يحترم رغباتى . ليخفف من غلوائه ، وليجار أهوائى على علاتها . فماله — لولاى — فى الحياة قيمة . ولولا القارئ لما كان المؤلف . . .

هذه الألفاظ — على قسوتها الظاهرة — كانت تلقى بصوت عذب ، ونغمة هادئة . ولذلك لم يثر لها خاطر المؤلف ؛ ولم يتملكه الغضب رغم علمه بما فيها من زور وتضليل .

ولم يزد على أن أسند ظهره إلى كرسيه ، وقال : « إن القارئ قد سعى إلى دارى ، فله ما يجب للضيف من إكرام

و إجلال . ولـكن هذا لن يمنعنى أن أقول له : إن القارئ كائن لا يستطيع أن يوجد إذا لم تقدم إليه مادة يقرؤها . وهذه المادة لا يثمرها سوى يراع المؤلف الأديب . . . والآكل لا يصبح آكلا مالم يقدم إليه الطاهى الطعام ليأكله . ولولاه لظل جائعاً متلهفاً ، متحرقاً إلى الطعام . . . والزهرة يفوح عبيرها سواء عليها أوجد الأنف الذى ينشق ذلك العبير أو لم يوجد . فكيف يجحد أحد فضل المؤلف على القارئ ؟

فى هذه اللحظة رأى كبير المصلحين أن قد آن له أن يتدخل قبل أن يتسع الجدل الذى لا يجـدى . وأهاب بالمتكلمين أن يقصرا من هذا الحديث الذى لا غَناء فيه ... وقال : « إن العقل لينفر أشـد النفور من أن يمـارى فيما بين القارئ والمؤلف من صلة وثيقة ، وصداقة أكيدة ؛ وعَبَثاً نجادل فى فضل الثانى على الأول ، أو فضـل الأول على الثانى . . . إنمـا نحن هنا لـكى نقرر الحقيقة الأبدية التى لا يمارى فيها أحد : أن ليس فى العالم كائن له قيمة وخطر سوى المؤلف والقارئ . ولولا هما لـكانت الأرض جحيما ، والحياة عذاباً أليـا . وهذا أمر قد أعطينا الفرصة المُرة لـكى ندركه أشد الإدراك ... فتعال أيها المؤلف وتناول هـــذا القلم الجديد الذى يهديك إياه القارئ ، وتقدم

فصافحه ! وأنت أيها القارئ تعال فقبل لحية المؤلف ، التى ما شمطت إلا فى خدمتك ، وار بت على هذا الظهر الذى ما انحنى إلا من أجل راحتك و إسعادك . . .

***

نظر الملكان إلى هذه الخاتمة المفرحة لتلك العاصفة المخربة فلكهما العجب والطرب ، وكاد غالوت أن يستلقى على ظهره من شدة الضحك ؛ وأوشك أن يخرج عن طوره الملائكى وقال : حقا إن هذا أغرب وأطرب و إن لم يكن أجمل وأبهى من رقصات الزهرة . . . مدهشون جدا سكان هذا الكوكب ! الذى لا ينقضى عجبى منه ومنهم ! ما أشد براعتهم فى إثارة الزوابع حتى ولو فى قدح من تلك الأقداح ، التى يحتسون فيها شرابهم . فإذا أعوزتهم الحيل ، ولم يجدوا سبباً حقيقيا للنزاع والجدل ، اخترعوه اختراعا ، وابتكروه ابتكارا . .

فيقول له غالوت : « ألم أقل لك إنك ستجد فى هــذا الكوكب تسلية لن تراها فى كوكب سواه . والآن ليس عندى بأس فى أن نمضى ونتفكه قليلا بمشاهدة الزهرة وهى ترقص رقصــة السديم ورقصة المجرة ، فإنها فى طريقنا إلى السماء السادسة . . .

الكائن الممسوخ

(٢)

الطائر الممسوخ :

سألتنى أيها الصديق ، عن الحضارة الغربية ، التى طغى علينا تيارها ، وغمرنا سيلها : أشر هى أم خير ، وهل تسير بنا إلى السعادة والعافية ، أم تجرفنا إلى الويل والشقاء ؟ .

سألتنى أيها الأخ عن هـذا كله . ولست — وأبيك — بالراغب فى الإجابة عن سؤالك ، بل إنى لأبغض أشد البغض أن أحاول الإدلاء فى هذا الأمر برأى .

ولـكنى — مع إلحاحى عليك بأن تعافينى من هذا التكليف العسير — أريد أن أسوق إليك ها هنا رأى الآنسة سارا دوفال فيما يشبه الموضوع الذى سألتنى عنه . فلعلك واجد فى كلامها الغريب من التسلية والترويح عن النفس ، ما يلهيك عن مسألتى ، والإلحاف علىّ .

فأنصت إلىّ ، ولا ينفد صبرك قبل أن تطالع هذه القصة إلى نهايتها :

— ١ —

أشرقت على برمنجهام شمس واضحة ساطعة ، كأنما استعارتها

من سماء مصر . فانجاب عنها ذلك الغطاء الكثيف من الضباب ، وذلك اللحاف السميك من الغمام ، و بدت سماؤها فى ثوب أزرق بهيج ، فاستطاعت الأبصار أن ترى من ديارها وقصورها ومصانعها القريب والبعيد ، والشامخ المتكبر ، والمتواضع الذليل ، و بدت مداخنها الكثيرة قائمة فى الفضاء ، كأنها عُمُدٌ من غير سقف ، أو غابات نهضت جذوعها من غير أغصان ولا أوراق .

كان يوماً من أيام الصيف حقيقةً لا مجازاً ، لأن ما يسمى صيفاً فى بلاد الإنكليز شىء ، والصيف الذى يعرفه الناس شىء آخر ، وكثير من صيف الإنكليز مزيج من الغيث المنهمر والرعد القاصف ، والبرق اللامع ، والزمهرير الذى ينسيك أيام أمشير ، وليس بعجيب ولا مستغرب أن ترى الأسرة الإنكليزية فى أوائل شهر آب ، وقد اجتمعت حول موقد هائل ، تشتعل فيه النار اشتعالا ، وقد جاء كل فرد من الأسرة ليصطلى ، وقد اصطكت منه الركب ، وأخذ الفك الأسفل يقرع الفك الأعلى قرعاً متّصلا .

أما ذلك اليوم من شهر تمّوز ؛ فكان من أيام الصيف ، وكان يوم أحد ، وقد خرج الإنكليز على عادتهم ينتهزون هذه الفرصة الغالية ، ليغتسلوا بهذا النمير المتدفق من الأشعة والصحو

والصفاء الذى شمل الكون ... فامتلأت بهم الطرق والحقول والمروج : هذا يتأبط كتاباً ، وذاك يتأبط ذراعاً ، وهذه تدفع عربة طفل عزيز ، وتلك تحمل آلة للتنس ، وهذه لا تحمل سوى آلة الجمال والدلال ، وقد انطلق الجميع فى الخلاء ، قطاراً خلف قطار ، وزُمَراً تتدافع إثر زمر .

خرج فى ذلك اليوم فتانا المصرى هنرى عزيز من مسكنه قاصداً منزل الشريف دوفال ، حيث دعى إلى تناول فنجال من الشاى . كان يمشى متئداً متريثاً ، وسط هذه الجموع العديدة من الناس ، غارقاً فى أحلامه لا ينظر إلى أحد ، ولا يعنيه أن تحدق فيه أبصار من حوله من ذوى الفضول . . .

ولا بد لك يا صديقى ، أن تزور بلاد الإنكليز ؛ لكى تفهم أن الإنكليز أهل فضول ؛ فلا يكاد يبدو بينهم وجه غريب ، حتى تحدق فيه العيون . هذا يلحظه بجانب طرفه ، وهذه تحملق بملء عينيها ، وتلك ترفع منظاراً غليظاً إلى عيون ذابلة : وأولئك يجملون أكفهم على حواجبهم ليستشرفوه ، وليس هذا كله عن اهتمام أو تودد أو اكتراث ؛ بل عن فضول أثاره منظر غير مألوف ، ووجه ليس كسائر الوجوه .

وقد ألف هنرى هذا الفضول ، فلم يعد يكترث له أو يعبأ

به ، وفى ذلك اليوم كان رأسه الجميل ممتلئاً بخاطراتٍ ، متدافعة متجاذبة ، عن ماضيه وحاضره ومستقبله . فهو اليوم واقف على عتبة ، ما بين ماضٍ مجيد ، ومستقبلٍ مجهول .

لقد قضى فى برمنجهام خمسة أعوام ، مضت الأولَيات منها ثقالا والأخريات سراعا . قضاها كلها مكبا على دراسة الريازة وهندسة البناء . فكان الفائز أبداً ، المتفوق دائما ، وقد أحرز ما شاء له جده من ألقاب ومراتب . فأصبح كما قال فاوست أستاذا ودكتوراً . ومنذ أيام قلائل زُفت إليه البشرى بإحرازه الجائزة المالية ، التى تمنحها الجامعة للسابقين المبرزين . وقد عرضت رسومه فى المعرض الملكى بلندن . ورضى أعضاء الجمعية الملكية للريازة أن يصبح هنرى عزيز « زميلا » لهم .

بعد أن نال هذا الشرف كله ، واقتطف هذه الباقة الهائلة من زهر النجاح ، أيجمل بى وبك أيها الصديق أن نلومه ، إذا غدا وفى رأسه الشىء القليل من الغرور ، وأضحى يميل بعطفه التيه والخيلاء ، ولو بقدر يسير ؟ لقد أوصى فى الأسبوع السالف بأن تطبع بطاقته : فإذا عليها اسمه الأول هنرى واسمه الثانى عزيز . ومن تحتهما سطور مرصوصة من الحروف الأبجدية ، تفهم القادرين على فك رموزها ، أن صاحب هذه البطاقة فتى

قلما وفقت مصر لإيفاد مثله إلى بلاد الإنكليز .

واليوم يوشك أن يعود إلى مصر . . .

وقد ابتسم ابتسامة الظافر ، حين خطرت مصر بباله ، وتمثلت لعينيه صورة الحفاوة والإكرام والإعجاب والإجلال ، الذى سيلقاه به الناس عامة ، وزملاؤه ورؤساؤه خاصة ، الذين سيكلون إليه تشييد الأبنية الضخمة ، والقصور الشامخة : يومئذ تتاح له فرصته ؛ فيمر بيده الساحرة على مُحيّا هذا القطر ، فإذا هو يكسوه جمالا وجلالا ، وروعة وحسناً .

كان عزيز شديد الإيمان بعقيدة هندسية راسخة ؛ وهى أن أكبر مظاهر الحضارة ؛ وأجلها شأناً الأبنية الفخمة ، تزين الأقطار وتطاول الزمان . وهى اللغة التى يقرؤها الناس جميعاً ، ويدركها كل فهم . ويقدرها العالم والجاهل ، كل على قدر ما أوتى من النور . وعزيز — برغم ثقافته الغربية العالية — مغتبط بمصريته ، لأنها تتيح له مجالا واسعاً فى البناء والتشييد ، وفرصة لن يجد لها مثيلا فى بلدان أوروبا .

* * *

لكنه كان يشعر بشىء من الأسف ، إذ يعود اليوم إلى مصر وحيداً ، فلقد قضى هذه السنوات الخمس ، دون أن يتخذ

لنفسه من بنات الإنكليز صـديقة قد تغدو فيما بعد له حليلة .
كان يترفع عن الامتزاج بعامة الناس وسوقتهم ، والخاصة بعيدة المنال ، لم تتح له فرصة الاختلاط بهم ، والاختلاف إلى منازلهم . اللهم إلا فى هذا الأسبوع . فهل يستطيع فى هذه الأيام القلائل الباقية أن يوفق إلى تحقيق أمنيته بأن يختار شريكة لحياته من أسرة إنكليزية شريفة ؟

منـذ شهر و بعض شهر رأت جماعة من الإنـكليز الذين يعطفون على الشرق والشرقيين ، أنْ ليس بمستحسن أن ينزل الشرقى بلادهم ، فيُترك وشأنه . دون أن تتاح له فرصة التعرف إلى العنصر الصالح من أهلها ، فيفيد و يستفيد . فتألفت منهم فى برمنجهام جماعة أطلقت على نفسها اسم : « أصـدقاء الشرق والغرب » . وكان رئيسها الشريف دوفال . وهذه الدعوة إلى الشاى التى قبلها عزيز مغتبطا هى نتيجة ذلك الحادث الخطير فى حياة الطلبة الشرقيين . . . فهل تراها مُفضيةً إلى غايةٍ أبعـد مراما ، وأشد خطراً ؟ . . منذ يوم أو يومين طرق مسامعه حديثٌ فهِمَ منه أن لهـذا الرجل الـكريم فتاةً رزقت حظا وافراً من الحسن والفضل . فياعجباً أتسعى به خطاه اليوم إلى نصر جديد ، وعهد باسم ؟ وهل تسنح اليوم تلك الفرصة التى امتنعت عليه هذه السنين الطوال ؟ . .

إن اليوم صحو والشمس مشرقة باهرة ، والهواء مغرب في الضحك . وكل ما في الكون مستبشر متفائل . وعزيز كسائر الكائنات مستبشر متفائل ؛ وفي جيبه عدد غير قليل من تلك البطاقات ، وقد سره أنها طبعت في الوقت الملائم ، وأنه استطاع أن يحملها اليوم ، وأن يقدمها إلى الذين يتعرف إليهم ، فتكون خير تنويه بشأن صاحبها ، وخير تمهيد لصداقة جديدة . . .

وفي أثناء سيره نظر — عرضاً — إلى مرآة عظيمة في بعض الدكاكين ، فرأى وجهه النظيف الحليق ، وتقاطيعه الجميلة المنسجمة . ولئن لم يكن كأوجه الإنكليز ، فإن فيه تلك السمرة الشرقية الجذابة . وإذا قال ساخر إن لونه هو لون القهوة الممزوجة باللبن . فإن الحقيقة التي لا يشك فيها منصف هي أن حظه من اللبن أوفى وأوفر . . . ليس كوجه زميله في الدراسة عثمان ، الذي يوشك أن يكون قهوة كله أو بنًّا ، ليس فيه من اللبن إلا شبهة أو إشاعة . واستحق النعت الذي ينعته به فتيات الطبقات التي يختلف إليها بأنه نجر (Nigger) أي زنجي أسود... ولا كلون صديقه الآخر يوسف . وهو لون غريب لا أستطيع أن أصفه لك بأكثر من أنه مزيج من لون الزيتون والخردل . —

أما عزيز فطراز آخر ولون آخر . وقد رزق الوسامة والقسامة ، وإن لم ينتفع بهما أو يستغلها أثناء إقامته الطويلة فى بلاد الإنكليز . ولن تجد فى طول برمنجهام وعرضها غادة تستطيع أن تزعم أن عزيزاً قد صحبها إلى دار الصوَر أو خرج بها إلى نزهة ، أو حاول أن يدنو منها أو يتودد إليها . بل كان ينفر أشد النفور من أولئك الفتيات اللواتى اعتاد أصحابه أن يتخذوا منهن صديقات ورفيقات ، بل وخطيبات وزوجات .

وكان يرتدى فى هذا اليوم بدلة تظهر فيها قامته ورشاقته فى خير مظهر ، ولم يحاول أن يستر ثوبه الجديد بمعطف كما اعتاد الناس أن يفعلوا فى بلاد الإنكليز شتاء وصيفا ؛ فهل هذا لأن الجو صحو دافئ ، ومن السهل أن يدع المرء معطفه ؛ أم لأنه أراد أن تبدو بدلته فى لونها الجميل فى هذا اليوم البهيج ؟ أيا كان السبب فإنها كانت بدلة ذات منظر جذاب . قد امتزج فيها لون الرماد بلون البنفسج . وحاكتها أمهر الأيدى فى برمنجهام فكانت خير ثوب يلبس فى حادث خطير كالشاى الذى دعى إليه اليوم . لم تكن كالثياب التى يلبسها زميله يوسف حين يذهب إلى بعض مشارب الشاى فى الشارع الجديد مع صاحبته إيتل ؛ فهذه — وأبيك — لم تكن مما يلبس عند تناول الشاى

فى برمنجهام بل هى أدنى إلى ما يلبسه الناس عند تناول الفول المدمس فى حى البغالة . وكذلك كان يوسف مُصِرا على نشر الثقافة البغّالية فى الديار الإنكليزية .

جعل صاحبنا يتمشى قاصداً دار الشريف دوفال ، وقد اختار أن يسعى على رجليه ، لا أن يركب الترام ، لكى ينعم بصفاء الهواء ، ولأنه كان يحب رياضة المشى . وهى الرياضة الوحيدة التى يمارسها ، وقد أطلق العنان لجواد الخيال فجعل يسبح به فى عالم فسيح من الأمل ، فأخذ يقطعه طولا وعرضا ، وجيئة وذهابا . ورجلاه تقطعان الطريق شيئاً فشيئا إلى دار مُضيفه الكريم .

— ٢ —

كانت دار آل دوفال من تلك المنازل القديمة ، التى بُنى كل شىء فيها للبقاء مدى الدهر . لم تشيد من أجل فرد سريع الفناء ؛ بل من أجل أسرة تبغى الخلود ، وقد زاد مر السنين فى روعتها ، وكساها حلة ذات جمال هادئ رزين ، وكان الهدوء هو الظاهرة الكبرى للدار وما يحيط بها . فالحى كله هادئ ساكن ، والدار هادئة ساكنة ، وأهلها هادئون إذا قابلوك ، أو حدثوك ، هادئون فى جدهم ، وفى مزاحهم ، وفى رضاهم

وسخطهم ، فلا تكاد تنزل رحابها ، حتى تحس أن بينك و بين العالم ذى الضجيج والعجيج ، مسافة ما بينك و بين النجوم .

فى حجرة فسيحة من حجر الدار ، جلس الشريف دوفال وزوجته يتحدثان إلى صديقهما رو بنصن وامرأته الفاضلة ، وهما من أهل مانشستر ، وكانوا منصرفين إلى حديثهم ، مستمتعين به ، لا يحاولون أن يقطعوا تياره المتدفق بإدارة آلة الإذاعة ، أو بالعزف على البيانو .

وكان حديثهم هادئاً كأنه خرير نهر بطىء الجريان ، وكانت الثغور تبسم المرة بعد المرة ، ولكن الأفواه لا تضحك ، اللهم إلا فم السيد دوفال نفسه ، فقد كان صوته أعلى قليلا من أصوات الآخرين ، وقد تناول حديثهم أموراً ليس من اليسير أن يتكلم الناس عنها فى هدوء . تحدثوا عن الاعتصاب الأخير الذى لم تشهد البلاد له نظيراً ، والذى تناول كل حرفة وصناعة ، وعن عصابة المجرمين التى دأبت السنين الطوال على إحراق المتاجر التى أنشأتها ، لكى تنال من شركات التأمين مالا كثيراً ، وعن الهند وما بها من العصيان ، وعن الحكومة وقصورها عن النهوض بأعباء الحكم ، وعن الضرائب الفادحة التى لم ترهق بمثلها أمة فى الدهر كله . .

وكانوا يجدون فى كل هذه الأحاديث موضعاً للفكاهة الهادئة الباردة . التى قلما يرتفع فيها الصوت ، أو تثور فيها الضوضاء .

وفى هـذا الهدوء المنتشر فى أرجاء الدار لم يكن من العسير أن يسمع الشريف دوفال وصحبه ، صوتاً خافتاً آتياً من بعيد ، عند ما انتصفت الساعة الخامسة ، ذلك أن هـنرى قد أقبل ودفع الرتاج الحديدى ثم رده . وجعل يمشى وسط الحديقة البعيدة الأطراف ، حتى انتهى إلى باب الدار . فألفاه مفتوحا . ولـكنه لم يدخل ، بل قرع الجرس . وانتظر ريثما جاء الخادم ، وتناول منه قبعته وقفازه . وأسرع هنرى فأخرج بطاقتـه من جيبه يريد أن يناولها الخادم ، ولـكن هذا لم يمد يده ليتسلمها ، بل ذكر له فى أدب أنهم ينتظرون حضوره ، ثم دفع باب الغرفة فدخل عزيز يسبقه الحياء ، ويصاحبه ارتباك يسير .

وبادر رب الدار فأخـذ يخاطب الضيف مازحاً ملاطفاً ، لكى يذهب عنه وحشته ، حتى يأنس بالدار وأهلها . فقال أهلا بك أيهـا الصديق ، الذى يأبى إلا أن يخالف السنة فيصل فى الموعد المضروب ، لا يتخلف لحظة . مع أن الذى نسمع عن أهل الشرق ، أنهم قل أن يكترثوا لمر الزمان ؛ وقل أن يعبأوا بالحرص الشـديد على الموعد المضروب . وأنا أسلك

بنفسى فى هذا الأمر مسلكا شرقيا . فإن أبغض شئ إلىّ هذا الحرص الشديد على دقة المواعيد . وأن ألزم الحضور فى ساعة ضيقة المدى لا أتقدم عنها ولا أتأخر . ناهيك بهـذه السكك الحديدية وقطاراتها ، التى لم ترزق ذرة من الحياء ، والتى لا تكترث للضعف البشرى ؛ ولا يعنيها من العالم شئ سوى أن تصيح وتزأر ، وتملأ الكون دخانا وضوضاء ، وتترك المتخلفين أمثالى على الرصيف ذاهلين ، يدقون كفا بكف . . . صدقنى يا عزيز إن هذه الحضارة قيود فوق قيود ، وذل فوق ذل . .

قال عزيز فى استحياء : « لا بد لـكل نعمة أن تشوبها شائبة » . فقال رب الدار :

« ولـكن ما رأيك فى هـــذا اليوم البديع ، وهوائه المدهش ؟ هذه الأشياء قد نجدها فى برمنجهام أحياناً . . . ولقد كانت مسز روبنصن تقول منذ لحظة إن صديقنا المصرى قد أوصى لنا بقطعة من هواء بلاده . فهل صحيح أنك أنت الذى أوصيت بهـذا الجو ، فقل لى بأبيك ، أى دكاكين برمنجهام تختزن هذا الصنف النادر من الهواء ؟ »

قالت السيدة روبنصن : « ليس فى برمنجهام مستودع للهواء الصحو يا ألبرت . والإتيان بمثل هذا الهواء سر لا يدركه

غير هؤلاء المصريين . فكلما تاقت نفسك إلى نفحة من هـذا الجو ، فادع صديقنا المصرى إلى منزلك ، ونحن معه بالطبع ، فننعم بالهواء الصحو ، والصحبة الطيبة ... هذه سارا قد أقبلت »

ودخلت إلى الحجرة فى تلك اللحظة فتاة فى منتصف العقد الثالث . ذات عيون واسعة ، زرقاء الحدقة ، تحيط بها أهداب سود ، وتعلوها حواجب سود . تنبعث منها نظرات ساكنة حالمة ... وفى سعة العينين ، والجبهة العالية استطاع عزيز أن يقرأ الصراحة والسمو والإباء ، وكان وجهها طلقاً ، دون أن تتكلف الابتسام ، وقد اكتست قامتها الناحلة الطويلة بثوب رمادى ، يلف جسمها من العنق إلى الكعبين ، ويستر الذراعين حتى المعصمين . ولم يكن فى يديها الناصعة البياض ، ولا أذنيها أو عنقها حلى ، ووجهها الشاحب الهادئ لم تعبث ببشرته الصافية ألوان أو دهان .

وقد خفق قلب عزيز خفقاناً شديداً حين مدت يدها لتصافحه ، فأحس بقبضة ليس فيها ضعف ولا تردد ولا تكلف . وصافحت السيدة روبنصن وزوجها ، ثم جلست إلى جانب الضيف المصرى .

ولم يكن بد فى يوم مشرق الوجه كهذا اليوم ، أن يكون

تناول الشاى فى الحديقــة لا فى حجرة الطعام . ولم تمض لحظة حتى أذن مؤذن الطعام . فانتقلت الجماعة إلى الحديقة . واتخذ كل فرد مكانه حول مائدة الشاى . فجلست ربة الدار فى الصدر وجلس عزيز عن يمينها وإلى جانبه سارا ، وجلس المستر روبنصن عن يسارها وإلى جانبه زوجته . وفى الطرف الآخر جلس الشريف دوفال يُشْرف بحفاوته وظرفه على المائدة والضيوف والحديث .

وفيما بين أقداح الشاى ، وألوان الطعام الخفيف الذى يصحبها . لم يلبث الحديث أن انتظم عقده ، واتصل حبله مرة ثانية ؛ فقال صاحب الدار وهو يبتسم : أتعلم يا عزيز أن صديقى روبنصن من أهل منشستر ، وليس من برمنجهام ؛ وهو معجب أكثر منى ومنك بهذا الهواء الصحو ، والشمس المشرقة : فإنهما سلعتان قلما تجدهما فى أسواق منشستر ، على كثرة ما بها من بضاعة وتجارة . قال عزيز « لقــد زرت منشستر مرة منذ عامين ، فى شهر آذار ، ولم ألبث بها طويلا » .

قال الآخر : « وحسنــاً فعلت ؛ ألم تنزل عليك فى تلك الأيام القلائل من الأمطار ما يكفى لملء نيلكم العظيم مرتين ؟ » .

فابتسم عزيز ولم يجب ؛ وقالت سارا : « لقــد اشتهرت منشستر عندنا بمطرها الغزير ، وجوها القاسى ، شهرة لا تحسد

عليها ، وأكبر ظنى أنها تستحق هذه السمعة ولم يظلمها فى هذا أحد ؛ وليس المطر الغزير وبرودة الهواء كل شيء : بل هنالك إلى جانب هـذا كله تلك السحب القاتمة من غبار الفحم التى ما برحت تغشى المدينة وما حولها . . . »

فقال المستر روبنصن ، وهو يتكلف الاحتجاج : « عَلَى رسلك يا سارا ، ولا تسرفى فى تصوير بلدى ، بما يتجاوز الحقيقة قليلا ، إن الذى يصغى إليك يخيل إليـه أن لك وطناً يحفه الصحو والهواء الفخم . فقولى أيتها الصديقة التى وطنها برمنجهام بأى شيء يفضل وطنك وطنى ؟ » .

قالت سارا — وهى تحدق فى الفضاء كأنما تتكلم بعينيها لا بشفتيها : « إن لكل امرئ وطنين لا وطناً واحداً : وطن للجسد ووطن للروح ، وما أحسبنى خارجة عن هذه القاعدة ؛ فأما وطن الجسم فأمره معروف . وأما وطن الروح فأمره خفى لا يكاد يتبينه العقل أو يدركه الفكر إلا محاطاً بكثير من الإبهام والغموض ؛ تغشاه الحجب ، وتستره عن العيون . ولقد أتوهمه أحياناً ، فيخيل إلىّ أنى أرى جبالاً ذات صخور حمراء كالمرجان تتفجر من بينها جداول متدفقة فى بياض اللجين . ومن حول كل جدول حصاً عجيب متعدد الألوان : تارة فى زرقة الفيروز ،

وطوراً فى حمرة الياقوت . وحين يتدفق المـاء من بينه تسمع فى خريره نغماً شجيا ، ولحناً مطرباً عذباً . وليست الصخور ذات صور جامدة هامدة ، بل أشكال ملؤها المنى والفهم . وللشجر — بل وللعشب — صور عديدة ، وقد انفرد كل منهـا بصورة عجيبة فريدة .. ولقد تمد الأشجار أغصانها فى خطوط وأشكال ، يحار لها الفكر . ولقد تنتهى الأنهار إلى بحيرة ذات عبير وأريج وحسن فاتن بهيج . . .

وليست هذه الصور واضحة فى قلبى حتى أصفها لكم وصفاً دقيقاً . ولـكنى مؤمنة إيماناً صادقاً ، بأن للروح وطناً ، وأن للجسم وطناً ... »

ألقت سارا عبارتها هذه فى صوت قوى رخيم ، وهى تنظر إلى أعلا كأنما تقرأ ما تقوله مسطراً فى الفضاء . أو كأنما تنطق عن وحى ...

وساد الصمت لحظة كأنما شغل الحاضرون بمـا سمعوه . فأما رو بنصن وزوجه ، فكان كل منهما يقول لنفسه ، إن سارا مابرحت فى ضلالها القديم وعالمها المسحور . وأما عزيز فقد اعتراه وجوم لمـا سمع ، فلم يكن يحسب أن مثل تلك الإشارة البريئة إلى برمنجهام ومنشستر ، تفضى إلى هـذه الفكرة الهائلة بأن

لكل إنسان وطنين ، واحداً للجسم وآخر للروح . ولم يستطع عزيز أن يمضى فى تتبع هذه الفكرة ، فإنه لم يصادف فى دراساته كلها شيئاً يشابهها ، ولهذا ظل واجماً مطرقاً برأسه . ثم تناول فنجال الشاى ، ورفعه إلى شفتيه ، لكى يخفى حيرته واضطرابه .

وقطع السيد دوفال حبل الصمت فقال : « إن علىّ واجباً أن أحذر صديقنا المصرى ، بأن من أهم المشاكل التى طغت على فكر سارتنا العزيزة مسئلة الروح والجسد والتفريق الشديد بينهما ، ولقد طالما حاولت أن أقنعها بالحجة والدليل ، و بالإغراء والتحذير بأن ليس هنالك فرق بين روح وجسد ، وأن كلا هذين شىء واحد ، وأنها لن تخطو بتفكيرها خطوة ، بإصرارها كل هذا الإصرار الشديد ، على أن ترى فروقا حيث لا توجد فروق ، وتتوهم اختلافا حيث لا يكون اختلاف ؛ فما برحت ترى السهل اليسير معقداً ، والأمر البسيط مركباً . . . »

هنا ضحكت سارا ضحكة هادئة خافتة ، وقالت : « إنك لا تهدى من أحببت ، و إنما بعث الأنبياء يا أبى إلى أمثالك من الجاحدين الناكرين .

ولكن ألا ترى معى أن هذه المادة التى طغى موجها على أحلامنا ، وطمست على قلوبنا ، وجعلت على أبصارنا غشاوة ،

هى التى حجبت عنك النور ، وتركتك تخبط فى الظلام ؟ وما أشك فى أن صديقنا المصرى يرى فى هـذا الأمر رأيى ، لأن الشرق مهبط الحكمة ، ولأن المادة لم تطمس على عقول أبنائه بعد . »

وتحولت الأنظار والابتسامات نحو هنرى عزيز ، وهى تتوق إلى استماع إجابته ؛ ولم يكن سعيداً بأن صار موضع اهتمام الجماعة . فإن فكره الذى امتلأ برسوم المبانى والعمارات ، لم يكن فيه فراغ للتفكير فى هذه الروحانيات الدقيقة ؛ وبرغم أنه لم يكن ملحداً أو لا دينيا ، فإنه فى الحق لم يكلف نفسه يوما تمحيص حقائق الدين ، ولم يجشم نفسه التفكير فى مسائله العميقة الدقيقة ، وكان يقبل القول الذى لقنه صغيراً بأن لكل إنسان جسما وروحا ، لكنه لم يكن قادراً أن يتصور هذا الأمر فى جلاء ووضوح . . . ونظر إلى من حوله ، فرأى أن ليس بد من أن يقول شيئاً ؛ فقال : « إنى لمندهش لما سمعته من الآنسة دوفال . فلقد خيل إلى أنها تستخدم عبارات مما قد يرد فى بعض الكتب الشرقية . وإنى أحس لهذا فخراً شديداً ، ونشوة طرب . . »

فقال الشريف دوفال : « إنى أحذرك يا صاح ، بأن ابنتى

سارا قد وسعت كتب الشرق دراسة وعلماً ؛ وعسى ألا يكون إلمامك بأسفار الشرق الأدنى والأقصى دون علمها ، وإلا فالويل لك . . . » ثم ضحك ضحكة طويلة عالية .

وقالت السيدة روبنصن : « إن سارا قد عُنيت أشد العناية بكتب القدماء ، بقدر ما أهملت كتب المحدثين . ولقد تتنازل أحياناً فتطالع كتابا حديثاً ، على شرط أن يتناول موضوعا قديما . . . »

فابتسمت سارا ، وهي تتناول بأناملها النحيلة قطعة صغيرة من الحلوى ، وتضعها بتؤدة على الطبق الذي بين يديها . ثم قالت : « ليس لي مفر من أن أعترف بصحة شطر غير قليل من هذه التهمة . ولكن حدثوني بالله . ماذا أصنع بهؤلاء المحدثين ، وبهذه الآلاف المتتابعة ، والجحافل المحتشدة من الرسائل والقصص ، والروايات والبحوث ، والصحف والسير ، والمذكرات والمشاهدات ، التي تغرقنا بها المطابع في كل موسم . أليس من التوفيق السماوي أن يستطيع المرء أن يرفع رأسه وسط هذا الطوفان الداهم ، دون أن يدركه الغرق ، أو يوارى في تراب تلك المقذوفات ؟ لقد سهلت المطابع على كل صعلوك الفكر ، تافه القلب ، حقير الرأي ، أن يمطر الناس بضاعته الغثة

محلاة مُزَوّقة ، خداعة ختارة ... وامتلأ العالم بهذه الترهات ، حتى خفى المعدن الثمين وسط الأكوام الهائلة من الزيف والتفاهة ، وحالت كثرة الشوك دون العثور على الزهر . فمن لى — ومن لكم — بمن يأخذ بأيدينا وسط هذا الحشد العظيم من المحار ، ويرشدنا إلى ما قد يكون فيه من الدر الثمين ؟ . .

« أما كتب القدماء فليس هذا شأنها ، فإن يد الزمان قد مرت عليها وهى يد قاسية جبارة ، فأفنت الغث الضعيف ، والعرض الزائل ، وتركت لنا الجوهر الغالى ، واللؤلؤ الثمين . . وكان الناس فيما مضى يكتبون للسادة وللكبراء ، فكانوا يبدعون ويتقنون ، ويعملون فى تمهل وتؤدة ؛ أما اليوم فإنهم يكتبون على عجل ، للطغام والعوام ، يبتغون عرض الحياة الدنيا ، ولقد نالوا لعمرى من ذلك حظا وافراً ، كما نالوا تقدير الطغام . ولكنى أربأ بنفسى وبكم أن نمنحهم من خبنا نحن ، ومن إعجابنا وتقديرنا ؛ فهو أسمى من أن يبذل لأمثال هؤلاء . ألا ترى أنى على صواب يا أبت ؟ قل إنى على حق وإلا استعديت عليك بصديقنا المصرى ! »

فقال الشريف دوفال : « إنك ما زلت فى ضلالك القديم ، ولا بد لى يوماً أن أجمع بينك وبين خمسين من هؤلاء المؤلفين ،

وأتركك و إياهم في حجرة واحدة ، بعد أن أغلق جميع النوافذ والأبواب » .

قالت سارا : « إن القديسين والشهداء كثيراً ما امتُحنوا وابتُلوا بما يشبه هذا البلاء ، فما ضعفوا ولا استكانوا ، وها أنت ذا قد صدقت نيتك على أن تقتل سارتك هذه القتلة الخالية من كل رحمة ! » .

فقال الوالد ضاحكا : « بل أدفع عنها كل شر وأذى .. » وهكذا خرجت سارا ظافرة منتصرة دون أن تتراجع قيد شعرة . ولم يكن من الصعب على هنرى عزيز أن يرى أن هـذه الفتاة على خلق قوى متين .

انتقل الحديث بعـد ذلك إلى موضوعات أقل خطراً ، وتناول أموراً لا تكترث لها سارا ، فلم تشترك فيها إلا بعبارات وجيزة و من غير تحمس أو اهتمام ...

وأخذت الجماعة بعد الشاى تمشى فى الحديقة الواسعة وطرقها المتشابكة ، فمشى هنرى إلى جانب سارا ، والشريف دوفال إلى جانب السيدة روبنصن ، بينما كان زوجها يتمشى مع ربة الدار .

ولم يتناول حـديث ساره وعزيز أمراً ذا خطر . فإنها لم تكن من ذلك الطراز الذى يسوق الحديث أبداً إلى ما يبعث

الجدلى من الموضوعات ، أو يدير الكلام إلى الناحية التى يستطيع أن يبدى فيها علمه واطلاعه . بل جعلت تسأله عن حياته فى انكلترة ، وأعماله فى الجامعة ، وعن رأيه فى البلاد وأهلها ، ورحلاته التى قام بها فى طول القطار وعرضه ؛ وقد استطاع هنرى أن يحدثها فى هذه الأمور جميعها حديثاً سهلا لطيفاً ؛ وكان من حسن حظه أن لم يتخذ الحديث طريقاً من تلك الطرق الروحانية الوعرة ، أو بحثاً فى فلسفة الشرق وحكمته ؛ بل كان حديثاً سائغاً عذبا ، لم يكد ينتهى حتى كان كل منهما ملما بطرف غير قليل من سيرة الآخر ؛ وكان واضحاً أن كلا منهما قد سر بلقاء صاحبه ، وأن هنرى لم ينته شعوره عند السرور بلقاء سارا ، والإعجاب بحسنها المادى وعقلها الرزين ، بل تجاوز السرور ، إلى السعادة ؛ بل و إلى الافتتان .

وحين دقت ساعة الكنيسة المجاورة بانتصاف الساعة الثامنة ، أحس هنرى أن الدعوة إلى الشاى لا ينبغى أن تمتد إلى ما بعد ذلك الوقت ؛ فنظر إلى الساعة التى على معصمه ونظر إلى سارا مبتسما .

قالت : أتريد العودة ؟

قال أجل ، ولكنى أكون سعيداً لو سمحت لى بأن أراك

فى أثناء هذا الأسبوع فنذهب إلى بعض المسارح .

قالت بل تحضر أنت لزيارتنا ، فإنى أريد أن أطلعك على مكتبتى ، فتفضل بزيارتنا يوم الأربع لكى نتحدث حديثاً أطول ، واحضر مبكراً إذا لم يكن لديك ما يشغلك .

ثم حياها مودعا ، وانطلق يحيي سائر الجماعة مصافحا ومودعا ومشى معه رب الدار إلى الباب ، وشكر له هذه الزيارة ورجاه أن يكررها .

فقال هنرى : إنه سعيد إذ أتيحت له هذه الفرصة للتعرف إلى أسرة دوفال الكريمة ؛ وأن الآنسة دوفال تكرمت فطلبت إليه أن يزورهم يوم الأربعاء المقبل ، لتطلعه على مكتبتها الحافلة .

فابتسم الوالد وهو يفتح الباب الحديدى وقال : إذن وجب عليك أن تستعد لامتحان عميق عويص ، فى آداب الشرق وعلومه ؛ والويل لك إن كنت تجهل حكمة الصين وفلسفة الهند ، وأدب الفرس ، ومتصوفى الإسلام ، ونساك النصرانية ، وأنبياء بنى إسرائيل . إن ابنتى سارا لا ترثى للجهل ، ولا تشفق على الجاهلين ؛ ولهذا أصبحت العلاقات بينى وبينها سيئة دائما ، حتى لقد سحبنا السفراء ، وقطعنا الصلات السياسية عدة مرار فى شهر واحد . . .

فابتسم هنرى عزيز ومد يده إلى الوالد محييا ، ثم انطلق مسرعا إلى منزله .

إن كلمات الوالد الأولى قد أدخلت فى قلبه شيئاً من الرعب ولكن الجملة الأخيرة قد هدأت روعه ، فسُرِّى عنه . إن سارا بلا شك امرأة عجيبة ؛ ولئن لم يكن بد من أن تسوء الصلات بينها وبينه على الصورة التى ساءت بها علاقتها بوالدها ؛ فليس فى هذا ضير كبير ؛ ومع هـذا أليس من السهل عليه أن ينتقل بالحديث معها إلى فن الريازة والبناء ؟ . . . إلى الميدان الذى برز فيه وعلا فيه نجمه ؟ ومن حسن حظه أنه ملم إلماما لا بأس به بفن البناء الشرقى ؛ وسيلذّ لها من غير شك أن تتحدث عن هذا الموضوع . إن صداقة مثل هـذه الفتاة لنعمة من أجل النعم ؛ فهل يتاح لمثله أن يسعد بتلك الصداقة ؟

إن النعم الجليلة تكتنفها أبداً صعاب وشدائد ؛ ولا بد لمن يخطب ود فتاة كسارا أن يسمو بنفسـه إلى مرتبة تدنيه من مرتبتها عقلا وذكاء . . . وتذكر هـنرى عزيز وهو يسعى إلى الترام ، قصة طالعها منذ زمن طويل ، أشار مؤلفها إلى الشقاء الذى يحل بالمنزل ، حين تكون المرأة فوق مرتبة زوجها فهماً وعلماً . . . عادت هذه الصورة إلى خاطره مع أن عهده بقراءتها

بعيد ، فهل تراه كان فى شك من أنه ند لسارا ومثيلاتها من النساء ؟ لئن كان مثل هذا الوهم قد وجد سبيلا إلى فكره فإنه لم يلبث أن ذاده عنه . . . ولعمرك كيف يُطالب إلى رجل أن يبلغ أكثر مما بلغه هنرى عزيز . ألم يصل بذكائه وجده إلى منزلة فى العلم ليس وراءها منزلة ؛ وشهد له كبار الأساتذة بالتفوق والتقدم ؟ وهل من المعقول أن يطالَب إنسان بأن يسمو إلى مكان أعلى مما بلغ . بل وهل هنالك مرتبة أرقى من التى وصل إليها ؟ . . فيم الشك والارتياب إذن ؟ إن سارا ستجد فى هنرى من غير شك صديقاً يعادلها ذكاء وعلماً ، ويضطرها بسمو ثقافته ، إلى أن تكبره وتجله .

وهكذا استطاع هنرى وهو جالس فى الطبقة العليا من الترام ، وسط الدخان المتصاعد من أفواه الجالسين ، ومن مناخرهم وسجايرهم ، أن يفكر فى أمره ، وأن يسلمه التفكير إلى شىء من الارتياح والاطمئنان .

— ٣ —

فى يوم الأربع المنشود ، أطلت من السماء على مدينة برمنجهام جيوش جرارة من السحب : ما بين أسود قاتم ،

وأغبر مكفهر . وآخر فى لون الرصاص . بعضها مشرف على المدينة يوشك أن ينقض ؛ والبعض متنقل يمشى بخطى رزينة ؛ فريق متماسك الأجزاء ، مندمج بعضه فى بعض ؛ وآخر متمزق تنفصل أوصاله ، ثم تعود فتتلاحم ... ثم تتمزق ... ولم تنتصف الساعة الخامسة حتى غشى الجو ظلام غريب ، ولمعت المصابيح من خلف النوافذ ، واختفى النهار . كما اختفت الشمس ، وكما توارى الصيف ، من وراء هذا الغِطاء الكثيف من السحاب المتجهم . ثم أخذ البرق يشتعل ، والرعد يدوى . والماء يتدفق من السماء ، ويرن صداه على الشوارع المرصوفة ، كأنما يضربها بالسياط .

* * *

فى تلك الساعة كانت سارا واقفة فى وسط مكتبتها الخاصة تستعرض رفافها الطويلة العريضة ، التى تستر الجدران حتى السقف ؛ كأنما تستعرض جيشاً اجتمعت صفوفه كالبنيان المرصوص ؛ مقسما إلى فرق وفيالق : هاهنا فيلق الصين بعَدّه وعديده وبحكمته وأدبه ، وأحاديث أبطاله وسِيَر رجاله ، وتاريخه الطويل ، وأوصاف بلاده الواسعة ... وإلى يمينه فيلق الهند العظيم ، بأنبيائه وشعرائه وفلاسفته وملوكه ، وقد اصطفوا جنباً

إلى جنب ، وتلامست مناكبهم وتدافعت أكتافهم . وإلى جوارهم فيلق الفرس ، وفيلق العرب والترك ، وفيلق المصريين ...

وفى هذه الساعة التى كانت تنتظر فيها الزائر المصرى ، وقف طرفها لحظات يستعرض الفيلق المصرى . وكان من أكبر الفيالق عدداً وأجلها خطراً . وفيه صفوف وراء صفوف ، تنطق بكل لسان وتتحدث عن كل عصر ...

نظرت سارا إلى الصف الهائل ، الذى استأثر به بناة الأهرام بحيث لم يكن لهم فيه شريك . وتناولت منه سفراً ، ونظرت فيه لحظة ، ثم ردته إلى موضعه ، وأطالت التأمل فى صف طويل ، قد ألبس حللا بديعة ، واكتسى بشىء كثير من القصب البراق ، والألوان الباهرة ، وقد استأثر به أخناتون وحده لم يشاركه فيه إنسان . وتناولت منه سفراً ضخما ، نظرت فيه طويلاً ، ثم ألقته برفق على منضدة ...

وعادت مرة أخرى تستعرض جندها ... فوقف بها هذا العرض بعد حين أمام أسفار الهند ، فمدت يدها إلى ديوان الشاعر الصوفى الزاهد « سندرايا » وأنزلته بتؤدة عن المكان الذى تبوأه ، وجعلت تقلب صفحاته ، حتى استقر بصرها على واحدة من قصائده كانت بها جد معجبة .

وكان منظرها بديعاً ، وهى تطالع كتاباً من أدب الهند ، وقد حلا لها فى هذا اليوم أن تلبس ثوباً أرجوانى اللون ، فيه تقليد جميل لثياب الهنديات ...

فى تلك اللحظة — وهى واقفة إلى جانب المصباح تنظر فى كتابها — دخلت الخادم ، وأعلنت قدوم الزائر المصرى . وأقبل على أثرها هنرى عزيز باسم الثغر ، فأمسكت سارا كتابها باليسرى ، ومدت اليمنى لتصافح زائرها وترحب به .

ثم دعته إلى الجلوس على كرسى بجانب الموقد ، وجلست هى فى كرسى مقابل له . وألقت نظرة على قطع الفحم وهى تلتهب فى الموقد ، وتندلع نيرانها صاعدة فى المدخنة . . ولم يكن بدٌّ من أن تبدأ الحديث بالكلام على الجو . فإن هذا أمر قد نزلت به قوانين ما ينبغى لأحد — حتى ولا لسارا الثائرة — أن تخرج عليها .

فقالت : « أرأيت أيها السيد عزيز هذا التناقض الشنيع بين جو هذا اليوم ، وجو الأحد الماضى . . وهل يجوز فى العقل أن يكون هذا اليوم الأقتم من أيام شهر أغسطس ؟ . هذا صيف انكلترة البديع : يوم صحو ثم عاصفة تحمل الرعد والبرق والمطر المنهمر ، ومصابيح تضاء فى وسط النهار ، وموقد تشتعل فيه النار

فى قلب الصيف . . . فانظر أى ثمن يدفعه ساكن الجزر البريطانية من أجل اتخاذ هذا القطر وطناً له . . ومع ذلك فإن الإيمان يقضى بأن نسلم بأن الله قد خلق هذه البلاد كما خلق سواها من الأقطار ... ولله فى خلقه شؤون » .

قال عزيز : « إنك قاسية فى الحكم على جو بلادكم ، وهو الذى علمكم الهدوء ، وعدم الاكتراث للحوادث الطارئة ، والكوارث المفاجئة » .

قالت : « أجل ، وقد اضطررنا لأن نكون أبداً على أهبة فى يوم الصحو البديع ، لاستقبال عاصفة داهمة . فترانا ونحن نلبس ثياب الصيف ، نحمل فى أيدينا المظلات والمعاطف لكى نكون على استعداد . وأظنك الآن فى شوق شديد لأن تعود إلى بلادك ، وإلى ارتداء ثيابك القومية ، ذات الجمال والانسجام » .

قال : « ولكنى لا أغير من زيى هذا شيئاً حين أعود إلى بلادى . . » .

قالت : « ماذا ؟ أتظل محتفظاً بهذه الثياب الأوربية الدميمة ، التى لا تلائم جوكم وتاريخكم وتقاليدكم ؟ » .

قال : « إن تاريخنا العصرى ، يقضى علينا بأن نتزيى

بالزى الأوربى ، جريا وراء الخطة التى نسير فيها من التمسك بكل ما هو أوربى حديث » .

قالت : « لكن ألست ترى أن فى هذا مسخاً أى مسخ؟ كيف تستطيعون أن تستحيلوا غربيين أوربيين ودماؤكم التى تجرى فى عروقكم شرقية ، والسماء التى تظلكم سماء المشرق وشمس المشرق؟ وكيف تضحون الزى القومى البديع ، وتنصرفون عنه إلى تقليد هـذه الأزياء الغربية ، التى لا نرى نحن فيها سوى الدمامة وفقر الذوق ؟ »

كانت سارا تلقى هذه العبارات القاسية بلهجة ملؤها العطف تخفف من قسوتها ، وبصوت هادئ عذب ينسى السامع مرارتها . ولهذا لم ينزعج لها عزيز ، بل رأى فيها شيئاً من المجاملة له وللبلاد التى ينتسب إليها . فقال وهو يبتسم : « إن فى العالم موجة هائلة قد طغت على كل قطر . وتريد أن تحيل الناس جميعاً إلى صور متقاربة متشابهة كلها . وقد اختفى الزى القومى فى أوربا نفسها ، حتى اضطر المحافظون إلى إنشاء الجمعيات العديدة لإحيائه . ومن الممكن أن تنشأ أمثالها فى مصر لإحياء زينا القومى » . . .

قالت : « إن الإصلاح الذى لا يشتمل إلا على ألفاظ تقال

ومشروعات ترسم ، شغل لاينفع ، وعبث لايجدى ، وإنما يجب على رجالكم أن يسنوا السنة ، ويضربوا المثل ، ويكونوا قدوة للناس . . . إن حركة المسخ هذه يجب أن تقفوها بعنف . ويجب أن يظل الشرق شرقا فى مظهره وفى روحه .

إنك اليوم ضيفى ، وحق الضيف الإكرام والملاطفة ، ولكنى لا أرى — وأنا واثقة أنك لا ترى — فى مصارحتك الحديث إخلالا بحقوق الضيف ! »

قال : « بل أكبر هذه الروح الكريمة التى تقضى بمصارحتى القول ، على قرب عهدى بشرف التعرف إلى أسرتكم النبيلة » .

قالت : « إذن قل لى : لقد عجبت كثيراً حين قرأت فى بطاقتك أن اسمك الأول هنرى ! فهل اتخذت هذا الاسم وأنت فى إنكلترة لكى يسهل على الناس مخاطبتك به ، بدلا من اسمك الشرقى الذى قد يراه الناس غريباً ؟ »

هنا تلعثم الشاب ، وتعثر لسانه بين فكيه ، وفى شىء غير قليل من المشقة والجهد استطاع أن يجيب : « إن اسم هنرى واسع الانتشار فى مصر وفى الأقطار المجاورة لمصر . »

قالت : « هذا ما كنت أخشاه ؛ إن عملية المسخ لم تترك

حتى الأسماء ! . . ما أحوجكم يا صديقى إلى حركة عنيفة كأنها الزلزلة الهائلة ، لكى توقظ الراقدين والغافلين ، وتريهم عظمة الشرق ، وجمال الشرق ، وضرورة الرجوع إلى الأصل ، والبناء على الأساس . إن الأمة التى تغفل ماضيها وتتناساه ليس لها فى الحياة أمل ! وهل تستطيع الشجرة أن تحيا إذا اجتثت أصولها أو أن تقوم بجذور مستعارة ، وأصول غريبة ؟ إن الدوحة قد تعيش وتحيا ، بعد أن تفقد الورق والأغصان ؛ أما قطع الأصول فقضاء عليها بالهلاك ! »

فقال هنرى : « لست أنكر أنى شديد الخجل من هذا الاسم الذى أحمله على الرغم منى ؛ ولكنى أستطيع أن أطمئنك إلى أن فى مصر اليوم حركة قوية لإحياء الأسماء القديمة . »

وكأنما خجل أن يكون هذا كل ما يستطيع أن يطمئن به خاطر هذه الفتاة العجيبة ، فسكت ، وسادت فترة سكون قصير ، خشى صاحبنا أن تنتهى إلى حوار جديد ، ونقد شديد ؛ وأمسى يخاف تلك الكلمة التى رددتها سارا مراراً ، وهى كلمة « المسخ » . . . يا للعجب ؛ هل محاولات المصريين وجهودهم للرقى ببلادهم إلى المستوى الغربى الرفيع ليست سوى ضرب من المسخ !

وأراد أن يغير موضوع الحديث تغييراً سهلا من غير تكلف ظاهر . فقال وهو يبتسم : « لقد كنت تطالعين فى هذا الكتاب ساعة أقبلت ؛ فماذا عساه أن يكون ؟

قالت : « هل تعرف شيئاً عن أدب الهند ؟ »

قال : « أعرف الشيء القليل . . » وكان هنرى فى هذا الجواب كاذبا كذبا لم يكن منه مفر . . .

قالت : « إن هذا ديوان شاعر صوفى ، يعجبنى أسلو به كثيراً ، اسمه سندرايا وهو ليس من المشهورين ؛ فمن الجائز أنك لم تسمع به ، ولكنى شديدة الإعجاب بشعره . ولقد كنت أطالع الساعة قصيدة له ضمنها حواراً بين الروح والجسد ؛ وأظن أنه لن يدهشك بعد ما سمعته من أقاربى يوم الأحد الماضى أن ترانى أتسلى بمطالعة هذا الضرب من الشعر . . .

هل تحب أن تشاركنى سرورى بمطالعة هذه القطعة ؟

قال هنرى متلهفاً : « إن هذا ليسرنى غاية السرور » ... ولم يكن بهنرى حب للشعر ، ولا ميل إلى الشعراء ؛ فقد مرت به أعوام الدراسة المصرية مر النسيم العليل ، فلم تترك فى صدره من آثار الأدب سوى بضعة أسماء لا تمثل فى خياله سوى صورة مبهمة غامضة ، ولكنه فى هذه الساعة تكلف حب

الشعر والشعراء ، وقد رأى فى هذا مخرجاً من المأزق الذى دفعه إليه اسمه الغريب ، وثيابه الغربية التى لم يدخر وسعاً فى حسن اختيارها وانتقائها .

قالت : « إذن أنصت إلىّ ! » ، واندفعت تقرأ هـذه القطعة بصوتها العذب الهادئ :

عراك الروح والجسد

الروح :

أيها الجسد الحائل الزائل !

لقد طال بى وعظك و إرشادك ، وكادت فى هدايتك أن تنفد حيلى ، و يدركنى اليأس !

كم أحاول أيها الجسد أن أُولّى وجهك شطر العظيم من الأمور ، والجليل من الغايات ، فيأبى وجهك إلا أن يظل منصرفاً إلى الصغير التافه والحقير الذى لا يجدى !

كم وددت لك — فى هذه اللحظات القصار ، التى أقضيها و إياك — أن تتطلع إلى الخلود و إلى السمو ، إلى مسبح الكواكب ومسرى النجوم ! وأردت لك أن تحطم السلاسل المُذلة التى تجذبك إلى هذا الحضيض ، وأن تصعد معى إلى

المراتب الشاهقة ؛ سابحاً فى الأثير الأبدى . . . مُحلقاً فى الصفاء الدائم . . . تاركا هــذا الأديم المتشبع بالأبخرة السامّة ، والهواء القتال !

فلماذا أحجمت أيها الجسد ؟

لماذا اخترت الحضيض ، وآثرت الدنايا المذلة ، والقيود المرهقة ، على الرفعة والحرية .

أى شراب هذا الذى تتناوله ، وفى كل قطرة منه حمام ، وفى كل جرعة بلاء ؟

شرابٌ لا يزيدك إلا انغماساً فى البشرية ، ونزولاً إلى الهوة !

ألمثل هذا يُعدل عن الـكوثر العلوى والشراب السماوى ، الذى يُحيي و يُعلى ؟

* * *

لـكم وددت لك أيها الجسد أن تنعم بالجميل ، وأن تطلب الجمال ، وتجدّ فى طلبه ، ولقد أريتك السبيل إليه ، ولـكنك — وا أسفاه ! — تأبى إلا الجرى وراء القبيح الدميم ؛ بل إنك لتفتن فى السعى وراء الدمامة افتناناً ، لو صرف إلى ما هو جليل وجميل لأدناك من مرتبة الآلهة ، وأشعرك سعادة ونعيما ، يقصر عن إدراكهما الوهم .

أتذكر أيها الجسد ، كم مرة حاولت أن أسبح بك فى عالم النور ، حيث تحس من الروعة والحسن ما يملأ قلبك الجامد باللطف والصفاء ، و يجعل لعينيك قدرة على إبصار ما لا يُبصر ، و إدراك ما لا يُدرك ؟

أجل طالما حاولت رفعك ، جاهدةً ، إلى ذلك السمو ؛ فلا أكاد أرقى بك درجة ، حتى تتغلب عليك بشريّتك فتهوى بى إلى حضيضك ، وتعود بى إلى ظلامك الدامس ، الذى تعشقه وتهواه ! .

فيا عجباً لك ! ما الذى أعشقك فيما لا يُعشق ؟ ورغّبك فى الذى يشقيك و يشقينى ، وصرفك عما فيه إسعادك و إسعادى ! لمَ أعرضت عنى ، حين أردت تطهيرك مما التصق بك من الأدران ، وانتشالك من البؤرة التى حلا لك الانغماس فيها ؟

فكم جمعت شتات عزيمتى ، و بذلت أقصى قواى ، لكى أدفعك عن ذلك المورد الدنس ، فتأبى ، و يا للعجب ! إلاّ أن تزيد انغماساً فى الرجس ، وانكباباً على الأقذار .

وهذه الشهوات التى تُبليك وتضنيك ، وتدنيك من مرتبة البهيمة العجماء بقدر ما تقصيك عن مقام الآلهة .

و ياليتها تشفى غليلك ، وتسكن ثائر رغباتك ؛ فما أرى

طعامك منها يزيدك إلا نهماً ؛ وشربك من حوضها لا يزيدك إلا ظمأ ، ولا تزال تُنزل بك العلل والأسقام ، حتى توردك حتفك !

فيا أيها الفانى ، لماذا تتعجل الفناء ، وتسارع إلى الدمار !

هل كنز حياتك فى هذا العالم كبير مُفعم ، حتى تُنفقَ منه بهذا السّرف الجنونى ؟

وهل لك أيها المسكين من بحر هذه الحياة إلا قطرة أو ذرة ، أليس الأجمل بك أن تصرفها فى استثمار لذات الخلود ، بدلاً من الانكباب القتال على لذات الفناء ؟

و يا ليتك بعد هذا كله تلقى وحدك جزاء صنعك ، وتجنى وحدك غرس كفك !

إننى — ويا للحسرة — أتعذب لعذابك وآلم لألمك ، وأشقى لشقائك !

وا أسفى على مجهودى الضائع ، ورجائى المتحطم .

***

الجسم :

لشدّ ما ملكك الغرور أيتها الروح .. الأبدية الأزلية ..

وما أشد زهدى فى أبديتك وأزليتك ...

إن الفناء عنصرى الذى أنتمى إليه . وشعارى الذى ألبسه ، ومطيتى التى أركبها فوق أديم هذا الثرى .

إن ساعة من هذا الفناء العزيز ، أحب إلى من كل ما أنت فيه من أبد وأزل .

وهذا الطين الذى ألتصق به أعذب فى فمى ، وأشهى إلى قلبى ، من تلك السموات العلى ، التى تريدين أن تسبحى بى فى معاليها ، وتوردينى مواردها .

مالى وذاك الضياء الساطع ، الذى لا أفهمه ولا أتذوقه . وذلك الكوثر الذى لا أحس له طعما ولا أستسيغه .

... ...

... ...

كانت سارا تتلو القصيدة بصوت فيه عذوبة وهدوء وموسيقى . وكانت تبدو على وجه عزيز علائم الارتياح المشرف على السعادة . . . وحين وصلت إلى هذا الجزء من القصيدة ، نظرت إليه وقالت : « إن هذه القطعة من أرق الشعر وأعذبه ، وأكبر ظنى أن شاعرنا هذا كان يفهم الجسد أكثر مما يفهم الروح . . . وأرجو أن يخطىء ظنى . . .

هـــذا فنجال الشاى الذى وعد به الصابرون . . . وقد

صبرت على حديثى ومطالعاتى زمناً ليس بالقليل » . . .

ثم طوت الكتاب وألقت به على منضدة ، وكانت الخادم قد صفت الفناجيل والأطباق على مائدة صغيرة إلى جانب الموقد ، بحيث لم يكن بهما حاجة إلى الانتقال إلى مكان آخر من الحجرة .

وقالت سارا ، وهى ممسكة بالابريق تملأ القدحين :

« نحن سكان الأقطار الشمالية ، قوم أشقياء تعساء : ماذا يكون مصيرنا لو حرمنا ما تدرّه علينا الأقطار الشرقية والجنوبية ؟ هذا الشاى الذى تحبونا به الهند والصين ؛ والقهوة التى حبتنا إياها بلادكم بلاد العرب ! والسكر الذى كنتم أول من أخرجه وأرسله إلينا ، ولا نزال فيه عالة عليكم ... حتى الخمور التى نلتمس فيها السرور ، وانشراح الصدور ، تخرج من الكروم التى لا تنتجها بلادنا ، ولا تعرفها تربتنا . . .

ومن قبلُ ما أعطيتمونا الدين الذى ندين به . والحروف التى نكتب بها ، والتاريخ الذى نعرف به عدد السنين والحساب .

ألست ترى معى يا سيدى عزيز أن البيض حشرات طفيلية على أجساد الشعوب السمراء والصفراء والسوداء ؟ . . »

قال عزيز : « لست أدرى هل أذهب فى التفكير معك

إلى كل هذا المدى . فإنكم قد أعطيتمونا فى مقابل ما أعطينا كم شيئاً كثيراً من عناصر الحضارة ولوازم المدنية : سكك من الحديد ، وقاطرات وسيارات وطائرات ومخترعات عديدة » .

قالت : « أجل ، وقد عجزت كل هذه المبتكرات الهائلة ، والمخترعات المدهشة ، أن تصلح روحا أو تطهر قلباً ، أو تملأ نفساً قاسية بالرحمة . أو أن تغيِّر — أو تستر — الجبلة الوحشية أو تقلم أظفار البهيمية . وقد أصبحنا برغم — بل بسبب — هذه الابتكارات أضرى من الضوارى ، وأعق من الخيانة ، وآثم من الإثم . لقد أوهمك والدى أننى أجهل أحوالنا الحاضرة وتاريخ العصر الذى نعيش فيه ، وأعشق القديم وأهيم به . ولكنهم لم يخبروك أننى ما اعتصمت بالماضى إلا هرباً من الحاضر .

« ما أجدركم أيها الشرقيون أن تتئدوا فى خطاكم حين تسيرون نحو حضارتنا ، وأن تتريثوا قبل أن تغترفوا من هذه الحياض الغربية ، فلقد يكون الذى تخسرونه أجل وأجمل مما تكسبون » .

* * *

هنا رأى هنرى أن الفرصة قد سنحت لكى يتحدث عن

فن العمارة وهندسة البناء ، وأن ينتقل بصاحبته إلى الموضوع الذى يتقنه ويعشقه . فقال : « إننى أوافقك على أن الشرقيين يجب ألا يتخلوا عن شرقيتهم ، ولكنهم يجب ألا يجمدوا ، فإن روح العصر تدفعهم ، وداعى التقدم يسوقهم ، فى غير بطء ولا هوادة . ولا بد من الابتكار والتجديد ، ومسايرة الزمان .

« ولقد وُفقنا فى هندسة البناء إلى أن ننتفع بدراسة الطراز الشرقى ، فى مختلف نواحيه . ولكن هذا لم يمنعنا من أن نُقْبِل على الطراز الحديث ، ونرى له مزاياه الماثلة التى لا تجحد . فهو أدنى إلى الاقتصاد ، وأوفق لمقتضيات العصر ، وأكثر قبولاً للتوسيع والتجديد ؛ وقد يكون أقل حسناً من بعض الأنواع الشرقية ، كالطراز العربى مثلا . ولكن الذى نضحيه فى ناحية الجمال ، نكتسبه فى ناحية الفائدة والاقتصاد . خصوصاً وقد ارتفعت أسعار أرض البناء فى جميع المدن ، والطراز الحديث خير ضمان لأن ينتفع صاحب المال بماله إلى أقصى حد ، بتعدد الطبقات . . .

« وقد علمت أخيراً أن كثيراً من الأحياء القديمة فى القاهرة قد هدمت ، وعلى الأخص من حول الجامع الأزهر . وكان جل أبنيتها من الطراز العربى العتيق ، فقامت مكانها طرق واسعة

فسيحة ، تحيط بها أبنية كلها من الطراز الحديث . وهكذا تتحول القاهرة المُعِزّية بالتدريج إلى مدينة القاهرة الحديثة . ولست أشك فى أنى سأضطلع بنصيبى من هذا العمل الجليل ، حين أعود إلى وطنى العزيز قريباً . . .

هل تعرفين مدينة القاهرة معرفة دقيقة ؟ » .

* * *

لو أن هنرى كان أكثر خبرة بالنساء ، لتريّث قبل أن يمضى فى حديثه إلى المدى الذى ذهب إليه . . . ولكن حماس الشباب ، قد وجد مجالا واسعاً ، فاندفع كالفرس الجامح . ولو تأمّل فى الوجه الذى أمامه قليلا ، لأدرك أن صاحبته لم تكن سعيدة بالذى تسمع . ولم يكن فى العالم من مستحدثات المدنية الغربية شىء أبغض إلى نفس سارا ، وآلم لعينيها ، وقلبها ، من تلك الأبنية الجبّاء المسحاء ، التى استطاعت أن تفرغ على مدن الغرب ثوبا ضافياً من الدمامة والتشويه . كما استطاعت أن تحجب الضياء والنور والحياة ، لكى يستطيع ذوو المال أن يستغلوا أرض المدن أكبر استغلال . وجاء فن العمارة ، وهو أرقى الفنون وأجلها ، فاستخذى أمام هذه النزعات النفعية ، فأقبل متزامناً ، يمسح يداً بيد ، يتملق هذه الميول ، ويقدم لها ما تشتهى

وترضى ، لا مايشتهيه الفن ويرضاه . فأصبح مثله كحُب المومس يكتسب بالأجر ، ويُشترى بالمال .

لم يكن قد مضى أكثر من عشرة أيام ، منذ أن ظهرت مقالة فى صحيفة نسائية شهيرة ، شنت بها سارا على فن البناء الحديث ، غارة شعواء ، توشك ألفاظها أن تنفجر عنفاً ، وأن تلتهب حنقاً . ولو أن هنرى فتش فى العالم كله عن كلام يسوءها به ، لما وجد أسوأ ولا أفظع من المدح ، الذى أسبغه على الفن الحديث ...

وقد وجمت سارا ، وظلت صامتة لا تحير جواباً على سؤاله .

يسألها هل ذهبت إلى مصر ؟ وهل تعرف مصر ... لقد كانت نفسها تتوق إلى زيارة أرض النيل ، تلك البلاد التى أحاطها الوهم بإطار من السحر والحسن . . . ولكن الذى سمعته الآن بعيد عن أن يحبب إليها هذه الزيارة . لقد كانت تتوقع أن تكون حضارة الغرب قد طغى موجها على مدينة القاهرة . ولكن أمن الممكن أن يتناول التشويه والمسخ حى الجامع الأزهر ؟ فيا تعساً للأيدى المنكودة التى باتت عاجزة إلا عن التشويه والتقبيح ! إن حى الأزهر ليس ملكا للقاهريين الممسوخين ، حتى يجعلوه مثلهم ممسوخاً مشوهاً دميما . إن حى الأزهر ملك

للعالم كله . بل ملك لشيء أجل من العالم : هو ملك للتاريخ والفن . فكيف ارتضى هؤلاء المحدثون الأشقياء أن يقوضوا بأيديهم دعائم وجودهم ، وأن يخونوا الأمانة التى اؤتمنوا عليها ؟

بمثل هذه الخواطر العنيفة كان الرأس الجميل ممتلئاً ، ولكن لم يجر على اللسان شيء منها ، فإن الطبع الذى طبعت عليه ، والأدب الذى تأدبت به ، كانا كفيلين بأن تعرف سارا كيف تكظم الغيظ ، وتلقى على ما يجيش بقلبها ستراً غليظاً . . . لقد كانت تود أن تبوح لعزيز برأيها فيه ، وبأنه ليس إلا كائناً ممسوخاً ، برغم علمه ودراسته — بل بسبب علمه ودراسته — كان حبها للشرق وللشرقيين يدفعها لأن تصارحه برأيها فيه ، وأدبها العالى يمسك لسانها عن الكلام .

فلم ترد أن تجيب عن سؤاله إياها : هل تعرف القاهرة ؟ خشيةَ أن تسيء إلى ضيفها ، ورأت ألاّ بد من أن تغير مجرى الحديث ، فدقت الجرس ، وجاءت الخادم ، فرفعت أوانى الشاى . وقالت سارا وهى تتكلف الابتسام ، وتريد أن تملأ اللحظات الباقية ، بما يشغل فكرها وفكر ضيفها عن الموضوع الذى آلمها : « هل لك فى أن ننتقل إلى حجرة الجلوس ،

وننصت إلى الإذاعة الموسيقية ، فمن الجائز أن يكون فى برنامج الليلة شيء معجب أو مطرب ؟ » .

وسارت تتقدمه مطرقة برأسها ، و بعد قليل كانا جالسين ينصتان إلى قطعة من تأليف شوبرت ، تمتاز بشيء كثير من العذوبة والرخامة ، لم ينبس فى خلالها أحد بكلمة ، وأخذت اللحظات تمضى تباعاً ، فى تمهل وتريث ، وسارا تحاول أن تتناسى ما فى صدرها من السخط على الناس عامة ، وعلى الماسخين والممسوخين خاصة .

و بعد أن أنصتا ساعة إلى الموسيقى سكنت الإذاعة لحظة فلم تجد سارا بدا من أن تسأل ضيفها : هل يجد فى الموسيقى الغربية طرباً يذكره بموسيقى بلاده ؟

كان من سوء حظ فتانا أن له بعض إلمام بالحوار الذى دار فى مصر حول الموسيقى الشرقية ، وأنها كافية أو غير كافية للتعبير عن الخواطر السامية ، والعواطف الدقيقة ، وكان من سوء حظه أن له رأياً ، أو شبه رأى فى هذا الأمر ، يذهب فيه مذهب التطرف فى نقد موسيقى بلاده ، ولم يجد حرجاً فى أن يصارح الآنسة الفاضلة برأيه ؛ فجعل يقص عليها أن الموسيقى الشرقية عامة والمصرية خاصة ، بعيدة كل البعد عن أن تتسع

لمقتضيات العصر الحديث ، والسلم الشرقى المعقد — بأنصاف وأرباع نغماته — بعيد كل البعد عن أن يكون أداة صالحة للعبارة الموسيقية الواسعة المدى ، وأن الآلات العتيقة التى لا تزال منتشرة فى بلاد الشرق يجب أن تنبذ ، وأن تحل محلها الآلات الحديثة المتعددة الأحجام والأشكال ، وأنه لا ينكر أن الموسيقى الشرقية قد تشتمل على نغمات حلوة ، ولكنها خالية من ذلك الانسجام الكلى الواسع الذى يشمل القطعة من أولها إلى آخرها ، وأن قد آن الأوان لأن ينبذ الشرقيون تلك النغمات القديمة ، وأن يشقوا لأنفسهم فى الموسيقى طريقاً جديداً ...

أصغت سارا إلى حديثه ، وقد أخذها وجوم شديد ؛ لم تستطع أن تخلص منه ، وملكتها الدهشة لما تراه وما تسمعه ، من أن قوماً يقدمون بهذا الخُرق المدهش ، على هدم كل دعامة يستند إليها مجدهم وعزهم .

ولم تستطع أن تفهم كيف يريد الشرقيون أن يهجروا السلم الموسيقى الدقيق الذى لديهم ؛ فى الوقت الذى مال رجال الموسيقى فى الغرب يميلون إلى الرجوع إلى السلم الشرقى .

ظلت سارا فى مكانها واجمة لا تحير كلاما ، وقد بدا عليها كأنها متعبة ؛ وساد الصمت طويلا . . فأحس هنرى أنه لم

يبق بد من أن يلتمس الإذن بالعودة إلى داره . . . ولم يخطر له لحظةً أنه قال كلمة واحدة آلمتْ مُضيفته ؛ فقد استطاعت أن تخفى ما فى صدرها ، إلى درجة لم يستطع معها — وهو القليل الخبرة بالنساء — أن يرى فى وجهها أثراً للألم والضجر ؛ فقال وهو ينهض من مجلسه بصوت خال من كل تكلف :

« هل تسمح لى الآنسة بأن أستأذنها فى الانصراف ! وأرجو ألا يكون حديثى قد أضجرها وأتعبها » .

قالت : « شكراً لك على هذه الزيارة . ولعلك تستطيع أن تحضر مرة أخرى لترى والدى قبل عودتك إلى مصر ! »

ومن العجيب أن هنرى لم يفهم ما انطوت عليه هذه العبارة من معنى خاص ، إذ أشارت إلى حضوره ليرى أباها ، لا ليراها هى . . . وقد خيل إليه أن فى عبارتها شيئاً كثيراً من اللطف والتشجيع ؛ ولهذا تجرأ وطلب منها أن تتفضل فتصحبه بعد ليال قلائل إلى إحدى دور التمثيل ، لكى ينظرا قطعة استعراضية كان لها بعض الشهرة فى برمنجهام وقتئذ . وهنا أيضاً خانه التوفيق ، فلو أنه أكثر دراية بأمور النساء لعلم أن سارا لم تكن بالمرأة التى تسر لرؤية تلك القطع الاستعراضية السخيفة التى يتهافت عليها شباب الجيل الجديد .

وبرغم هذا لم ترد أن ترد طلبه ردا عنيفاً ، وهو بعد ضيفها فقالت : إنها ستكتب إليه بالذى تراه فى هذا الأمر . فبادر وأخرج من جيبه بطاقته الشهيرة ، التى تزدحم بهما الحروف الأبجدية ، وفى ركنها الأيسر عنوان داره ببرمنجهام . .

ثم استأذن وانصرف ، وملء قلبه السرور والغبطة بهذا المساء البديع الذى قضاه مع هذه الغادة الكريمة الخَلق والخُلق

وفى طريقه إلى داره جعل يصور له الوهم آمالا دانية القطوف ، وأحلاما وشيكة التحقيق ، وانتصارات باهرة فى عالم الحياة ، لايضارعها سوى انتصاراته السالفة فى عالم الشهادات والامتحانات .. إن الليلة التى ستصاحبه فيها سارا إلى المسرح ، ستكون من غير شك ذات أثر هائل فى تاريخ حياته الحافل .

— ٤ —

وبعد فما أحراك يا صديقى أن تصور لنفسك ، ما نزل بعزيز من الحزن ، وما طغى عليه من الكمد ، حين انجلت عن عينيه غشاوة الوهم ، ورأى الخيبة والفشل يحدقان فى وجهه ، بسحنة عابسة ساخرة .

إنى لأرجو أن تكفينى مشقة وصف هذا المسكين . . يوم أخذ يجمع أمتعته على عجل ، ويتأهب للرحيل وهو شارد

اللب ذاهــل الفــكر ؛ يغالب الدمع الذى امتلأت به المآقى ، والغصص التى ملأت الحلق والصدر .

وعلى المـائدة كتابٌ تستطيع أن تقرأ فيه هذه السطور :

سيدى الفاضل :

أشكرك على تفضلك بدعوتى لمصاحبتــك إلى المسرح ؛ ولـكنى لست حريصــة على رؤية تلك القطع الاستعراضية السخيفة التى امتلأت بها مسارحنا الحديثة .

ولابد لى أن أنتهز هذه الفرصة ، لأحدثك بمـا لم أستطع أن أحدثك به أمس وأنت ضيفى ، وإكرامك واجبٌ على ؛ وأدب الضيافة يلزمنى الشىء الـكثير من المجاملة والملاطفــة ؛ ويضطرنى الآن إلى مصارحتك الرأى حبى للشرق ولفن الشرق وأدب الشرق ؛ ذلك أنى ألِمت أشد الألم إذ سمعتك تتحدث عن تلك النزعات الحديثة ، التى استطاعت أن تمسخ بلادكم مسخاً ، وتحيلها إلى صورة بشعة كريهة .

أكتب إليك ، وإنى لناقمة أشد النقمة على هذه الحضارة الغربيــة الدميمة ، التى لم تستطع أن تحتفظ بدمامتها لنفسها ، وأبت إلا أن تنشر عدواها ، فتصيب البلاد الآمنة المطمئنة ؛ التى تحيا وسط الشعر والخيال .

لقد كنت أتوهم أن التقاء الحضارات ، الذى لم يكن منه بد ، سينال أرضكم بشىء كثير من التشوه والمسخ ؛ ولكنى مهما تشاءمت ما كنت أتوقع أن ينال هذا المسخ حتى أسماءكم ولباسكم ، وأبنيتكم وموسيقاكم .

أجل ، والخطب الأكبر أنكم فى غفلة عن هذا كله ، تحسبون أنكم تسعون بهذا إلى الرق ، ولم يخطر للواحد منكم أنه ليس سوى كائن ممسوخ .

وختاما أبلغك تحيات والدى ، الذى يرجو أن يراك قبل رحيلك ، والسلام ؟

سارا ديفال

على هامش كليلة ودمنة :

عقد من اليشب

عقد من الشيب :

فى صباح يوم من آذار جلس دبشليم الملك فى مكتبه ، وقد علا وجهه الابتسام والتقطيب فى آن واحد : كان مقطباً لأن زوجته الجديدة هيفاء — ولا يعرف أن المعامل القومية لصنع الزوجات فى الهند قد أخرجت أرق وأفخم منها صناعة وإتقاناً وإبداعاً — مازالت تعنفه وتعنّيه فى الصباح والمساء ، تريد أن تسيره فى الصغيرة والكبيرة كما تشاء وتهوى ، وكانت المعامل التى أخرجتها قد زودتها لبلوغ هذا الغرض بلسان حاد ، أين منه السيوف المواضى ، وإرادة ملحة أين منها إرادة المدافع والدبابات ، وذكاء نافذ دونه السهام المسددة .

ولم يكن دبشليم حريصاً على أن تكون زوجته الجديدة ذات ذكاء وفطنة .

ولكن مدير المعامل المذكورة وقف من الملك موقفاً كله شرف ونبل ، وقال له بصراحة وجلاء : إنه لا يستطيع أن يتصور كيف تكون ملكة الهند غير حائزة لمنتهى الذكاء وأدق الفهم ..

ولكن دبشليم كان — على تقطيبه — مبتسما لأنه لم

يكن فى وسعه أن يفكر فى هيفائه العزيزة الفاتنة الحسن ، دون أن يبتسم وأن يطيل الابتسام ...

وهكذا أيها الصديق الكريم ! لا بد لكل نعمة من آفة ، ولا بد دون الشهد من لسعات النحل . ولست أدرى هل يليق بى و بك أن نطيل الحديث فى التفاصيل الدقيقة مما له صلة بحياة هذه الملكة الفتانة . لكن هنالك أمراً واحداً لا بد لى من أن أقصه عليك ، ولن يمنعنى الحياء من ذكره لك الساعة . ذلك أنه كان لهيفاء خُفّان أو كما تقول أنت : شبشبان . أحدهما أحمر قانئ فى لون الدم المهَراق ، وكانت تلبسه عند الغضب .. والآخر أخضر زاه وديع ، كأنه نبت الربيع ، وكانت تلبسه ساعة الرضى . وقد عرف دبشليم هذا منها ، وعلّمته التجارب أن يحسب للأمور حسابها .

فبالرغم من إعجابه الشديد بقوامها الرشيق . ومحياها الوسيم فإن أول شىء كان يفعله حين يراها أن يلقى نظرة عجلى على قدميها ، ثم يرفع عينه بسرعة إلى وجهها ...

وفى هذا اليوم العصيب من شهر آذار ، حلا لهيفاء أن تصب عليه سَجلا من الحيرة والارتباك ، فبرزت إليه وقد لبست الخف الأحمر فى القدم اليمنى ، والأخضر فى القدم اليسرى .

فهل بعد هذا يأخذك العجب من أن دبشليم كان مقطباً ومبتسما فى آن واحد .. ؟

على أن الملك لم يلبث طويلاً حتى اختفى من وجهه التقطيب وبقى الابتسام : ذلك أن هيفاء دخلت إلى المكتب مندفعة — مع أنها لم تبرحه إلا منذ هنيهة — وقد لبست الخف الأخضر فى كلا القدمين ، ثم نادت :

— « دبشليم ! » .

— « لبيك يا هيفاء ... »

— « أنبئنى يا دبشليم — وأنت النابغة فى الحساب — ما حاصل ضرب رأسين فى أربعة نعال ... ؟ »

فابتسم دبشليم ابتسامة عالية وقال : « ما أشبه هذا بحاصل ضرب خدين أسيلين فى أربع قبلات » .

— « ما للمزاح جئت يا دبشليم . إنى أتيت فى أمر شديد الخطر ... ؟ »

— « وأى أمر لك ليس شديد الخطر . أيتها العزيزة هيفا... »

— « أفهمتك يا دبشليم مراراً ألا تحذف الهمزة من اسمى ، إن هذا امتهان لا أقبله ، يجب أن تثبت المد إلى آخره » .

— « مد الله فى سعادتك ! إنى رغبت أن يكون الاسم

خفيفاً لطيفاً حتى يتناسب مع المسمى . فحذفت الهمزة ، وقد سمح لنا النحويون بذلك » .

— « يجب أن تصدر أمرك للنحويين ألا يسمحوا بذلك بعد اليوم . فإن فى مد الاسم نبلا وفخامة وموسيقى لا تتوفر فى قصره ... حتى ولا فى قصرك أنت ... »

ثم ابتسمت وقد أعجبتها هـذه النكتة اللفظية ... فابتسم معها دبشليم وقد سُرِّىَ عنه . ثم قالت :

— « لـكن ما لهذا أتيت . بل لأمر آخر أجل خطراً » .

— « ... ... ؟ »

— « يجب أن تكف عن لقاء هذا الفيلسوف المأفون بيدبا ؛ فقـد سئمت رؤية وجهه المقلوب السحنة ، ولحيته المِـكْنَسِيَّة » .

— « لا بأس عليك منه أيتها العزيزة ؛ إنه رجل كريم الطبع ، قوى الفكر ، حكيم باحث عالم » .

— « يجب أن يكف عن زيارتك ، ويجب أن تقصيه عنك ، والوقت الذى تقضيه وإياه أولى بك أن تقضيه مع أهلك وعشيرتك ، أو فى تدبير أمور مملكتك ، وأى بحث خطير يستطيع أن يقوم به ذلك الشيخ الخرِف ؟ » .

— « بحوث عديدة يا عزيزتى هيفاء ، أذكر لك منها على سبيل المثال . ذلك البحث العميق الذى أجراه منذ حين فى كيفية انقلاب الكلاب إلى ذئاب » .

— « وكيف كان ذلك ؟ » .

— « زعموا أنه كان بأرض بُرْدان المجاورة لمملكتنا شعب وديع ، عذب الروح ، مستسلم هادئ مستكين ، وقد بلغ من ثقته واطمئنانه إلى كل كائن أن ترك الناس كثيراً من مرافقهم ومصالحهم إلى الكلاب ترعاها وتحافظ عليها : فالأطفال الصغار تخرج إلى نزهتها أو مدارسها ، وليس من يحرسها سوى كلاب قد وضعت فيها الأمة ثقتها واعتادت منها الأمانة والإخلاص ؛ فأسلمت إليها فلذات أكبادها تسهر عليها فى الصباح والمساء ، وفى الغدو والرواح .

والقطعان العظيمة من الغنم التى تعيش الأمة من خيرها وتكتسى بأصوافها ، ليس لها من يحرسها و يكلؤها سوى تلك الكلاب ... ولقد ينام الزارع فى حقله ملء عينيه وهو مطمئن آمن ، لأن عين كلبه ترعاه وتسهر عليه . وهكذا كانت الأمة غافلة تلهو وتتسلى ، وتمرح وتلعب ، وهى واثقة أن العالم بخير ، لأن عيون الكلاب ساهرة ، وقلوب الكلاب مخلصة . . .

ومن قبلُ ما علّمها عُلماؤها وأهل الذكر فيها أن ليس للإنسان فى العالم صديق أكبر ولا أوفى من الكلب .

فعاش الشعب عيشة كلها راحة ودعة ، ولذة واستمتاع بفضل إخلاص هذه الكلاب التى اطمأن إليها الناس ، واعتمدوا عليها كل الاعتماد ، ومضى زمن غير قليل ، والكلاب لا تزداد إلا إخلاصاً والناس لا يزدادون إلا ثقة بالكلاب . »

ظلت هيفاء مصغية بصبر وجلد ، ودبشليم يطيل الوصف ، ويمعن فى الشرح حتى بلغ هذا الموضع من حديثه ؛ فلم تعد تطيق صبراً ، فصاحت به مقاطعة :

« أجل . . . وفى يوم من الأيام انقلبت الكلاب ذئاباً ، فافترست الأطفال ، وفتكت بالقطعان ، وأهلكت الحرث والنسل ، وانتشر فى أرض بردان الويل والشقاء ، فأى شىء فى هذا يستدعى البحث العميق ، وما عسى بيدبتك أن يفعل لكى ينقذ الأطفال والماشية ؟ » .

— « إننا يا عزيزتى لا يعنينا أن ننقذ الأطفال وأن نسترد القطعان ؛ بل المهم هو تلك المسألة الفلسفية الخطيرة ، وهى كيفية انقلاب الكلاب إلى ذئاب ! هذا هو مدار البحث الذى لا يستطيع العلم أن يسكت عنه ! وقد شمر بيدبا عن ساعد

الفلسفة ، وقام ببحث حيوانى عميق فى كيفية انقلاب الكلاب الحارثة إلى ذئاب ضارية ، وقد أخذ فى تحليل الدماء ومقارنة الأوصال والأشلاء ، لكى يقرر الفروق الجوهرية التى تفصل بين النوعين » .

قالت : « إن مثل بيدبتك هذا كمثل اليربوع يحلو له أن يتخذ فى الأرض نفقاً عميقاً بعيد الغور ؛ لكى يبحث وينقب . مع أن الحقيقة ملقاة فوق سطح الثرى ، لو كان له عين تبصر ، وفهم يدرك ... ولو أن فيلسوفك المأفون له إلمام يسير بالتاريخ ، ولم يقتصر على البحث الفلسفى العميق لأدرك أن ما حدث للبردانيين قد جرى لأمم عديدة ؛ فإن محض الاستسلام للأمناء وإطلاق حبلهم على الغارب مهما كانوا مخلصين سيدفع بهم إلى سبل الخيانة عاجلاً أو آجلاً ، ويجب أن يفهم بيدبتك هذا ، وأن تفهم أنت أيضاً يا دبشليم أن الضمان الصحيح للإخلاص هو سهر الرعية على الراعى حتى لا يغفل طرفه ، ولا تحدثه نفسه بخيانة أو إثم ...

وقديماً نشرتم الباطل بين النـاس بفلسفتكم الخاطئة ؛ إذ كنتم تنادون بأعلى صوتكم : بالراعى تصلح الرعية !.. يا عجباً

لكم من ضالين مضللين ، وخادعين مخدوعين : إن الرعيـة يا دبشليم هى التى تُصلح الراعى !

... كلا يا صديقى ليس فى هذه الأمور وأضرابها ما يستدعى البحث العميق ، فاطرد بيدبا فإن مجالسته مضيعة لوقتك العزيز . »

أبرقت أسارير دبشليم حين أنصت إلى هيفاء ، والحكمة تتدفق من بين شفتيها ! حقا إن دم الهند الزكى ليجرى فى عروقها ، ولكنه رغم إعجابه الشديد بملكته لم يكن يستطيع أن يستغنى عن بيدبا وخدماته الجليلة قبل أن يفرغا من تأليف كتابهما العظيم كليلة ودمنة ؛ خصوصاً بعد أن أوصت وزارة المعارف العمومية بشراء خمسة آلاف نسخة منه بمجرد الفراغ من تأليفه ...

إذن لا بد من التذرع بوسيلة والاحتيال بحيلة ، أو بكذبة صغيرة من ذلك النوع الذى يبتكره الأزواج لاكتساب ثقة الزوجات ...

ودبشليم عريق فى حرفة الزوجية ، بصير بأنواع الأكاذيب التى تخرج من الورطات ، وتنقذ من المواقف الحرجة ، وكان من حسن الحظ أن هيفاء سليمة الطوية ، سريعة التصديق ، وعلى الأخص حين تكون لابسة خفها الأخضر .

فنظر إليها دبشليم طويلا وهو صامت ، نظرة تكلف فيها الاهتمام والقلق الشديد وقال :

— « آه لو كنت تعلمين ! . . »

— « لو كنت أعلم ماذا ؟ . . »

— « إن بيدبا منصرف اليوم جسداً وروحا إلى عمل عظيم سيكون فيه أجل خدمة للدولة وللإنسانية ! . »

— « وماذا عسى أن يستطيع صنعه هذا الشيخ المسكين خدمة لبنى الإنسان ؟ »

— « إنه يعمل بجد وهمة ، وبذكاء وفطنة لاختراع شىء سيكون له أكبر الأثر فى تاريخ البشر ؛ فهو يشتغل لكى يستنبط دواء يتعاطاه الرجل فينقاد لزوجته انقياداً تاما . . وما من شك فى أن هـذا الدواء الناجع سيسير بالنوع البشرى فى مدارج الرقى والفلاح . . . »

كانت هيفاء مؤمنة أوثق الإيمـان بأن بنى الإنسان ان ينهضوا ويرتقوا ، حتى يصبح للزوجات الأمر النافذ فى العالم والنهى ، وسرها — وإن تظاهرت بعدم الاكتراث — أن يكون هذا ما يشغل الرجلين فى اجتماعاتهما الطويلة . فقالت :

« لئن كان هذا ما يشغلكما ، فإنى على استعداد لأن أمهلكما ستة أشهر أخرى . . »

فقال دبشليم همساً : « قابلة للتجديد ! »

ومضت هيفاء فى كلامها وقالت : « ولكن لابد لى أن أعرف كيف يصرف هذا الدواء وكيف يُتناول . ومن الذى يشرف على إعطاء ذلك العلاج ؟ »

— « إن هذا الأمر سيترك للأزواج ؛ فكل زوج يعلم أن الوطنية الحقة تتطلب منه أن يتناول هذا العلاج من آن لآن . »

— « كلا يا صديقى ! بل يصرف هـذا العلاج للزوجات لكى يضعنه فى طعام الأزواج ، كلَّ يوم على الريق ! »

فأبدى دبشليم الرضى التام بهـذا الشرط ، بل رآه طلباً وجيها . . عند ذلك تقدمت هيفاء منه ولمست يده ملاطفة . . ثم خرجت من الحجرة مندفعة كما دخلتها مندفعة . . . .

* * *

ابتسم دبشليم ابتسامة الظافر ، فإن هذه الأشهر الستة هى مهلة عظيمة يرجو فى أثنائها أن يتسنى له الجمع بين زوجته وفيلسوفه ، فإن نفورها منه لم يكن إلا لجهلها به . . وكان واثقاً أن لحظات قصاراً تتحدث فيها هيفاء إلى بيـدبا ، كفيلة بأن

تزيل ما فى قلبها من نفور لا يقوم على سبب . . . فعسى أن تتاح له هذه الفرصة قريباً . .

ثم صفق بيديه فدخل خادمه الخاص ، وركع بين يديه ، فقال له : « على ببيدبا ! »

و بعد قليل أقبل شيخ قصير القامة مستدير الوجه ، قد طغى المشيب على رأســـه الضخم ، ولحيته العظيمة ، وعلى حاجبيه البارزين المشرفين على عينين فيهما حدة و بريق كأنهما مصباحا كهرباء ؛ وفى جبهته الواسعة العالية سطور مســتطيلة عميقة متوازية كأنما رسمت رسماً أو نقشت نقشاً ...

وحيا الشيخ الملك تحية الأخ الصديق ، لم يركع له ولم يسجد . فقد ربطت بينهما أواصر الحكمة برباط متين ، وأزالت ما بينهما من الفروق التى ولدها الجهل والغرور ... وكان فى يد الفيلسوف صندوق مستدير من العاج ، عليــه نقوش منحوتة من الذهب الخالص . ولم يكد يســتقر بالحكيم المجلس حتى نظر إليه الملك مبتسما وقال له : « حدثنى يا بيدبا ! ما رأيك فى الرجل تجره زوجته من الأمام جرا أو تدفعــه من الخلف دفعاً ؟ أى الحالين أبعث على السلامة ، وأضمن لبلوغ الغاية ، وأجلب لســعادة الدنيا ، وحسن العاقبة فى الأخرى ؟ ... »

أدرك بيدبا حين أنصت إلى هذا السؤال أنه خارج عن دائرة كليلة ودمنة ، ويحتاج إلى إجابة خاصة خالية من ذكر الحيوان والنبات والمعادن ... فتنحنح ودفع بعمامته إلى الوراء قليلاً كعادته حين يريد أن ينطق بالحكمة وفصل الخطاب . وقال : « إن الحياة أيها الملك الجليل سبيل وعر ، ومركب صعب ، وهى طريق صاعدة أبداً ليس فيها سهولة ولا هوادة ، والناس تمضى فيها : كل على قدر طاقته ، يحاول بلوغ القمة العالية التى تنال عندها النفس سعادة العمر وتملك ناصية الدهر . .

وليس من شك فى أن الزوجة الصالحة خير معوان على تسنم الصعاب وبلوغ الذروة المنشودة ... فهى تأخذ بيد زوجها وتسير به فى خطى رزينة متئدة ... فينسى ، وهو يلمس تلك الكف الضعيفة القوية ، الرخصة المتينة ؛ ما يلقاه من عقبات وما يتعثر به من جنادل ، فلا تَزِلُّ له قدم ، ولا يحس جهداً ولا نصباً . ثم ينظر فجأة فإذا هو قد بلغ الغاية ووصل إلى القمة ... »

قال الملك : « فماذا يفعل الرجل الموفق حين يصل إلى الذروة المنشودة ؟ »

قال الحكيم : « هنالك فليُلق عصاه ، وليبق فى الذروة

مدى الحياة ! . وليحرص كل الحرص على أن يظل فى نعمته لا يبرحها أبداً ...

والشقىّ الشقىّ من تبطره النعمة ، ويفقده السموُّ والاتزان والرزانة ؛ فيجحد الجميل ، ويعمد إلى التمرد ، ويجدّ وهو وسط السعادة فى البحث عن الشقاء ؛ فلا يلبث أن يجده ، وكم من سعادةٍ نالها المرء بجهاد السنين ، وفقدها بحماقة لحظة ؛ وهنالك لن يجد من زوجه عوناً ولا مساعداً ، فيهوى إلى الحضيض ؛ حيث تلتهمه هوة الشقاء ... »

قال الملك : « فإنى اليوم يا بيدبا قد بلغت الذروة ، وسأحرص على البقاء فيها ، ولكن سعادتى لن تكمل حتى يسود الوفاق بينك وبين هيفاء ، فأنتما أجل ذخر عندى ، وعدتى فى الحياة : ففتش أيها العزيز فى جعبتك لعلك أن تجد وسيلة تتوسل بها للتوفيق بين أحب الناس إلى وأكرمهم على » .

قال بيدبا : « إن لدى وسيلة أرجو أن يأذن لى الملك بأن أتوسل بها ، وهى فى داخل هذا الصندوق الذى أحضرته معى اليوم » .

ثم فتح الصندوق بمفتاح من الذهب ، وكشف الغطاء ؛ فإذا فى داخله عقد عظيم من اليشب لا تكاد الأبصار تقع عليه

حتى يبهرها بياضه الناصع القوى ، تغشاه خضرة زاهية عجيبة ، وكان يشتمل على إحدى وثلاثين حبة ، قد انتظمها سلك ذهبى متين ...

وأخذ بيدبا يصف الملك ذلك العقد الثمين ، و يشرح له سر جماله ، ودقة صنعه : « إن هذا العقد من صنع أبرع الفنانين من أهل الصين الذين ليس لهم ضريع فى دقة الصناعة والإخلاص للفن ، وقد اختيرت له أكرم الأحجار ، وأكثرها متانة ورونقاً وبهاء ، ونُحتت كل حبة نحتاً دقيقاً ، وكل واحدة تمثل صورة ، وتقص قصة ... فالعشرة الأولى ترينا القوى الخالقة ممثلة فى شخص براهما ، والعشرة الثانية تحكى لنا القوى الحافظة : « وشنو » ، وهى تحرص كل الحرص على أن يبقى للعالم عظمته وجلاله ووحدته : والعشرة الأخيرة تمثل لنا القوى المدمرة فى شخص « سيفا » ، وهى تبتدع أنواع التخريب ، والناس يحاولون استرضاءها ، ودفع شرورها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ... و يتوسط الجميع هذا الحجر الكريم الذى لم تجُد بمثله جبال الهند والصين ، وهو يمثل العالم بأنجمه وكواكبه وسمائه وأرضه وجباله ؛ ولا يُعرف فى عالم الجوهر كله أن قد اجتمع فى جوهرة واحدة كل هذا الحسن وكل هذا الإبداع فى

التصوير ؛ وليس هذا كل شيء ؛ بل إن لكل حبة من حبات هذا العقد صوتا موسيقيا بديعاً ذا نغمة هادئة شجية …

لقد كان هذا العقد من تراث آل بيدبا وهو أجل شيء تملكه الأسرة ، وليس أحق بحمل أجمل العقود من أجمل الناس ! فهل يسمح الملك بأن يقدم حكيمه هذا العقد إلى الملكة الكريمة فيُقرَنَ الحسنُ بالحسن والكرمُ بالكرم » .

حينما سمع دبشليم حديث فيلسوفه أخذ يبتسم ابتسامة غليظة كادت تنقلب إلى ضحك مسموع .

ثم صفق بيديه ثلاثا فجاءت خادم سمراء قصيرة العود فقال لها يا سُدرا ! انظرى هل تسمح جلالة الملكة بأن تزورنا لحظة .

وبعد قليل سمع الملك والفيلسوف صوت الخف الأخضر يقرع البلاط قرعا منتظما قويا فوقف الرجلان واستقبلا هيفاء بابتسام لم يكن يخلو من ارتباك ، ولاقتهما بتقطيب لم يكن يخلو من علامات الرضى …

ثم قالت وهى تتكلف الشدة والجد فى الحديث : « أراك أيها الملك ما زلت تؤثر مجالسة البلهاء … »

قال بيدبا — وقد عادت إليه رباطة جأشه — « إن البلهاء يا مولاتى ثلاثة : من يأتمن اللص على المال ، ومن يولى الجاهل

شؤون العلم ، ومن يقلد الخائنين حكومة الأمة التى خانوها » .

قالت الملكة : « أراك ما زلت مولعاً بالفارغ من الكلام » .

قال بيدبا : « إن الفارغ ياسيدتى ثلاثة : عقل المعتوه ، ووعاء البخيل ، وفؤاد أم موسى ! »

قالت الملكة : « برغم طول لسانك لن يكون لك فى هذه الدار مستقر ولا مقام » .

قال الفيلسوف : « ثلاثة يا مولاتى لا تستقر فى ثلاثة : المال فى كف الكريم ، والصبر فى قلب العاشق ، والماء فى الغربال ... »

قالت الملكة : « هذه عبارة واهية ، وقد سبقك الأولون إلى خير منها ... »

قال الفيلسوف : « إن الواهى يا سيدتى ثلاثة — حجة الكاذب المخادع ، ومنزل ضعيف الدعائم ، ووزارة لا تعتمد على ثقة الأمة ... »

قالت الملكة ، وقد حلا لها هذا الحوار : « إننى على كل حال لن أرضى عن إقامتك هنا ... »

قال بيدبا : « ثلاثة لا ترضى أن تقيم فى ثلاثة : الكرم فى نفس اللئيم ، والهمة فى صدر الجبان ، والشجرة اليانعة فى وسط الصحراء » .

قالت الملكة : « يا لك من رجل غريب ! »

قال بيدبا : « ثلاثة يا مولاتى ... أجل لعمرى ... ثلاثة ... هم أغرب من دب على أديم الأرض : رجلٌ يلتمس النصيحة ، ثم يعمل بضدها ، ورجل ينكر الشمس وهو يراها طالعة ، وأمة تعبد الصنم وقد صنعته بأيديها » .

وخشى دبشليم الملك أن تفرغ جعبة الفيلسوف قبل أن تنفد كلمات الملكة التى رزقت ما شاء الله من فصاحة و بيان وطول لسان .

فقال : « ثق يا بيدبا أننى لن أكون لأمتى صنما معبوداً ؛ بل خادماً أميناً ! ! وأنت أيتها الملكة الكريمة ! لقد استقر الرأى بينى و بين فيلسوفى العزيز أن أودعه و يودعنى ، وأن يفارق هذا القصر فلا أراه ولا يرانى . لكنه يرجو — وأنا أشاركه هذ الرجاء — أن تتفضل الملكة فتقبل منه هذه الهدية الصغيرة التى يريد الحكيم أن تذكريه بها حين تنأى به الديار و يشط به المزار » .

ثم كشف الغطاء عن العقد ، وأخذ يطنب فى مدحه ما شاء و يصف لها ما اشتمل عليه من حسن وبهاء ، و بعد أن فرغ من الوصف أمسك بطرف العقد وجعل يقرع كل حبة

منه بطرف قلمه خفيفاً ؛ فتنبعث منـــه نغمات هادئة حلوة مطربة شجية .

فنظرت الملكة إلى الفيلسوف نظرة بدا فيها الرضى والعطف وصفقت بيديها ثلاثاً ؛ فجاءت سدرا الخادم الخاصة فقالت لها : « احملي هذا الصندوق يا سدرا إلى غرفة زينتي ... وأنت أيها الفيلسوف لقد قبلت هديتك وحسن رأيي فيك ، وليس عليك بأس فى أن تزور الملك متى شئت : وستظل أبواب هذا القصر مفتوحة لك أبداً » .

ثم انطلقت من الغرفة .

ونظر كل من الرجلين إلى صاحبه نظرة ذات معان ، وهما يبتسمان ابتسامة غليظة خبيثة .

فبماذا كانت تحدث كل منهما نفسه الأمارة بالسوء ؟

كانت بلا شك تقول له : « هكذا المرأة ! هكذا كانت منذ الأزل ، وهكذا ستبقى إلى الأبد ... فالطريق الموصل إلى رضاها محفوف دائماً بالحلى والفساتين ! » .

ولعلك تسألني الآن يا صديقي : هل صحيح ما ذهب إليه الظن السيء ؟ وجوابي أنني لا أدرى . فإن هيفاء كان يحلو

لما أن تتظاهر بأنها كسائر النساء تعشق الحلى والثياب !
وأكبر الظن أنها ما رضيت عن بيدبا لهديته ؛ بل لما رأت وسمعت من حديثه وحكمته ...

وساد الأمن والصفاء فى قصر دبشليم الملك ، وبات من الممكن تأليف كليلة ودمنة ...

مصر فى دورة الفلك

مصر فى دورة الفلك :

أى مصر !

على الرغم منى أعود إلى التفكير فيك . وعبثاً أحاول أن أصرف فكرى إلى حديث غير حديثك ، وذكر غير ذكرك ...

ولماذا أصرف فكرى عنك ؟ ...

ألأنى آلم إذ أفكر فيما تعانين ، وماقد عانيت على مر السنين ؟

ألم تعد فى النفس بقية من الشجاعة ، فأقابل بها الحقيقة ، وإن كان أعذب ما فيها علقماً مريراً ؟ ...

ألعلى أخشى إن أدمنت التفكير فيك ، أن أكون أبداً مقطب الجبين ، سجين الكآبة ، ثائر الفؤاد . لا أستقر على قرار ولا أعرف للحياة لذة ، فلا يبسم لى ثغر ، ولا تقر لى عين ؟

لماذا أصرف الفكر عنك ؟

ألأنى رويت من نميرك . وغُذيت من ترابك ، ونشقت من نسيمك ، ورتعت فى رياضك ، وأظلَّنى دوحُك ، وأطربنى شدو أطيارك ، وهدانى بدرك المنير إلى سر الجمال ، وسماؤك الصافية إلى وحى الخيال ، ونجومك اللامعة إلى جلال السكون ،

وشمسك المشرقة إلى قدرة الخالق ؟ مع هذا أحاول . أن أصرف فكرى عنك ! فأى عقوق هذا العقوق ؟ وأى جحود هذا الجحود ؟

* * *

أى مصر !

لقد كنت من قبل عظيمة جليلة . كنتِ من قبل ورأسك يسامى النجم .

وقد ترامت على أقدامك الأمم لتقتبس منك النور ، وتلتمس منك الهداية .

لقد كنت وفى كفك المائلة صولجان من الذهب ذو كرة مشرقة لامعة .

يومَ أنْ كانت الشعوب الأولى فى ظلامها الحالك ، مالها مَوْئِل غيرك ، يوم لا نورَ إلا نورك ، ولا هدًى إلا هديك .

كانت فى كفك كنوز الحضارة . وكنت تنثرينها بسخاء ، للقريب والبعيد . فباتوا وهم أغنياء بما التقطوا من خيراتك . وما اقتبسوا من هباتك . ثم حالت الحال ، فأمسيت وقد تحطم الصولجان ، وكسر الجناح وانتهك الحمى ؛ وذل الأنف العزيز ، وانسكب الدمع العصى ! .

فماذا دها السكون ؟ وأى إصبع قد أدارت الفلك تلك

الدورة الهائلة ، حتى قلبته رأساً على عقب ؟ ...

يقولون إنك قد عقمت ! .

عقمت فأصبحت لا تلدين الأحرار ، ولم يعد ثراك ينبت الأبطال !

أجل ! يزعمون أن تربتك لم تعد تخرج إلا الزعانف والقزم الذين همهم من العيش شهواتهم . ويعيشون فوق ثراك كالحشرات الطفيلية ، يستمرئون خيره ، ويحتسون رحيقه ، ثم لا يخطر لهم أن يذودوا عن حوض رواهم ، وموئل آوامهم ، ودوحة أظلتهم فروعها وغذاهم ثمرها... ماهم بالرجال ولا بأشباههم ولا يجرى فى عروقهم دم ، بل جبنٌ مُذل . وخنوع مهين ! .

يقولون هـذا كله عن بنيك يا مصر . فياليتهم كذبوا فيما ادّعَوه ! وياليت بنيك ينهضون لتكذيبهم !

أى مصر !

يقولون إن العام ربيع بعده صيف ، يتلوهما خريف وشتاء

فهل مضى ربيعك وبان ؟

أكُتِب لك الشتاء الأبدىّ والزمهرير السرمدى ؟

إن كان هذا حكم الدهر فما أَجْوَرَه ؟

إن كان هذا هو القضاء فما أقساه ؟

الثور فى مستودع الخزف

(٧)

الثور فى مستودع الخزف :

جعل الثور يطوف فى نواحى المدينة ، و يجول فى طرقاتها فى ساعةٍ غفل فيها الرعاة ، وغاب الحراس . فلم يزل يمشى على غير هُدًى ، حتى ساقه القدر المحتوم إلى مُستودَع الخزف :

فى دار صغيرة متعددة الحجرات ، جمع أهل المدينة تراثهم الخالد — أو الذى حسبوه خالداً — من خَزَف قديم وحديث .

وصناعة الخزف أقدم صناعات الإنسان جميعاً . بدأ يمارسها منذ آلاف من السنين ، وهو بعدُ فى مثل سذاجة الأطفال ، فكانت فى العصور الأولى شكولاً ساذجة ، وصوراً بسيطة . يراد بها النفع والفائدة ، لا الزينة والحسن ، فلا نقش فيها ولا تزويق ، ولا إتقان فى الصنع ولا إبداع . ثم لم تزل ترقى برقى الإنسان ، وتمشى و إياه جنباً إلى جنب ، وتحاكيه فى تقدمه ورفعته ، حتى غدت فنًّا من أجل الفنون ، وصناعة من أشرف الصناعات . وأبدع فيها الخيال البشرى أيّما إبداع ، فأصبح منها اليوم ما يعد تحفة القرون وفخار الفنون .

***

وهذه المدينة عريقة فى صناعة الخزف البديع ، قد نبغ فيها فى جميع العصور ، رهط من كبار رجال الفن ، فرفعوا فى العالم ذكرها . وحلقت شهرتها فى سماء الفنون . ولم يكن لها فى هذه الصناعة ضريب .

وفى هذه الدار الصغيرة ، قد أودع أهل المدينة خير ما أنتجته قرائح بنيها على مدى القرون ، لكى تكون معرضاً لهذه الصناعة يزورها الناس فى كل آونة ، فتنعم عيونهم بما فيها من جمال باهر ، وتنعم نفوسهم بما يبعثه الجمال فى النفس من سعادة وغبطة ؛ فكان بابها مفتوحاً النهار كله ، يقصد إليها الناس على الرحب والسعة ، فى كل ساعة من الزمان .

* * *

وفى ساعة نامت فيها ملائكة السعد واليُمن ، واستيقظت أبالسة النحس والشؤم ، ساقت المقادير العجيبة الغريبة ، ذلك الثور العنيف المخيف ، إلى هذه الدار — من دون الديار جميعاً !

ولم يلبث طويلاً حتى حملته أرجله إلى داخل الدار . فأجال عينيه فيما حوله ، فإذا أمامه آيات الفن ، مصفوفة على المناضد والرفاف : من أوانٍ قد ألبستها الحسنَ يدُ صناع ، وتعاون على نقشها وتصويرها البراعة والخيال ... ها هنا صورٌ تمثل

الطبيعة بزهرها ونَوْرها ، وخضرتها ونضرتها ، وأنهارها وعيونها ، ونبتها ودوحها ، ومائها وسمائها ... وهناك صُوَرٌ تمثل الطبيعة كما يراها خيال العبقرى ، لا كما يراها الناس ، فيزيد فى حسنها حسناً ، وفى شكولها أشكالاً وضروباً ...

وها هنا صور للحياة ، تذكرنا وصف أبى نواس للكؤوس ، يتمثل فيها الناس فى جدهم ولعبهم ، وفى سرورهم وكمدهم ، وحين يُريحون وحين يسرحون ، وحين يدأبون وحين يمرحون ... ومن تماثيل ذات حسن عزيز ؛ كأنما نُصبت هنالك لتقيم المعاذير لمن عَبَدَ الأوثان ، ومجّد الأصنام : منها القائم الناهض ، والجاثم الرابض ، والمتكئ والمستلقى ، والساكن الهادئ ، والثائر النافر ... بعضها قد أُلبس ثوباً أو بعض ثوب ، وبعضها عارٍ إلا من الحسن ، وكلها آيات فى الإبداع والابتكار .

فتباركت الأيدى القديرة ، التى أحالت الطين والصلصال إلى كل هذا الجمال والجلال !

* * *

رأى الثور هذا كله ، وما برأسه إدراك للفن أو تقدير للحسن ، وما فى غريزته فهمٌ لهذا الجمال المتسِقِ المؤتلف ، وهذه الصناعة الباهرة الساحرة ...

كلا ... بل فى غريزته عنف و بطش ، وتحطيم وتدمير .

فأجال فيما حوله نظرة بهيمة عجماء ، ثم تراجع إلى الوراء قليلاً ، شاهراً قرنين حديدين كالفولاذ ، واندفع نحو تلك التحف والطرف ، وصال فيها وجال...وهى — وا أسفاه ! — هَشَّةٌ ضعيفة ، سهلة المكسر ، لا حول لها أمام العنف ولا قوة .

فطاحت تلك الآيات إلى الثرى ، وتناثرت قطعها الغالية فى جوانب الدار !

وحملق الثور فى التدمير الذى أحدثه ، وكأنما راقه منظره ، فأعاد الكرة ، المرة بعد المرة .

وما هى إلا دقائق معدودة ، حتى لم يبق بالدار تمثال قائم ، ولا إناء منصوب ؛ بل استحالت جميعاً إلى شظايا مبعثرة ، وأجزاء متناثرة .

وقد اختلط بعضها ببعض ؛ فما تميز العين جَديدَها من قديمها ، ولا طارفها من تليدها ، ولا آنيةً من تمثال ، ولا رأساً من جسم . . . لقد صارت جميعاً أكداساً من الخزف المحطم ، ليس فيها من الجمال أثر ، ولا يُرى فيها شاهد على براعة الصناعة .

فى بضع دقائق استطاع هذا الحيوان العنيف أن يقضى على تراث القرون ، وثمار القرائح ، وخلاصة الفن ، وأن يحيل هذه

الدار ، ولم يكن لها نظير فى جمال التنسيق ، إلى دار فوضى قد شاع فيها الخراب والدمار !

* * *

ولم يكن بالدار غير فتاة ترعاها . هالها أن رأت ذلك الثور المخيف ، وأحست بالشر ، يوشك أن يحدق بالدار ومن بها . فغافلته وهو يلهو بالكسر و بالتحطيم ، وانطلقت تنشد النجدة والمعونة . . .

و بعد لأى أقبل الناس ، علّهم أن ينقذوا البقية الباقية ، فلم يجدوا بقية باقية ...

وهل شفى الغليل أن قُتل الثور ومُزِّق كل مُمَزَّق ؟

إن دماء ثِيَرَةِ الأرض جميعاً لا تعادل آية واحدة من آيات الفنون !

* * *

ويلُ الورى من عنيفٍ أحمقٍ خَرِفٍ
كأنه الثورُ فى مستودع الخزف

رأى جمالا وفنًا ليس يفهمه
وهاله ما رأى من مُبْدَع الطُّرَفِ

فلم يزل مُرْهِقاً قَرْنَيه ، مندفعاً

يجرى ، فيكسر ما ألفى من التحف

كأن فى صدره حقداً ومَوْجِدةً

لكل شئ بديع الصنع مؤتلف

وكيف يدرك (نور) أنَّ ذى تُحَفٌ

للحفظ والصون ، لا للتكسير والتلفِ ؟

روح الاسلام

روح الإسلام :

منذ سنوات كنت أطلب العلم فى جامعة لفر بول …

وفى ذلك الزمن كنت قد عاهدت نفسى وعصبة من الرفقاء منذ نزلنا بلاد الإنكليز ألاّ نألو جهداً فى إفهام القوم أمر بلادنا ، و إطلاعهم على مالنا من تاريخ مجيد وثقافة جليلة ؛ فكنا نرحب بكل من جاء يستطلع منا خبرا ، أو يستفتينا فى أمر يمتّ إلى الشرق بسبب .

وفى يوم من أيام الشتاء بعد انصرافى من إحدى المحاضرات ابتدرتنى طالبـة من الطالبات بالسؤال الآتى : هل تستطيع أن تخبرنى فى كلمة واحدة أو فى كلمات قلائل ما روح الإسلام ؟

أدهشنى السؤال لأول وهلة ، ونظرت إلى السائلة نظرة الحائر المستفسر . فأدركتْ أن فى السؤال شيئاً من الغموض .

فقالت : « إننا — مثلاً — نرى أن روح المسيحية يتمثل فى لفظ واحد وهو الحب . فهذا هو لب لباب ديننا ، والأساس الذى شيدت عليه صروح المسيحية كلها . فما من عقيدة ولا

شعائر ولا تعاليم إلا والحب محورها الذى تدور حوله . ولا تكترث لما قد تراه مخالفاً لذلك فما هو من المسيحية فى شئ . »

قلت : « إنك إذن تريدين منى كلمة واحدة أو كلمات قلائل تكون من الإسلام بمثابة كلمة الحب من المسيحية ؟ . »

قالت : « أجل فقد يكون روح الإسلام مثلا العدل أو القوة ... »

فأطرقت قليلاً ، وأنا أمعن فى التفكير ، لعلى أهتدى إلى جواب ترضاه وأرضاه . وخطر لى أن أشرح لها أن للإسلام أركاناً خمسة ... لكنى ذكرت أن فى المسيحية أيضاً صلاة وصياماً ؛ وخشيت أن تقول لى هذا من الدين بمثابة الجسم وأنها تبحث عن الروح .

قلت لها فى صراحة : « إننى ما خطر لى يوماً أن أبحث عن كلمة واحدة تؤدى كل ذلك المعنى الجليل الخطير ... وأنتم معشر الإنكليز قوم تحبون تبسيط كل مسألة ... ومع هذا أمهلونى أتدبر الأمر . أو أسأل أهل الذكر . فلا خير فى جواب عاجل لا ينطوى على الصواب . »

* * *

فى مساء ذلك اليوم جلست فى حجرتى مطرقاً ، مسنداً

رأسى إلى يدى ، محدّقاً فى مُصْطَلًى تشتعل فيه النار . كأنما كنت ألتمس الإلهام من لهيبها المندلع وقبسها المضطرم . وأطفأت المصابيح كى لا يلهينى عن التفكير ما بالحجرة من أثاث أو صور .

لم أكن — علم الله — من الملمين بعلوم الدين . وكنت أحس من نفسى عجزاً وقصوراً ، عن معالجة تلك المسألة ، ولكنى رغم هذا رأيت أن أحاول معالجتها ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

وجعلت أجهد فكرى أيما إجهاد . وخيل لى أنى أرى أمامى سبلاً كثيرة فجعلت أسلك كلا منها ، ولا أزال أتبعه إلى نهايته ، ثم أعود فأسلك طريقاً آخر فأجتازه إلى غايته : وكانت كل خطوة تدفعنى إلى خطوة أخرى حتى أبلغ نهاية المرحلة ..

وهكذا سلكت فى تفكيرى و بحثى طرقاً شتى . وعجبت إذ ألفيتنى أصل فى كل مرة إلى غاية واحدة ، و يسلمنى البحث إلى شئ واحد . . كان ينتهى بى التفكير دائماً إلى التوحيد . .

لعل روح الإسلام إذن هو التوحيد . . . فهل أرانى بلغت الغاية حين رست بى سفينة الفكر على ذلك الساحل الأمين ؟

أليس التوحيد أن يقصد الناس بجسدهم و بروحهم وجه الإله ، ولا ينصرفوا عنه إلى سواه ؟ وألا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ؟ . . . وأن نرتفع بأنفسنا عن عبادة تلك

الأوثان البشرية وعبادتُها ذلٌّ وإثم ، وهى تمثال ما بالعالم من شر ورجس ؟ أليس التوحيد هو الذى يرتفع بنا عن عبادة المال والتكالب على جمعه . . وعبادة الشهوات التى تسترقّنا وتُذلنا . أليس التوحيد إذن هو الذى يعلو بأنفسنا عن كل دنىء مهين ويرقى بنا إلى سماء كلها طهر وصفاء ؟

فيم التردد إذن ؟ إن روح الإسلام هو التوحيد .

* * *

جالت بنفسى هذه الخواطر ، وجعلت أرددها فى صدرى مراراً فلا تزداد إلا ثباتاً ورسوخاً . وخيل إلى أنى اهتديت إلى إجابة صريحة — لا لبس فيها ولا إبهام — على السؤال الذى سُئِلته صباح ذلك اليوم .

وكنت أخشى ألا ألتقى بصاحبة السؤال إلا بعد أيام ، فأردت أن أرسل لها الجواب فى طى كتاب .

فتناولت قلماً وورقاً ، وأوقدت المصابيح ، وجعلت أسطر ما جال بخاطرى ، فى شىء من الإسهاب والتفصيل ، كى لا يبقى فى صدر القارئة ذرة من الشك فى صحة ما استقر عليه رأيى .

وأعدت تلاوة الكتاب مراراً واطمأننت إلى أنه يؤدى كل ما جال بنفسى أحسن الأداء ، وكنت بهذا فرحا طروبا ؛

ثم طويت الكتاب ، ونهضت لأحمله إلى دار البريد .

فى تلك الساعة كان المطر ينهمل مدرارا ، فجلست إلى جانب النافذة أنتظر عله يكف أو يسكن قليلاً ، وجعلت أنظر إلى خارج الدار ، أتأمل الغيث إذ يتساقط على أحجار الشارع الملساء ، والضباب الخفيف وقد انتشر فى سائر الأرجاء ، والمصابيح وهى تبدو ضئيلة فاترة خلال الضباب والغيث ؛ وكأنها أشباح اليقين وسط دياجير الشك .

لم يطل تأملى لذلك المنظر حتى عاد بى الخاطر إلى موضوع الكتاب الذى بيدى . . وانتقل بى التفكير من الإسلام إلى البلاد التى تدين بالإسلام ، وجعلت أنظر بعين الوهم إلى تلك الأقطار ، التى يفصل بينى و بينها آلاف الأميال ، وأخذت ترتسم أمامى صورتها شيئاً فشيئاً . . .

ليت شعرى ماذا فى بلاد الإسلام من روح الإسلام ؟ وماذا فى بلاد التوحيد من التوحيد ؟

غشينى شىء من الذهول ورسم الوهم أمام عينى صورة مروّعة مُفْظِعة هائلة ، لتلك الأقطار القاصية . .

رأيت البلاد وقد حلق فوقها عقاب البغى باسطا عليها جناحيه ، ومنشبا فيها أظفاره ، وقد خضعت لسلطانه الرقاب ،

وعنت لخشيته الوجوه وهلعت الأفئدة وذلت الأعناق ورغمت الأنوف !

وانطلقت الأفواه تسبح بحمده ، وتمجده ، وهو لا يزداد إلا بغيا وعتوا ، والأعناق لا تزداد إلا خشوعا وذلا .

* * *

. . وتبدلت الرؤيا بعد ذلك . . فأبصرتُ هيكلا عظيم البناء ، لا يبلغ الطرف مداه ، ورأيت الناس منطلقين إلى أبوابه الكبيرة ليقيموا الشعائر . . زمر تسعى إثر زمر . . جموع تتجاذب وتتدافع وأفواج يموج بعضها فى بعض ؟ . . ولا تكاد الأبواب تحتويهم على سعتها . . .

ثم انكشف الغطاء وأبصرت ما بداخل الهيكل . . فإذا أوثان هائلة قد نصبت فى أرجاء الهيكل ، ومن دون كل صنم مذبح عظيم تقدم إليه القرابين ، ويحرق عنده البخور ، والناس من حولها بين قائم وقاعد وراكع وساجد . .

نظرت ذات اليمين فإذا صنم جبار أصفر اللون براق لامع ، ما شككت فى أنه (مامون) إله النضار . إن لم تنم عنه صورته فقد نم عنه رواده وقصاده .

جنود مجندة وكتائب محتشدة ، قد أقبلت على عبادته بأيد ممدودة ووجوه تفيض شرها وجشما .

وقد حمل كل عابد قربانه : هذا يقرب الشرف ، وذاك يذبح الدين ، والآخر يقدم الوفاء والميثاق ، وذلك يقرب وطنه الذى نماه وغذاه ، وصاحبه يقدم الأهل الذين أنجبوه . . . وهاهنا شخص يحرق ضميره ومبدأه بخورا . . . وهناك آخر يضحى بما لديه من عفاف وكبرياء . . .

وكأنْ ليس فى العالم شىء أعز وأكبر من أن يكون قرباناً لذلك الصنم الهائل الدميم ، الذى كان يقبل القربان حينا ، ويزْورّ عن عبّاده أحياناً ، فلا يزيدهم نفوره وازوراره إلا تهالكا عليه ، وغلوًّا فى عبادته ، وإكثارا من الضحايا والقرابين . . .

ثم نظرت إلى أطراف الهيكل ، فأبصرت جموعا أخرى عاكفة على أوثان أخر : هاهنا إله الشهوات وقد احتشدت عبيده من حوله ، وهنالك وثن المناصب والجاه والناس من حوله ركع سجود . . . وفى هذه الناحية وتلك : شكول وضروب من أصنام يكاد يخطئها العد ، ويعجز عنها الوصف .

* * *

وألفيت نفسى بعد قليل أتنفس الصعداء ، وقد انجابت عن عينى تلك الرؤيا ، ولم يبق أمام ناظرى سوى الغيث المنهمر ، والضباب المنتشر ، وضوء المصابيح الضئيلة .

ولبثت برهة واجماً ساكنا : وقد امتلأت نفسى حزناً وغما . . .

ثم نهضت ببطء شديد ، وأغلقت النافذة وأسدلت الستر وعدت إلى مجلسى بجانب الموقد . . .

وأمسكت بيد مرتجفة ذلك الكتاب الذى تعبت فى تسطيره وتحبيره .. و بيد مرتجفة ألقيت به فى النار ... وجعلت أحدق فيه إذ يحور لهيباً ودخانا . . .

وأحسست بقطرات تنحدر على خدى . . . فتناولت منديلى ومسحتها ... ولعلها من قطرات ذلك الغيث أصابت وجهى وأنا جالس لدى النافذة !

العشق النجمى



العشق النجمى :

لئن كنتَ أيها الصـديق ممن وقاهم الله غائلة العشق ، ولم تنفجر فى صدورهم قنابل الغرام ، ولم تضع المقادير قلوبهم بين سنديان الشقاء ومطرقة البلاء ، إذن فاحمد الله ، واشكر جدك الباسم !

لـكن إذا كنت خَلِيًّا فاذكر الشجىّ ، ولا تمنعك السعادة من أن ترثى للشقاء ، فإن لصرعى الغرام عليك حقا : أن تذرف من أجلهم لتراً أو لترين من الدمع الساخن ، ثم تسقى به ثراهم ، وتروى به الطلمحة الحزينة التى تظلل جدثهم .

* * *

وإنى محدثك اليوم عن ضرب جديد من العشق ، أو على الأقل ضرب كنت أحسـبه جديداً . . . إلى أن ألفيته قديماً ، شأن كل هذه الأشياء التى يطلع علينا بها المجددون . . .

بيد أن العشق الجديد الذى نحن بصدده ، إن لم يـكن حديداً فقد استحدثنا له اسماً جديداً ، ودعوناه « العشق النجمى »

وهو كما ترى اسم طريف ، ليس فى الكتّاب من سبقنا إليه .. ولا خير فى كاتب لاينهض للجليل من الأمور فيبتدع لها الجديد من الأسماء .

وأول من أصيب بالعشق النجمى فيما نعلم ، أو على الأقل أول من سجّلت إصابته رسميا ، هو العباس بن الأحنف إذ يقول عن حبيبته :

هى الشمس مسكنها فى السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا

هكذا كان ذلك العاشق المسكين : يطلب ما ليس إليه سبيل ، ويظمأ والشراب عزيز ، ويشتهى وقصارى جهده أن يشتهى .

ولعمرك ما دام مناط حبه الشمس ، فليس حظه منها سوى التطلع والتحديق ، والزفير والشهيق . . . هل كان يعلم ، عفا الله عنه ! أن بينه و بين الشمس ٩٤٫٠٠٠٫٠٠٠ ميلا فى الصيف و ٩١٫٠٠٠٫٠٠٠ ميلا فى الشتاء ؟ وهى فى كلا الحالين بعيدة المنال ؛ ليس إليها فى شتاء ولا صيف وصول .

ومن العبث أن ننصح أمثاله من العشاق أو نعذلهم ، أو نطلب إليهم أن يصرفوا هواهم إلى الممكن المتيسر ، والقريب

الدانى ؛ وأن يراعوا صحتهم ، فإن فى طلب المحال سقماً وسهداً ، وأن التحديق فى الشمس يضنى القلب كما يغشى البصر . . . ولكن هيهات . . .

إن المحب عن العذال دائماً فى صمم . . .

* * *

واحسب القارئ قد أخذ الآن يفهم ما أعنيه بالعشق النجمى ، وأظنه يتوهم أن العشق النجمى هو عشق الشىء البعيد المنال . . . لكن هذا ليس الذى أرمى إليه . إن العشق النجمى هو عشق النجوم نفسها ... أجل ، النجوم التى فى السماء على طريقة العباس بن الأحنف المذكور ، ورويداً يظهر لك ما أضمره . شيئاً فشيئاً .

* * *

هنالك أمراض تصيب الناس من آن لآن ، لكنها تصيبهم فرادى ؛ أى تصيب هذا مرة ، وذاك مرة أخرى . ثم يأتى بعد ذلك زمان تصبح فيه تلك الأمراض وباء يجتاح العالم كله ، إقليما بعد إقليم ، وشعباً بعد شعب .

وهكذا « العشق النجمى » كان فيما مضى يصيب الناس فرادى ، فأمسى الآن وباء شائعاً فاشياً ، قد ملأ السهل والجبل

وانتشر فى المشرق والمغرب . وسبب ذلك أن قد ظهرت فى العالم سماء جديدة : سماء غير السماء التى ألِفْنا . . وهذه السماء الجديدة تدعى « السنما » ، وقد امتلأت أرجاؤها بالنجوم .

والعشق الذى تتأجج ناره فى قلوب المغرمين ببعض هذه النجوم لا يختلف ، فى كثير ولا قليل ، عن ذلك الهوى المبرّح الذى وصفه لنا العباس بن الأحنف . وقد يظن بعض البسطاء أن نجوم السنما أدنى إلينا وأقرب منالاً ، إذ نراها أمامنا ، ونشاهدها بأعيننا ، وهذا لعمرك خطأ محض ! فإنها قريبة على بعد ، بعيدة على قرب :

والشرق نحو الغرب أقرب شقة
من بعـــد تلك الخمسة الأمتار !

والآن قد أدركت أيها القارئ ما « العشق النجمى » وأنه هو تلك اللوعة التى تحرق قلوب الناس فى مشارق الأرض ومغاربهـا من أجل بعض النجوم ، التى تدور فى أفلاك تدعى « الأفلام » فى سماء يسمونها « الشاشة » البيضاء .

فالعشق النجمى إذن منسوب إلى نجوم السنما ، وبالله لا تقل كواكب السنما ! لأن الكواكب فى علم الهيئة قريبة المنال

دانية المزار ، ومن علمائنا اليوم من يحلم بالوصـول إلى بعض الـكواكب كالمريخ .

أما النجوم فبعيدة بعد الشيء المستحيل ، وكذلك العشق النجمى فان مرامه بعيد ، ومأربه محال .

* * *

وأكبر ما يمتاز به هذا العشق أنه عُذرىّ . . فانك قد تولع بنجمة فتانة من نجوم هوليوود فيمتلئ بحبها قلبك ، وتملك عليك مشاعرك ، فلا ترى فى الأرض الفسيحة غير وجهها ، ولا تسمع غير صوتهـا . هى حلمك إذا هجعت ، ونجواك إذا صحوت ، إن أبصرتها فى قصة حزينة اسـتولى عليك الحزن والألم ، وإن أصابها برد أو زكام أصابك مثلها سعال وزكام ، وإن رأيتهـا ويا للهول ! — صريعة قتيلة قطع الحزن نياط قلبك ، وأظلم العالم فى وجهك ، فلا تزال كئيباً أسـيفاً ، جاحظ العين متقلص الشفتين ، حتى تراها فى فلم آخر فرحة ضاحكة ، فيُسرّى عنك وتبرق أسارير محياك ، وتضحك حتى تبدو نواجذك . . ومن الغريب أنك لا تأخذك الغيرة حين ترى عشاقها الـكثيرين .

ولا تستنكر منها أن تبدل فى كل (فلم) زوجا مكان زوج أو صاحبا مكان آخر . لا يهمك من هـذا كله شيء لأنك

لا تفكر فى غير سعادتها ، فكل ما ترضاه ترضاه ، ويحلو فى عينك ما يحلو فى عينها ، بل لقد ألهاك التفكير فيها عن التفكير فى شىء آخر .

ثم أنت بعد هذا كله لا ترجو نوالا ولا وصالا . تعلم أنها بعيدة عنك بعد النجم . وإن قربها منك الفِلْم . — وقد رُضْتَ النفس على هـذا البعد الممزوج بالقرب ، وهذا النوال المنطوى على الحرمان ، وهذا الوصل الذى هو أدنى إلى القِلى والهجران فلا تريد على حبك جزاء ولا لدائك دواء . ذلك أن هواك عذرى أفلاطونى برىء . فلا تريد لنارك المتأججة أن تطفأ ، ولا لقلبك المستعر أن يشفى ، حب هو الغاية والوسيلة . نار تأبى إلا اضطراما . ودمع يأبى إلا انسجاما . وتنّور يريد أن يفور ، وبركان يحلو له أن يثور ، من غير مأرب تنشده أو أمل تريد تحقيقه أو غاية تبغى الوصول إليها ، بل إن الحب هو الشغل الشاغل عن كل أمل أو مأرب أو مرام .

* * *

تلك إذن هى الظاهرة الأولى للعشق النجمى : إنه هو عذرى طاهر عفيف نظيف . أما الظاهرة الثانية لذلك العشق فهى أنه يصيبك من بعيد ... وقديماً وصف لنا الشريف

الرضى هـذه الظاهرة ، فقال يخاطب نجمته :

سهم أصاب وراميه بذى ســـلم

من بالعراق . . . لقد أبعَدْتِ مرماكِ !

ذو سلم هذا مكان فى جوار المدينة المنورة ، يكثر الشعراء من ذكره حين ينسبون . ولو كان لديك أيها القارئ مصور جغرافى لأمكنك أن تقيس المسافة بين العراق وذى ســلم ، ولعلمت أنها لا تتجاوز سبعمائة من الأميال . ومع ذلك يندهش الشريف الرضى لأن سهم الحب قد أصابه من ذى سلم والشاعر فى العراق ، لـكن تلك المسافة لا تعد شيئاً إذا قورنت إلى البعد الهائل الذى يفصل ما بين هوليوود و بين وادى النيل السعيد . . و إن النجمة الفاتنة لترمى بسهمها من تلك الأقطار القاصية فلا يلبث أن يصيب صميم الفؤاد . و يفتت الأكباد ، فى شرق العالم وغربه ؛ لا تحول دونه بحار ولا قفار .

وفى الحب العادى قد يكون البعد من أسباب الســلو ، والبعيد عن العين بعيد عن القلب فى زعم الناس . لـكن البعد بين المحب والمحبوبة شرط أساسى فى هذا الصنف من الغرام ، بل إنى زعيم بأن عاشق النجمة لو رآها على قارعة الطريق ، وهى تبتاع شيئاً من الحلوى ، أو داخلة إلى دكان الحلاق ، لرأى شيئاً

كسائر الأشياء ، وامرأة كسائر النساء ، ولما حدثته نفسه بأن قد يصيبه من مثل هذه قنبلة غرام . . . بل ولا سهم ضئيل . . .

كلا .. إنما يلعب حب النجوم بالأرواح عن بُعد .. ومن مستلزماته تلك الحجرات المظلمة القاتمة ، تبعث فى النفس رهبة وتثير فيها شغفاً ورغبة . وهذه الأنوار الساحرة تنبعث من مكان خفى وتسطع على لوح فضى : ظلام يتوسط النور ، ونور يحيط به الظلام .

وحسبك تلك الحال السحرية باعثة على الشجن ، ومثيرة لكامن الجنون .

وهكذا تستطيع النجمة ، وهى على سواحل المحيط الهادى أن ترسل أشعتها إلى أطراف العالم وتنشر شباكها فى جميع الأقطار

***

هـذا وللعشق النجمى خصائص أخرى ، ولكن ضربنا عن ذكرها صفحا ، لأنها تعد فى المرتبة الثانية من الأهمية ، وحسبنا ما ذكرناه وصفاً لأعراض ذلك المرض ... أستغفر الله بل تلك العاطفة القاهرة التى استرقت قلوب الناس من شباب وكهول ، وصفدتهم بسلاسلها وأغلالها . وقد أسلموها قيادهم طائعين خاضعين ...

دود على عود

دود على عود :

ها أنت ذا أيها الصديق ، قد استويت ومن معك على ذات ألواح ودسر . وقد أذنت ساعة الرحيل ، ولم يبق بد من الفراق ، فلم نجد مناصا من النزول إلى البر ، تاركيك على ظهرها غير آسف لفراقنا ، ولا مستشعر لوعة على تركنا . . .

وانطلق الصفير والزئير يشقان الفضاء ، فإذا السلالم قد رفعت والأهلاب قد جذبت من قاع البحر : وإذا سفينتك آخذة فى الابتعاد على مهل كأنها لا تريد أن تؤلمنا ببعدكم مرة واحدة : وإذا مناديلنا تخرج من جيوبنا بيضاء ناصعة ، وقد حملتها الأيدى أعلاما تهزها هزا ؛ وبين الجوانح قلوب تخفق خفقان الأعلام ، ولكن أعينكم لا تراها .

وها أنتم أولاء وقوف بإفريز السفينة ، تخفق مناديلكم بأيديكم خفقانا فاتراً ، لم ينبعث من قلب حزين ولا نفس آسفة ؛ وعلى ثغوركم ابتسامة تعِبتُ فى تأويلها وتفسيرها ؛ وأحسبها ابتسامة الرثاء والإشفاق : إنكم ترثون لنا ، معشر المقيمين ،

وتنظرون إلينا كأننا من نوع آخر غريب عنكم ، نوع يعيش عيشة الأشجار : تنشأ حيث تغرس ، ثم تنمو عليها الغصون والأوراق ، والزهر والثمر ؛ وهى باقية فى مكانها لا تبرح : وكلما تقادم بها العهد ازدادت تشبثاً بمنبتها وتعلقا بمغرسها ، لا تعرف ما ركوب البحار ، ولا لذة التنقل والأسفار ...

أجل ، كنتم تنظرون إلينا نظرة إشفاق ، وكأنكم بعض الآلهة تلقى نظرة من السماء على ما دونها من الكائنات ... وفى تلك الساعة رأيت دموعا كثيرة تنهمل . ولكنها كانت تتساقط من عيون المودعين لا الراحلين .

فياويل الشجى من الخلى ! وياويل المجهود من المجدود !

* * *

وعجبت لك أيها الصديق ، كيف ترحل عنا باسم الثغر ، قرير العين ، مثلج الصدر ، وأنت تعلم أنك راحل عنا أشهراً طوالا ، لا ترانا فيها ولا نراك ، أليس للود القديم حرمة ، ولا للحب المؤلف رعاية ؟ وهذا الوطن العزيز الذى أنبتك ثراه ، وغذاك هواؤه ، وأظلك دوحه ، وأنضجتك شمسه ، مالك لا تحس لفراقه جزعا ولا أسفاً ؟ بل كأنك بهذا الفراق جد مغتبط ، ولهذا الرحيل مشتاق متلهف ! لا تحاول الإنكار !

إن سرورك بهذا البعاد أكبر من أن يخفيه التكلف ؛ وما أنت ممن يحسنون تصنع الأسف ، بل إن بك شوقا شديداً باديا لمغادرة هذه الديار ، وكأنك لا تحيا بيننا تلك الشهور من كل عام ، إلا لكي تقضى هذه الأشهر بعيداً عنا . . فياعجبا ! أى شىء هذا السم الزعاف الذى يملأ هواء بلادنا ، ويحملنا على أن نجدّ فى البعد عنها ، وينفّر الابن البار من أمه البرة ! أهو هواؤها الحار ، أم مجتمعها الفاتر ، أم ما يحيق بها من ظلم وجحود ، ومن حرج وضيق ؟

لقد أخذت سفينتك تبتعد ، ولم تلبث أن اختفت عن الأبصار ، وأضحت كأمل البائس لا تزداد على المدى إلا بعداً . وكأنى بك واقفاً على ظهرها تتنفس نفساً عميقاً ، لكى تخرج من رئتيك ما قد ثوى فيهما من هواء ؛ كأنك لا تريد أن تحتفظ حتى بهذا القدر القليل من الذكرى ؛ بل تريد أن تأخذ عدتك لحياة جديدة وأيام سعيدة ... فما أخلقك ألا تُبقى للشقاء الغابر فى نفسك أثراً !

* * *

لكن أمامك فى السفينة أيامٌ لا أرانى غابطك عليها ، بين أناس قد اتخذوا الدعة شعاراً ، يصبحون كسالى ، ويمسون

كسالى ؛ لا يعرفون جِدًّا ولا دأباً ، أقصى همهم أكلة لذيذة يصيبونها ! أو رقدة طويلة يستطيبونها ، وما عرفت الناس أدنى إلى الأنعام فى مكان منهم على ظهر سفينة ... قصارى جهد كل منكم أن يقتل الوقت ، وأن يتخذ لذلك سبلا شتى : فمنكم العاكف على الشراب ، لا يشفى غليله الإسراف فيه ، ومنكم المكب على الورق يتسلى بإتلاف القليل من دراهمه أو الكثير ، وبعضكم يلتمس اللهو فى ألعاب تافهة ، أو فى تقليب صفحات كتاب هزيل ؛ إذ لا يستطيع أن يجشم نفسه مشقة أو جهداً .

ولقد تقدم العالم فى طريق المادة ، وجاء الاختراع بسفن ذات قوة وجسامة ، ولكن الركْب ما برحوا اليوم كما كانوا فى قديم الزمن : دود على عود !

* * *

وأحسبك تتوهم أن سيتاح لك وأنت بالسفينة أن تلتقى بأعظم الرجال وأجمل النساء ، ولست أدرى على أى عمد قام فى نفسك مثل هذا الرجاء ؟ وهو لعمرك جدير بما يصيبه من الخيبة المرة بعد المرة . إنك تظن أن العظمة والجمال فى العالم من الكثرة بحيث يجوز أن يكون لكل سفينة تشق البحار نصيب منهما ، وخيل إليك أن السفينة خير دار تلقاهما فيها ، حيث لا مفر

لما منك ؛ وأن المجال الضيق كفيل بأن يجعل الناس مُقْبلين بعضهم على بعض والوقت طويل مديد ، لابد للناس أن يتعاونوا على قطعه بالحديث والسمر ؛ فالفرصة إذن مؤاتية — فيما كنت تزعم — لأن تنعم نفسك بحديث العظمة ومرأى الجمال .

وما أشد ألمك حين ترى نفسك بين أناس ككل الناس أو أتفه من كل الناس ، وأن المجال الضيق قد حال بينك و بين الهرب منهم ، والوقت الطويل الفسيح قد حباك الفرصة اللازمة لأن تعجب كيف استطاع بنو الإنسان أن يشتملوا على كل هذه التفاهة والبلاهة .

لكن صدقني أن الذنب ذنبك أنت ؛ إذ تركت نفسك يحلق بها الأمل الكاذب ، فليست أم الدنيا ولوداً للعظمة والجمال بالدرجة التي صورها لك الوهم ، وما جل بنيها لو فتشت إلا الطغام ؛ وليس ببدع إن خلت سفينتك مما كنت تتمناه ، ثم نظرت حولك فلم تجد على ظهرها سوى دود على عود .

***

ولقد تشرق عليكم الشمس صبحاً وملؤها الروعة والبهاء فتضرج وجنات المشرق بالنجيع ، ثم تسكب على صفحة الماء نضاراً وسحراً ، وأنتم فى أسرتكم الضيقة القلقة راقدون ، يحاول

كل منكم النعاس وسط دمدمة الآلات وصرير الأبواب والجدران ، فلا تصيبون من النوم سوى شىء غريب ، ليس بالنوم الهادئ ولا باليقظة أو السهاد ، بل هو أشبه بغفلة تتخللها إفاقات قصيرة المدى …

وأخيراً تنهضون من رقادكم المضطرب ، ويقبل بعضكم على بعض تتثاءبون وتتحدثون أتفه الحديث .

وعند المساء تميل الشمس إلى الغروب ، وقد أحاطت بها السحب طبقات بعضها فوق بعض ، وهى تنحدر وسطها فى شىء من الحيرة ، كأنما تلتمس بينها طريقها إلى المغرب . تارة تحتجب وراء سحابة قاتمة حمراء ، وطوراً تستتر وراء أخرى استتاراً جزئيا لا يكاد يخفيها كأنها الحسناء فى الغلالة ، وتارة تنحسر السحب عنها تماماً فتبدو للعين كاملة لكنها ضعيفة لا تبهر البصر ، وكأن سير النهار قد أنهك قواها وأدال منها . فبات من السهل عليك أن تقف أمامها محدقاً فى محياها آمناً ، وهى كلما ازدادت ميلا إلى المغيب ازدادت ضعفاً وسقما …

لكنها استطاعت أن تملأ السماء بشعاع أحمر قانئ ، ونشرته أيضاً على صفحة الماء ؛ وقد اختلطت هذه الألوان كلها بعضها ببعض ، فكان منها صور تُعجِز الوصف . وأنت تذكر أيها

الصديق أننا قد اتفقنا — وقلما نتفق — على أن هذا المنظر : الشمس الغاربة وسط السحاب المنشور . فوق صفحات اليم هو أبدع شيء في الطبيعة كلها ؟ وما إخالك إلا آلماً أشد الألم . حين تنظر إلى من معك من أهل السفينة تحاول أن تتحدث إليهم بما يبعثه هذا المنظر في نفسك من إحساس و إجلال ... وفي تلك اللحظة يؤذّن مؤذن العشاء ، فإذا هم يغادرونك في شعرك وسحرك ، و يتسللون إلى حجرة الطعام راغبين عن لذة لا يعقلونها إلى لذة يفهمونها و يستمرئونها ...

و إن الصخور الصماء لتحس من معاني ذلك الغروب البديع أكثر مما تحسه أفئدة أصحابك هؤلاء وما هم لعمرك سوى دود على عود .

***

ولقد يكون البحر لكم أول الأمر صديقاً ، و بكم رفيقاً . ولكنه بعد ذلك قد ضاق بكم ذرعاً . فأراد أن يريكم أنه مثلكم يا بني آدم . ليس ذا وجه واحد ، بل إن له أوجهاً كثيرة وقد أراكم من قبل صفحة فيروزية زرقاء . ووجهاً هادئاً أملس ناعماً كأنه سهل فسيح من مرمر أزرق . وكانت جاريتكم

تجرى عليه فى اعتدال واتزان . لا تهتز ولا تميل ، وكلكم فرح بذلك مسرور ، تحسبون أن الوقت قد طاب وأنكم بنجوة من العذاب . ثم رأى البحر أن يريكم وجهاً من أوجهه الأخرى ، فعبس وتجهم وثار ومار ، وتطاير من وجهه الشرار ، وانقلب صفاؤه إلى كدر ، وهدوؤه إلى انفعال ، وحلمه إلى جهل ، ورزانته إلى رعونة ، وعلا موجه من كل جانب ، ووثب رذاذه على باخرتكم ، ودخل إلى نوافذ حجراتكم . وجعلت السفينة تمايل من اليمين إلى اليسار ، ثم من اليسار إلى اليمين ، ومن الخلف إلى الأمام ، ثم من الأمام إلى الخلف ، سكرى من غير سكر ، صرعى من غير صرع .

ولم تك إلا لحظة حتى انقلب اطمئنانكم إلى اضطراب :

وامتلأت نفوسكم جزعاً وقلوبكم هلعاً ، وانصرفتم عن الطعام والشراب ، وعن اللعب والحديث ، واستحالت رؤوسكم إلى قطعة من صداع وأوجاع ، وضعفت أرجلكم عن حمل أجسامكم ؛ فارتميتم على سرركم وأسلمتم أمركم إلى بارئكم .

فيا عجبا ! لقد أمعن الإنسان فى الإبداع والاختراع ، واستحدث كل هذه السفن الهائلة ذات السرعة والفخامة ...

ثم لا يزال ركابها اليوم كما كانوا فى عهد عمرو وعُمَر : دود على عود .

* * *

تلك أيامكم على ظهرها أيها الصديق ، و إنى لأرجو لك بعدها سفراً هيناً ورحلة ميمونة ، وما أجدرك ألا تجعلها كلها عبثاً ولعباً .

فى طريق البغال

فى طريق البقال :

الآن وقد بلغت ربوع الألب أيها الصديق ! فما أجدرك أن تلقى عصاك حيناً ، ثم تنعم النظر فيما حولك من خلق عجيب ، ومن روعة آخذة بالألباب ... فى هذا الجزء الصغير الجليل من العالم أرادت الأرض أن تسمو وتعلو .. أتراها كانت تريد أن تبلغ السموات ، ثم لم تلبث أن رأت هذا السمو قد أبلغها الزمهرير المهلك القارس ، فجمد فى صدرها الأمل والطموح ، واكتفت من الارتقاء بشىء لعلها تراه قليلا ونراه نحن جليلا ؟ وأيا كان ذلك السر الغامض الذى جاش به صدر الأرض ، وأيا كان مطمحها البعيد أو القريب ؛ فحسبى الآن وحسبك ما نتأمله فيها من حسن ، وما ننعم به من جمال .

فى هذه البقعة المباركة رفعت الأرض منا كبها ، وأمعنت فى الارتفاع ، وصعدت أعلامها فى الهواء ، وأسرفت فى الصعود ، واصطدمت السحب بهذه الأطواد الشامخة ، فسالت السحب غيثاً مدراراً ، وانحدر الغيث على جوانبها جداول وأنهاراً ، ثم اجتمع الماء من كل ناحية فى هذه البطائح المطمئنة ، ولم يزل

يجتمع حتى استحال إلى هـذه البحيرات البديعة ، وقد نزلت اليوم على ضفاف واحدة منها ؛ فراعك حسنها الماثل ، وفتنتك عيونها الساحرة ، واستهواك قوامها الرشيق وخدها الأسيل … ولقد بهرك منها بنوع خاص هذا الجمال المتجدد فى كل لحظة ، إذ تبدو لك الصبح فى لون ، والأصيل فى لون ، وتبدّل فى كل آونة ثوبا … أرأيت يا صديقى كيف حرتَ فى أمرك وأمرها ؛ فما تدرى أى ألوانها أحب إلى قلبك ، وأى أشكالها أشد امتلاكا لعقلك ؟

أمنظرها وقت الشروق وهى هادئة وادعة ، وقد انطبعت فى صفحتها البلورية الملساء صورة مبهمة قاتمة للجبال الشاهقة ، التى تحيط بها ؛ وقد حالت الجبال دون وصول أشعة الشمس ، فلم ينفذ إلى البحيرة من نورها سوى ضياء هادئ رقيق ، يبدى لك من الكون ما حسن ، ويخفى منه ما ليس بالحسن ؛ ولولا أنى أخشاك يا صديقى لقلت لك إن البحيرة فى تلك اللحظة تشبه الحسناء حين تستيقظ من النعاس ، ولكنى أحسبك لا تعبأ بمثل هذا التشبيه …

أم منظرُها وقت الظهيرة حين تظلها سماء صافية زرقاء ، وتبدو الجبال من حولها ، وهى تزهو بثوبها السندسى الأخضر

فبدت لك البحيرة فى رداء عجيب : فى مزيج من فيروز السماء ومن زمرد المروج الخضراء ؟

أم منظرها وقد مالت الشمس للمغيب ، وقد اشتمل الكون برداء مصفر حزين ، وامتدت الظلال وأمعنت فى الامتداد ، وأوت الطير إلى وكورها ، وخففت من غلوائها ؛ ولاحت لك البحيرة وقد تمثل فيها كل هذا الهدوء الحزين ، وعلى محياها ذلك الشحوب الفاتن ؛ فى هـذه الساعة القصيرة تتبدل لك الألوان والشكول بسرعة هائلة ، فلا تكاد العين أن تقع على منظر حتى يحول ويتغير .

قل لى أيها الصديق ! أما استهواك منظر هذه الأطواد التى أحدقت بالبحيرة من كل جانب ، وقد اختفى تحت الماء منها شطر ، وحلق فى السماء شطر . فأما شطرها البادى للعيون فقد اكتسى بغطاء محكم من النجم والشجر .

وأما شطرها الذى غمره ماء البحيرة فإنه عار ، ومن عناية الأقدار أن غمرته المياه فسترته عن العيون .

ولكن حدثنى يا صاح ! أى هذين الشطرين قد شاقك أمره ؟ فتاقت نفسك إلى إدراك غامضه واجتلاء ما خفى منه ؟ هل خطر لك أن تغوص إلى أعماق هذه البحيرة حتى تبلغ أقصى

أصول تلك الجبال فتطلّع على ما خفى من سرها وما أبهم من أمرها ؟ أم شاقك منظر هذه القمم الصاعدة فى السماء فأردت أن تبلغ ذراها ؟ إنى لا أظنك تحاول الأولى ؛ فقليل من الناس من تستهويه الأعماق البعيدة ، فيحاول أن يغوص إليها . ونحن ذوو أحلام ضحْلة ، لا نجد فى البحث العميق إلا عناء ونصبا . وسنبقى مدى الدهر قانعين بالظواهر تخدعنا وتقنعنا .

أما هذه القمم العالية فانك تراها أمامك كل حين ، تبصرها عند ما تستيقظ ، وتشرف عليك من سمائها النهار كله . وتبدو لعينيك فى الليل البهيم مظلمة قاتمة ، غامضة رهيبة ، لكنها — على هذا كله — جذابة أبداً ...

وأحسبك قد استهواك أمرها ، وحدثتك نفسك بالصعود إليها . وفى كل نفس دافع ملح يدفعها أبداً إلى المعالى ويجشّمها فى سبيلها الصعاب .

وكأنى بك ، أيها الصديق ، وقد جلست فوق صخرة مشرفة على البحيرة وجعلت تتأمل هذه القمم ، فتحس شوقا قد تملك قلبك ، وضراما متوقداً ، يستثير همتك إلى صعود هذه الجبال ، وبلوغ تلك المعالى .

إنك تريد أن تسمو حيث يحلق العقاب ، ويسبح السحاب

حيث تنشق ذلك الهواء النقي الزكي الذي تنشقه البزاة والنسور ، لا هذا الهواء الأسفل الذي امتلأ بالأدران والأكدار ؛ حيث تنظر من تلك القمم مطلاً على هذه الأجساد التي تتحرك على أديم الثرى ، فتراها من ذلك الارتفاع الشاهق على حقيقتها ؛ فإذا هي في عينيك دود يزحف أو حشرات تحبو .

إن بلوغ تلك القمم لخليق حقا بأن يكون مطمع العين ، ومنية النفس ، ولا حرج عليك إن كنت قد شغفك حب تلك المعالي وأهمك التفكير فيها ، فطوراً يحملك الأمل على جناحيه ويحلق بك في جو السماء ؛ فتخال المرام قريباً ، وأنه منك قاب قوسين ، وطوراً يثوب إليك الرشد فتفكر وتقدر ، وتقارن بين همتك وقدرتك ... فلا تزال بين ارتفاع وهبوط ، وإقدام وإحجام .

ثم كأني أراك بعد ذلك ، وقد قطبت جبينك ، وعضضت على نواجذك ؟ فهل صح عزمك على أن تجشم النفس هذا العناء الثقيل وهذا الجهاد الطويل !

لئن كانت تلك عزمتك التي عزمت ، فهل تعلم أي الطرق تسلك كي تبلغ مأربك ؟

إن لهذه القمم التي تراها حديثاً شيقاً طليا ، سأحاول الآن

أن أسر إليك خبره فلعلك واجد فيه عوناً على النجاح أو سلواناً عن الإخفاق ...

إن الناس أيها الصديق يبلغون تلك المعالى من طرق ثلاثة ليس لها رابع : فأما الطريق الأول فسبيل معبد ممهد تحف به الرياحين وتجرى حوله الأنهار ، وقد نبت فيه العشب الندى ، وأحاط به الثمر الجنى ، وأعجب ما فى هذا الطريق أن سالكه لا يكاد أن يسير فيه خطوات قلائل حتى يبلغ مأربه . كأنما الغاية تسعى إليه ولا يسعى إليها ، أو كان الطريق يحمله حملاً يبلغه مرامه ؛ فما هو إلا أن يغمض طرفه ثم يفتحه ؛ فإذا الأمانى قد تحققت والمعالى قد دنت ودانت .

وأظنك تعلم يا صديقى أن ليس لأمثالك وأمثالى أن يسلكوا هذا الطريق ، وأحسبك تعلم أنه مما اختص به أولئك المجدودون الذين ولدوا فى حجر النعيم ، ورعتهم نجوم السعد ، وحرستهم عين المشترى ، وهزّت أرجوحتهم يد الزهرة ، وفى وسعهم إن شاءوا أن ينزلوا إلى القمة نزولاً حين يحاول الناس أن يصعدوا إليها صعوداً . ما من سبيل إلى مجاراتهم أو اللحاق بهم ؛ فلندعهم فى طريقهم ، ولننظر هل لدينا من طريق سواه .

أما الطريق الثانى فلعله أعجب من الأول وأغرب . فهو

طريق خفى شديد الخفاء ، غامض كل الغموض ، لا ترى له بدءاً ولا تعلم له اتجاهاً ، مُلْتَوٍ غاية الالتواء ، معوجّ شديد الاعوجاج ، وسالكوه قوم قد رزقوا البراعة والمهارة ؛ فهم تارة يثبون ويقفزون ، وتارة يزحفون أو يَحْبون ، ويركعون ويسجدون ، وطوراً يسلكون طرقاً مظلمة حالكة ، وأحياناً يخوضون فى الرجس والدنس ، لا تثنيهم رداءة الطريق ولا وعورته ولا اعوجاجه والتواؤه .

وما أنت يا صاح من هذه الشرذمة التى تصل إلى القمة من أقذر السبل ، فما أجدرك أن تدع هذا الطريق وتبحث عن سواه .

لم يبق أمامك غير سبيل واحد لا مندوحة لك عنه : وذاك هو الطريق الذى يدعوه أهل تلك النواحى « طريق البغال » . اسم ستنبو عنه أذنك وتشمئز منه نفسك ، وسترفع رأسك إلى السماء كبراً وأنفة أن تنزل إلى هـذا الدرك ، أو تنحط إلى هذا المستوى ...

لـكن رويداً فليس فى الأمر نزول ولا انحطاط ، وإنما هو صعود وارتفاع وارتقاء ؛ وقد ينتهى بك إلى القمة التى تنشدها . فلتخفف إذن من غلوائك ، واذكر أنهم يدعون هذا

الطريق بالفرنسية : Sentier Muletier ، ويسميه الإنجليز : Mule - track والألمان Saumweg ، وأظنك بعد أن تردد هذا الاسم فى هذه اللغات جميعاً سيصبح فى أذنيك عذبا لذيذاً سائغاً .

ولئن كان فى الاسم ما ينفر السمع ، فليس فى المسمّى ما يبعث على النفور ؛ ولعمرى — بل ولعمرك أنت أيضاً — إنه لأشرف السبل وأمثلها وأصفاها وأطهرها ، وإن كان طويلا مضنياً مجهداً . فإذا كنت تريد المضىّ فيما عزمت عليه ، وتحاول الصعود إلى تلك المعالى ، فمحال على مثلك أن يسلك الطريق الأول ، وأنت أعف قلباً وأنبل نفساً من أن تسلك الطريق الثانى . إذن لا رأى إلا أن تسلك ثالث الطرق أو تنثنى عن مرامك . وتقنع بالإقامة فى السفح . مكتفياً من القمة بالتطلع إليها والتحديق فيها ...

طريق البغال هذا سكة اختطوها على جوانب الجبال ، كى يستطيع الرعاة والزراع أن يسيروا فيها ببغالهم وماشيتهم ، وكثيرا ما تصعد فيها البغال منفردة ، وهى تحمل للناس أثقالهم من موضع إلى موضع ، وقد علمها إلْف هذا الطريق كيف تسلكه من غير مرشد يرشدها أو سائق يسوقها .

فى هذا الطريق إذن فليسر من ينشد القمة ، وأنا زعيم أنه

إذا أُوتى القوة والجلد ، ورُزق الجد والدأب ، واستطاع أن يصبر على ما يلقاه من عنت وجَهْد ، وأن يثبت للشدائد التى تنتابه ، وللعقبات التى تعترضه ، ولم يدع لليأس سبيلاً إلى قلبه ، وأمدته العناية بشىء قليل من المساعدة ؛ فإنه واصل إلى الغاية مهما طال به المسير .

إن هذا الطريق واضح بيّن المنهج ، منْ سار فيه فلن يضل السبيل .. لكنه على وضوحه و بيانه ليس سهلا هيناً — ومتى كان الطريق إلى القمة سهلا يا صديقى ؟ فالسائر فى هذا الطريق سيجد فيه غلظة وخشونة . فإن الأيدى لم تتناوله بالرصف والتمهيد ، وحصباؤه خشنة مدببة لا ترتاح لمسها الأقدام ، وقد يصادفك فيه الحين بعد الحين صخر ناتىء ، أو شجرة مائلة تعترضك ؛ فلابد لك أن تطأطىء الرأس قليلا ، أو تدور من حول تلك العقبات ، أو تحتمل الجرح الذى يصيبك حين يصدمك الصخر الناتىء أو الجذع المائل ، وكثيراً ما يحف بك الشوك ذات اليمين وذات الشمال ، فيخدش ساقيك خدشاً ربما أسال منهما الدم قليلا أو كثيراً ؛ ولا غرابة فى هذا كله ما دمت تسلك هذا الطريق : طريق البغال !

ولقد تقطع فى سيرك الأميال العديدة ، فلا تصيب فيه

قوتاً ولا شرابا ، فتجتزئ بالقليل من خشن الزاد الذى احتقبته . وتصبر على الظمأ والجوع ، وفى قلبك من الجلَد والإيمان ما يعين على كل هـذا الحرمان . . وقد يسعدك الجد بعد طول السير والعناء ، فتصادف وسط الصخور نبعاً ضئيلا هزيلا ، فتهش له وتبش ، وتراه كأنه دجلة أو الفرات أو الكوثر المقدس . فتبسط إليه كفيك تتخذ منهما قدحا تملؤه كى تبرد به لهاتك ، ثم ترى أن هذه الوسيلة لا تغنى ؛ فتنحنى نحو الينبوع ، ثم لا تزال تنحنى حتى ترتمى على يديك ورجليك ، وتمد نحو المـاء فماً قد جمّده طول الظمأ . فلا تزال تعب المـاء عبا ، وتصبه فى جوفك صبا ، وتشرب وأنت على أربع حتى تروى غلتك ، ولا تسـل عن منظرك البديع فى تلك اللحظة . ولـكن أى غرابة فى هذا وأنت تمشى فى طريق البغال ؟

* * *

وقد تـكون الطريق فى بعض نواحيها سهلة ممهدة ، يحف بها شجر عال فيه للطير وكور . وكأنى بك وقد أطلّت عليك من فرع غصنها الميّاد قُبّرة صغيرة حديثة عهد بالعالم ، ولم تشاهد قبلك إنساناً يمشى على رجلين ، فتدهش لرؤية هـذا الكائن الغريب فى طريق ما رأت به من قبل إلا الدواب . فتسرع إلى

أمها وتهيب بها : « أماه ! إن بالطريق بغــلا جديداً ما رأيت من قبل له شبيهاً ، يمشى على رجليه الخلفيتين ، رافعاً رأســه إلى أعلى ! » فعند ذلك تقول لها أمها العجوز : « ليس هذا يا ابنتى بغلا ، بل هو من أبناء آدم ؛ فإن أبصرته فابتعدى عنه واختفى عن عينيه فانه ليس بالمأمون جانبه » . هذا بعض ما يقال عنك أيها الصديق وأنت بذلك الطريق ، ولو كُشِفَ عنك الغطاء فأفهمت ما تتحدث به عنك الأرانب فى جحورها والوزغ بين صخورها ؛ إذن لتبسمت ضاحكا من قولها كما فعل سليمان ، ولأدركت أن مسيرك هذا لا يخلو من عبث ولهو وتسلية .

ولـكن حذار يا صديقى مما قد تلقاه من حشرات فتاكة ، فإن بالطريق أفاعى وعقارب قد فاضت صدورها حقداً وضغينة وهى تعشق الأذى حبا فى الأذى ، فإن مسّك منها ضر ذهبت جهودك كلها عبثاً ؛ أو تخلفت بالطريق زمناً طويلا ، فامش إذن فى تؤدة واحتراس لعلك تسلم من حُمَمها وسمومها .

* * *

والآن وقد وصفت لك الطريق إلى القمة فسر فيــه على اليمن والبركة ...

بيد أنى لا أريد أن أكتمك أن سالك هذا السبيل قد

لا يبلغ من مرامه أو ينال من بغيته إلا قدراً زهيداً ؛ فقد يدركه الإعياء حين يعجز الجسد عن مراد الروح ، وتخور القوى والأمل فى عنفوانه ، أو قد تعترضه عقبة كؤود ، أو هوّة ليس إلى اجتيازها سبيل ، أو قد تناله تلك الحشرات الفتاكة بسوء ، فاذا أصابك هذا — بعضه أو كله — فلا تذهب نفسك حسرات على مالم تبلغ ولم تنل ؛ وحسبك أنك لم تزل برغم الإخفاق موفور الشرف ، عزيز الجانب ، لم ترتكب فى سبيل تلك القمة إثما ، ولم يدْنس لك ثوب .

وإلا فهل تؤثر البقاء فى السفح ؟

...ثم أرادت أن تجعل منه رجلا!

... ثم أرادت أن تجعل منه رجلا !

لقد قضى الأمر ، وزُوِّجت منه ! ...

فياللعجب ! كيف ألم بالدهر هذا الحادث الخطير ، والشمس ما برحت فى السماء تجرى لمستقر لها ، والأرض ما زالت تدور حول محورها المائل المنحرف ، وتطوف من حول الشمس وتمعن فى الطواف ؟ والقمر ؟ أجل ، والقمر لم يزل ينتقل بين منازله المقدرة له من الأزل .. فكيف إذن نزل ذلك الخطب ؟

أكبَرُ الظن أن القمر المذكور هو سبب تلك النكبة . أجل هو وحده المسئول عن تلك الكارثة . فإن ليلى قد التقت بأحمد من قبل مراراً ، فى وضح النهار ، فلم تر فيه إلا فتى حسن الصورة ، ولم تحس نحوه ميلا ولا حبا ... لكنها التقت به بعد ذلك على شاطئ النيل ، فى ليلة يلمع فيها بدر التم ؛ فإذا القمر يوسوس فى صدرها ، ويثير فى فكرها الأوهام ، ويريها صورة ذلك الفتى ، وكأنها تمثال لكل ما يتوق إليه قلب المرأة التواق من سحر وجمال وشعر وأحلام . أما صوته المتكسر الواهى ،

فكان يرن فى أذنيها كالموسيقى العذبة ؛ لكنها كانت من طراز موسيقى شوبرت الرقيقة ، لا موسيقى واغنر العنيفة القوية .
ولقد ساورها الشك لحظة ، وأرادت أن تسأل نفسها : « أنى لرجل كامل الرجولة أن يكون فى صوته كل هـذه الرقة وهذا التكسر ؟ » لكن القمر لم يدعها طويلا تتلاعب بها الشكوك ؛ بل أوحى إليها بسرعة أن ذلك من أثر العشق الذى استحوذ على أحمد ، فرقق من صوته وأكسبه كل هذا اللين والعذوبة والخور ! وكان القمر فى هذا كاذباً ، والحقيقة أن أحمد كان من ذلك الجنس الناعم الخائر ؛ الذى يبرأ منه الرجال والنساء على السواء .

فلم تنقض تلك الليلة المقمرة الساحرة حتى كان الحب مالئاً قلب ليلى ، وقد جعل على عينيها غشاوة لن يزيلها إلا تعاقب الليل والنهار .

وهكذا تم النصر للقمر الماكر ! وياليت الزهرة كانت فى السماء تلك الليلة ، إذن لمحضت ليلى النصح ، وفتحت عينيها لما هو محدق بها من الخطر ؛ لكن الزهرة لم تكن — يا للأسف ! — فى السماء . وهل فى الدهر سواها نصير للفتيات يرد عنهن الغوائل ، ويهديهن سواء السبيل ، ويأخذ

بأيديهن كى لا يتردَّين فى كل هوة بخيفة ؟ أما القمر فنصير الفتيان ، وعلى الخصوص أولئك الفتيان الحائرون المتكسرون ، الذين يشبهونه بوجوههم المليحة ، الناعمة الشاحبة ، الخالية من كل قوة ونخوة ... ولم تك إلا أسابيع قلائل ، حتى زوجتْ منه ، وقضى الأمر !

والشمس ما برحت فى السماء تجرى لمستقر لها ، والأرض ما انفكت تدور حول محورها المائل المنحرف .

* * *

ثم كان شهر العسل !

فأما الشهر فلم يكن كشهرى وشهرك أيها الصديق ، مؤلفاً من ثلاثين يوما ، أو واحد وثلاثين يوما على أكبر تقدير . بل لقد استطاع الحب — وهو ذلك الساحر البارع — أن يمسه بعصاه ، فإذا هو يمتد من أول مايو إلى آخر أكتوبر ؛ وإن يوماً عند الحب كألف يوم مما تعدون !

هذا ما كان من أمر الشهر ! وأما ما كان من أمر العسل فقد كان أرْيا شهيا ، وشهداً جنيا ، وحلاوة وعذوبة ليس وراءهما حلاوة ولا عذوبة ، وخمرة سائغة ، لم تتناولها بالتحريم شرائع السماء ، ولا قوانين الولايات المتحدة .

وظلا غارقين فى ذلك البحر الخضم ، فلم تنتبه ليلى ، ولم تشأ أن تنتبه . ولئن كان فى الغرق كل هذه السعادة والنعيم ، فالويل لمن يفكر فى إنقاذ الغرق !

وسيقول الناس : إن الحب يُعمى ويصم ، وأنا أربأ بك أن تكون ممن يرون هذا الرأى ، فإن العمى والصمم هما — فيما يقال — عاهتان ، وما أبعد الحب — وأبعِد به ! — أن يكون مسبباً للآفات والعاهات ! وإنما الصواب أن نقول إن الحب يضع على العينين عصابة من ذلك الطراز الجميل الذى يعصبون به عينى الثور حين يدور بالساقية ، فلا يزال يدور ثم يدور ، وهو يحسب نفسه قد طاف حول الكرة الأرضية .

وكذلك قد صور الحب لليلى أنها قد طافت العالم وأحرزت الدنيا بأسرها .

كل هذا ، والشمس ما برحت فى السماء تجرى لمستقر لها ، والأرض ما زالت تدور حول محورها المائل المنحرف .

* * *

ثم لم يكن بدٌّ من أن يجىء اليوم الهائل المحتوم ؛ بعد أن ولى الربيع ، وذهب فى إثره الصيف ، وأتى بعدهما الخريف الذى لا يُدارِى ولا يمارى ، بل يظهر الحقيقة عارية مجردة جافة .

وفى يوم من أيام الخريف بسط الدهر يديه القويتين فجأة ، وكشف الغطاء عن عينى ليلى ! .

نظرت ، فلم تصدّق الرؤيا التى رأتها ... أجل ، وقد حسبتها رؤيا مما يراه النائم ، الغارق فى نومه . وكبر مقتاً عندها أن يكون هذا مما تراه هى . . . حتى فى الحلم . . . فجعلت تغمض عينيها ، ثم تفتحهما مرارا . . . كلا ! إنها ليست نائمة ، وهذا الذى تراه ليس حلما !... هو الحقيقة إذن ؟ أجل ، وليس بمجديها أن تحاول إنكارها ... صحيح إذن أنها رضيت أحمد هذا زوجا ، وأنه — ياللهول ! — قد شغفها حبا فلم تكترث للناصحين والعذال ... رضيت بذلك الكائن الممسوخ زوجا ، ليكون لها فى الحياة رفيقاً وعدة وذخرا . ذلك المخلوق اللين المتكسر الخائر الذى ليس فى قلبه همة ، ولا فى رأسه نخوة ، ولا مطمح له فى الحياة ولا مأرب ، ولا عزمة له ولا إرادة ! إن الناس تصفه ظلماً بأنه يشبه النساء ، وهذا كذب ، بل كفر ، بل شر من الكفر ! . إن النساء أجلّ وأكرم من أن ينتسب إليهن هذا المخلوق ، هذا اللين المستخذى ، هذا الناعم الخائر ، هذا التافه ذو الوجه (الكارت بوستال) . ذو الصورة الفاترة ، الخالية من كل روح ومعنى .

أبمثل هذا الشيء تجن هى ؟ . . ليلى ؟ ليلى التى طالما جشم أبوها نفسه وجشمها كل عناء و بلاء فى سبيل تأديبها وتثقيفها لا يألو فى ذلك جهداً ولا مالا ولا وسيلة ! ألم يهيئ لها الأسباب لتتلقى العلم فى مصر على خير أساتذة مصر ، وفى انجلترة فى خير معاهد انجلترة وأعظمها جميعا ؟ ... أجل ، وما أشد سرورها يوم ألفت نفسها ، وهى بنت النيل ، فى نيونهام كولدج تتلقى العلم هى و بنات النبـلاء جنباً لجنب ؛ وكان نجمها الساطع محلقا فى السماء لا يعلو عليه نجم ، ولها بين صواحبها منزلة ومكانة وشهرة قد جاوزت نيونهـام إلى جميع دور العلم بكامبردج ؛ وملأ الإعجاب بليلى المصرية صدور الشباب من الطلبة ، والشيب من الأساتذة المحنكين . . . ولقد طالمـا حاول الـكثير من كرام الفتيان أن يتقرب إليها فكانت ترده فى حزم ولطف وتواضع لم يزدها إلا سموا وتقديرا . .

ثم تلك الرسالة البديعة التى كتبتها عن الفلسفة العربية ؛ فكانت نصراً باهراً ، وتاجاً برّاقاً لتلك السنين الخمس ، التى قضتها فى جد ودأب لا تعرف الدعة ولا الهوادة .

وهبطت مصر ، تزدحم فى صدرها الآمال ، وتريد أن تتبوأ مكانها بين قومها لـكى تعمل على نصرهم وسؤددهم ، بكل

ما أوتيت من قوة وهمة ؛ ولم تجد بأساً فى أن يكون لها فى جهادها العنيف رفيق يشد أزرها ويقوى ساعدها . ولم تكن ليلى من النساء اللواتى أُغلِقَتْ قلوبهن دون الحب برِتاج غليظ .. ولكن شاءت المقادير العجيبة أن يكون رفيقها الذى تختاره وترتضيه هو ذلك المخلوق الناعم الخائر ، ذلك اللين المستخذى ، ذا الوجه الكارت بوستال .

والشمس ما زالت فى السماء تجرى لمستقر لها ، والأرض ما برحت تدور حول محورها المائل المنحرف .

* * *

وجلست ليلى وهى تطل من نافذتها ، تنظر إلى النيل ، إذ يندفع تياره من الجنوب إلى الشمال ، و إلى أشجار الصفصاف ، وقد تدلت غصونها إلى الماء كأنها عبرات تسيل ، و إلى السحب الحمراء قد خلفها الغروب . ومن دونها الأهرام قائمة على الأفق ، و إلى الزهرة فى السماء تتألق وترقص بين السحاب .

أدركت ليلى أنها أخطأت ... أجل ، أخطأت برغم كل ما وعاه صدرها من علم وأدب ، وحكمة وفلسفة ... وارتكاب الخطأ حق طبيعى لكل رجل ؛ بل ولكل امرأة أيضاً ... الحيوانات لا تخطئ ، لأنها تصدر فى أعمالها عن الغريزة ،

والغريزة معصومة من الزلل . أما أبناء آدم و بناته فيصدرون عن العقل ، وهو كثير العثرات .

إذن ليس ببدع أن تكون ليلى قد ارتكبت خطأ ، وليس بعد الخطأ إلا محاولة الإصلاح ... لكن كيف السبيل إلى إصلاح هذا الخطأ ؟ ليست الأمراض سواء فى قبولها للعلاج ، وليست الأخطاء سواء فى قبولها للإصلاح .

حاولت ليلى أن تلتمس الإلهام مما تعلمه من حكمة وفلسفة ، ولكنها لم تلبث أن تبينت أن ليس هذا بمجديها نفعاً . إن للفلاسفة فى هذا الموضوع الخطير آراء قلّما تسمن أو تغنى ..

إن (نيتشه) الذى تحبه لم يتزوج ، (وكانت) العظيم عاش عمره الطويل لم يتزوج ، وأبو العلاء لم يجن على أحد ، و (شو بنهاور) كثيراً ما كان يؤثر صحبة الكلاب على الخلان والأصدقاء ، وسقراط وأفلاطون ؟ ... أولى بها ألا تفكر الآن فى سقراط وأفلاطون ... لا ... ليس بنافعها أن ترجع إلى القدماء ، كى يحلوا لها مشكلتها الحديثة ... لا بد لها أن تركن إلى نفسها وأن تعتمد على فلسفتها هى .

أجل ، وإن لها فى هذا الأمر لفلسفةً خاصة ، ورأياً ستحاول إنفاذه : إنها سوف تصلح أمر أحمد ، وسوف تُقوّم معوجّه ،

وسوف تجعل منه رجلاً ... هذا المرام البعيد الذى يراه الناس محالا ، كانت تحس فى أعماق صدرها أنه ليس بمحال . أتراها وفقت إلى العثور على ذلك الحجر العزيز : حجر الفلاسفة ؛ فأمست قادرة على أن تحيل الخسيس نفيساً ، والدنىء رفيعاً ؟

كلا ! إن ليلى لن تحاول أن تنال بغيتها عن طريق المعجزات ؛ بل لقد رأت فى أمر زوجها رأيا ، حسبته رأيا سديداً ، وكان وليد تدبير طويل ، وتفكير عميق ... رأت أن أحمد تُعْوِزُهُ الرجولة ، فى مظهره ومخبره ، فى جسده وفى روحه ، فى حركاته وتفكيره . وقد علمت أن ليس إصلاح الروح بالشىء اليسير ؛ لكنها تستطيع — على الأقل — أن تكسبه مظهر الرجال . فلتأمره إذن — وهو لها طيع ذلول — أن يلبس الخشن من الثياب ؛ وأن ينعل الخشن من الأحذية ؛ وأن ينطلق إلى ضيعة أبيها فيقيم هناك شهرين أو ثلاثة أشهر ؛ يعمل فى حقولها كل يوم ، حارثاً وزارعاً وحاصداً ، وعليه أن يرسل لحيته وشاربه حتى يغطى الشعر وجهه ... ثم يعود إليها بعد ذلك ، وقد لبس حلة الرجولة سابغة شاملة : فمن يد خشنة الملمس ، إلى ذراع قوية متينة ؛ إلى وجه قد لوحته الشمس يكسوه شارب طويل ولحية مرسلة . أما صوته الناعم الفاتر ،

فلا بد أن يكتسب شيئاً من الخشونة ؛ من كثرة ندائه للثيرة ، وصياحه خلف المحاريث .

وكانت ليلى تعلم أن هذه كلها ظواهر ، ليس فيها نفع ولا غناء ، ولكنها كانت مؤمنة بأن إصلاح العَرَض سيفضى إلى إصلاح الجوهر ، وإصلاح الإناء وسيلة لإصلاح الشراب ؛ وأن أحمد لا يلبث أن يكتسب مظهر الرجولة ، حتى تتسرب بعد ذلك إلى لحمه ودمه بفضل ما بين الروح والجسد من رباط متين .

وأحسبها قد اقتبست هذا الرأى من بعض ما درسته من فلسفة وحكمة ؛ لكنها كانت أشد إيماناً به من الحكماء الذين قالوا به . وما هى إلا أيام قلائل ، حتى مضت فى تنفيذه . فانطلق أحمد إلى الريف وبقيت ليلى وحدها الليالى والأيام ترقب دورة الفلك .

والشمس ما برحت فى السماء تجرى لمستقر لها ، والأرض ما فتئت تدور حول محورها المائل المنحرف ...

* * *

فى مساء يوم عبوس متجهم من أيام أمشير ، تلبدت السماء بسحاب أسود قاتم ، وكان يعدو من المغرب إلى المشرق ؛ طبقات بعضها فوق بعض ؛ تحمله فى السماء ريح عاصف .. وعلى

الأرض زعزع نكباء تثير الموج على صفحات النيـل ، وتهز جذوع الصفصاف هزا عنيفا ، وقد ثارت الزوابع تحمل العِثْيَرَ المُطار إلى كل عين وكل أنف .. ومشت ليلى نحو النافذة فأغلقتها فى بطء شديد وحزن شديد ، مطأطئة رأسها فى كآبة وكمد . ثم سقطت على سرير ممدود ، وجعلت تسفك العبرات وتُعول بالبكاء .. بصوت لو لا دوى الريح لأسمع من بالدار . وما أشد حاجتها فى ذلك المساء إلى الوحدة وإلى البعد عن الناس ، وإلى البكاء تطفئْ به ذلك الجحيم المستعر فى صدرها وفى أحشائها !

مسكينة ليلى ! إن فلسفتها قد خابت ، وتجربتها قد فشلت ! وكل هـذا التقدير والتدبير والسعى والاحتيال لم يصادف إلا حبوطاً أليماً ، وَخيبة قاتلة . إن الداء كان عضالا ، والسم قد سرى إلى الرأس والأوصال ، والعِرْق والعصب ، فاستفحل وتمـكّن ، ولات حين علاج ، ولات حين شفاء ...

واختلط الحزن فى قلبها ، وألح عليها من كل جانب ، فليس يدرى أى خطبيها أشد وأقتل : فشل تلك التجربة وذلك الرأى السديد الذى حسبته زبدة الحكمة وخلاصة الفلسفة ، أم كارثتها فى هذا المخلوق الذى بات حتما عليها أن ترضاه ، وهو دون الرضى ، وأن تعتمد عليه فى الحياة ، وهو ذلك الرطب العاجز المائع .

لقد فشل تدبيرها فشلا ذريعا ، فإن المسكين لم يطق الريف ولم يلبث أن أسأمه وأضناه ، فقضى أيامه هناك بين سقم ، وبين الإفاقة من سقم ، حتى أشفقت عليه ليلى وأذنت له أن يعود . أما ذلك الشعر القليل الذى نبت على خديه وشفتيه ، فلم يك إلا غشاء رقيقاً تافهاً ، لم يقرب به من الرجولة قيد شعرة .

مسكينة ليلى ! إن الرزء الذى رزئته لشديد . ولم يبق لها من وسيلة تتوسل بها سوى الصبر . والصبر أوهى الوسائل . . . وما أشد حاجتها لأن يكون لديها من هذه الوسيلة الواهية ذخيرة لا تنفد ، ذخيرة تكفيها العمر كله ... لابد أن يكون فى العالم شهداء يحملون الأرزاء ، فلا رأى اليوم إلا أن تكون كأحدهم . ولئن كان رزؤها هذا من صنع يديها ، فما أحقها بحمله والاضطلاع به ... مدى الحياة !

لقد سخرت منها المقادير ، حين أرتها الحياة حلماً زاهياً ، وزهراً نضيرا ، واليوم وقد آن للزهر أن يحول ثمرا ، وللدوحة أن تؤتى أكلها ، إذا الأقدار تسلط عليها هذا السقم القضال يذويها ويفنيها . لم يبق لها بد إذن من أن تودع هذه الأحلام جوف الثرى ، فى غير رحمة ولا هوادة ، وتستقبل هذا العهد الجديد ، عهد الشهداء الصابرين فى قوة وجلد .

لا جرم أن الانتقال إلى تلك الحال ليس بالشئ اليسير ، لعل أسابيع تقضيها — هى — فى الريف ، فى عزلة وتفكير ، أن تعدها لهذا العهد الجديد ، هذا العهد القاسى الشديد .

ونهضت متماسكة من سريرها . وسارت إلى النافذة ففتحتها وجلست على كرسى صغير بجانبها . . . وجعلت تنظر إلى الغيث وقد أخذ ينهمر مدرارا ، و إلى الرياح وهى تميله يميناً وشمالا ...

ثم أخذ ينهمر على خديها مطرٌ غزير لم يكن مما أسقطه السحاب ، أو دفعته الرياح ...

والشمس من خلف الأفق تجرى لمستقر لها ، والأرض ما برحت تدور حول محورها المائل المنحرف .

فيا عجبا لهذا الكوكب السخيف ! كيف آثر الانحراف على الاعتدال ، والميل على الاستقامة ؟

جريمـــة...

جريمة ...

— ١ —

فى صباح يوم من تشرين الأول ، كان الضباب ضارباً بجرانه على شوارع (ليفربول) ، فلا تكاد العين أن تستبين السبيل إلا عن كثب ... والمصابيح لم تزل موقدة ، كأنما حسبت أن الضباب بقية من الليل ، وأن النهار لم يطلع بعد ...

فى تلك الساعة الباكرة أخذ الشطر العامل من أهل المدينة يتحرك ، وجعلت الأبواب تتثاءب ، فيخرج منها العمال أفواجاً ، ينشدون عملهم ويجرون وراء خبزهم وزبدهم — لأن العامل فى مصر قد يقنع بالبحث عن الخبز ؛ أما هناك فلا بد له من الخبز والزبد .

هذه الحركة الباكرة فى بعض أحياء المدينة قد تلاها سكون ؛ لأن الشطر الثانى من المدينة لم يستيقظ بعد ... وكأنما كانت الحركة الأولى بمثابة الفجر الكاذب ، أضاء لحظة ، ثم ساد من بعده الظلام — ولكن سرعان ما انقضت ساعة الهدوء

هذه ، وأخذ ذلك الغطاء الكثيف من الضباب يرق شيئاً فشيئاً ، وبدا فى أقصى الشرق على الأفق شىء غامض مبهم ؛ يدعونه فى تلك البلاد بالشمس ... ولقد تستطيع العين المصرية — بشىء كثير من المران — أن ترى فيه من الشمس شبهاً ، وأن له بها صلة .

وبعد لأى ، تثاءبت الأبواب فى الأحياء الوسطى ، وخرجت منها أفواج من الحضريين (البورجوا) الذين يشتغلون فى دور التجارة . فيعملون بها ساعات قلائل ، ولكن أجرهم أعلى ، ومقامهم فى المجتمع أسمى ، وهم أيضاً ينشدون الخبز والزبد ، ولكنهما من صنف أرقى وأرفه من خبز العمال وزبدتهم .

* * *

وهكذا تحركت فى المدينة أحياؤها السفلى والوسطى ، ولم يبق مغموساً فى عسل الرقاد سوى أحياء (العاطلين) ، الذين يعيشون من أموال تأتيهم من وراء البحار : من الهند ومن استراليا ، ومن سائر أنحاء الدولة التى لا تغرب الشمس عليها . هؤلاء لا يبحثون عن خبز ولا زبد ؛ بل يأتيهما الخبز والزبد طائعين يجرران الذيول ...

وليس يعنينا اليوم من أمر هؤلاء شىء ، وإنما تعنينا الآن

تلك الأحياء الوسطى التى لم يكد أبناؤها و بناتها يخرجون ... كل إلى عمله ، حتى فتحت الأبواب مرة أخرى ، وخرجت من كل باب امرأة نَصَفٌ فى ثياب رثة زرية ، وهى تحمل فى يمينها خرقة بالية ، وفى يسارها سطلا فيه ماء دافئ .

هؤلاء النساء لسن بخادمات كما قد يتبادر إلى الخاطر العَجِل ، بل إن كلا منهن ربة دار ، وصاحبة الأمر والنهى فيها . وهى تنتظر ريثما يخرج من بالدار من بنين و بنات ، ثم تأخذ فى الجد والعمل ، من غسل وطهى وخبز وعجن ، ولا تكاد تهدأ ساعةً من الصباح إلى المساء ، بادئةً عملها حيث يجب أن تبدأه : من عتبة الدار ودهليز البيت ... ولقد تجد الواحدة منهن فى غسل العتبة لذة خاصة ، ولعله أحب الأعمال جميعاً إليها ... لأنه يتيح لها فرصة قد تكون الوحيدة فى كل يوم لأن تتحدث إلى جارتها ، وتقص عليها من كل شىء ، بل ومن عدة أشياء أخرى ...

وفى هذا اليوم من تشرين الأول خرجت السيدة نِلْسن من المنزل رقم ١٥ فى ساعة باكرة ، وأخذت تمسح عتبتها فى شىء كثير من النشاط ، لكنه كان نشاطا يشوبه القلق والاضطراب ، وكانت من آن لآن تنظر إلى منزل جارتها

السيدة هَرْفي صاحبة المنزل رقم ١٧ ، وكأنها تود بفارغ الصبر لو خرجت هذه السيدة لمسح عتبتها ، كى تحدثها فى الأمر الذى أهمها وأزعجها ؛ والذى كانت ترتعد من أجله الخرقة التى بيمينها . والسيدة هرفى هـذه أرملة ورثت عن زوجها منزلا يفضل عن حاجتها وحاجة أسرتها ، فكانت تسعى فى تأجير شطر منه لقاء مال يسير تستعين به على تكاليف الحياة . ولم تكن جارتها ترى فى هذا بأساً ، ما دام نزلاؤها رجالا ذوى فضل ، لـكنها لاحظت بالأمس من خلال النافذة رجلا أسود الوجه خارجا من المنزل رقم ١٧ ؛ فما شكّت فى أنه النزيل الجديد ، الذى تريد السيدة هرفى أن تؤويه فى دارها ... يا عجباً لهذه المرأة التى لا تتورع من الخروج على كل عرف ، وانتهاك كل حرمة . والنزول بهذا الحى الراقى ، وهذا الشـارع الطاهر ، إلى الدرك الأسفل ... ماذا يكون مصير هذا الحى يوم يرى سكانه هذا الأسود رائحاً غادياً ، بوجهه المزعج وسحنته المنقلبة ؟ ... إن العاقبة ستكون من غير شك وخيمة والمصير أليما . فلن يلبث سادة الحى وأشرافه حتى يهجروه وينأوا عنه ؛ لـكى لا تقذى أبصارهم برؤية هذا الوجه الـكريه ... إن وجهاً واحدا من هذه الوجوه السود لـكفيل بأن يلوث جيا بأسره ، وأن ينغص على

أهله صفاء الحياة وطيب الرقاد ... والويل لفتيات الحى إن صادفن هذا الوجه المنحوس فى ليلة حالكة الظلام ، عند أوبتهن من المرقص أو المسرح : إن الرعب الذى يستحوذ عليهن فى تلك اللحظة لخليق بأن يورثهن سقما يلازمهن مدى الحياة ... كلا ... إن السيدة هرفى — مهما كان حبها للمال — يجب أن تعلم أن مثل هـذا الشىء لا يجوز ... ومن حسن الحظ أن الفتى لم يأت بأمتعته بعـد ... ولم يزل فى الوقت متسع لمنع هذه الكارثة من أن تلم بهذا الحى الآمن المطمئن ، ولئن كانت السيدة هرفى قد نسيت ما عليها من واجب تلقاء الحى وأهله ، فأحرى بجارتها مسز نلسن أن تريها الرشد من الغى ، وأن تردها عما هى سائرة إليه من الوبال ...

ولم يطل بها الانتظار ، بل فتح باب المنزل رقم ١٧ وخرجت السيدة هرفى ، وهى فى نهاية العقد الخامس من العمر ، وفى يمينها خرقة كبيرة وفى يسارها سطل كبير . ثم بدأت جارتها بالتحية :

— عمى صباحا ، مسز نلسن ، عمى صباحا .

— نعِمَ صَباحك ، مسز هرفى .

— إن الهواء دافئ صحو ، والشمس مشرقة فى السماء ؛ أرجو أن تكونى بخير .

— إنك خرجت اليوم متأخرة على غير عادتك .

أجل ، لقد كان لدى اليوم عمل كثير ، وكان علىّ أن أعد الحجرة السفلى ، والغرفة الأمامية من أجل ضيفنا الجديد فانه سيأتى بأمتعته قبل الظهر بساعة ، وقد يبقى بالمنزل إلى وقت الغداء .

— أتعنين إذن أنك رضيت بذلك الزنجى الدموى نزيلا عندك ؟

— هل أنبأك بأمره أحد ؟

— رأيته أمس من خلال النافذة خارجاً من باب بيتك ، ففتحت عينى من الدهشة ؛ وأنا لا أكاد أصدق ما أراه ، وخشيت أن تكونى قبلت أن تسكنيه بيتك ، والآن قد صدقت أسوأ ظنونى ، فبالله ياصديقتى ، إلاّ تدبرت الأمر قايلاً ، قبل أن تنزلى بهذا الحى الآمن هذه النكبة الفادحة .

— وأى نكبة فى هذا ؟ إن للفتى حجرته يجلس فيها ، وغرفته ليرقد فيها ، ولن يكون له سبيل إلى أحد من الحى ، ولا لسكان الحى سبيل إليه . فهونى عليك فليس فى الأمر ما يدعو لكل هذا الاهتمام ...

— اللهم لطفاً ... ! إنك لا تبالين — إذا ظفرت بالمال

الذى تبغين — أن يشق الحى وأهله برؤية هـذا الزنجى الـكريه المنظر .

— إنه ليس بزنجى ؛ بل هو مصرى .

— وما الفرق بين هذا وذاك ؟ أو ليسوا جميعاً من أهل آســيا . ؟

— لست أدرى أية آسيا تعنين ... غير أنى حادثت هذا الشاب ، فرأيته يتكلم بلساننا كأحسن أبنائنا ، ورأيت فى حركاته وسكناته ما ينم عن حسن الأدب وكرم المحتد .

— ذاك لعمرى العسل الذى يخفى السم الزعاف ، وكأنما نسيت ذلك الهندى الزنيم الذى كان نازلا فى بيت مسز براون لكم كانت تـكرمه الأم وتجله ، وتسمح له أن يصحب ابنتها دورا إلى بيوت الرقص واللهو . فكان جزاؤها أن خان الأمانة وخفر الذمة ، ثم اختفى من المدينة ؛ فلا يعرف له أحد مستقراً ولا مقاماً .

— ما أحسب الناس أشراراً كلهم ، وفى أبنائنا البيض من يرتـكب ما هو شر مما ارتـكبه الهندى ، وعدا هذا فإنى ليست لى ابنة فأخاف عليها ، وقد زوجت بنـاتى جميعاً ، ولله الحمد .

— ونحن ؟ أما تحسبين لنا ولبناتنا حساباً ؟ إنك من أجل بضعة الجنيهات التى سينقدك إياها لا تبالين بنا ولا بما قد يحل بنا ولا بالحى وما يدنسه ويحط من شأنه .

— لكنى قد وعدت هذا الشاب أن أسكنه الحجرة السفلى والغرفة الأمامية ، ولا بد أن أبر بوعدى .

— يا لهذى السذاجة البديعة ! كأنما يفهم هؤلاء السود ما الوعد وما الوفاء بالعهد ! ... ولقد كان ذلك الهندى شديد الوفاء لدورا المسكينة يوم تركها فى تلك الحال الأليمة ، واعتصم بالفرار . !

وفى هذه اللحظة خرجت الجارة الأخرى من المنزل رقم ١٩ وانضمت إلى جارتيها ، وانتقل الحوار من الحديقة إلى داخل المنزل ، وقد صحت نية الجارتين ألا تتركا صاحبتهما حتى تذعن لرأيهما ، وتنزل عند إرادتهما .

— ٢ —

فى صباح ذلك اليوم من تشرين الأول استيقظ (حسن) من رقاد كان مملوءاً بالأحلام ... وكانت أحلامه عن مصر وعمن بمصر ، وعن منزله المطل على النيل ، حيث خافت والدته آلمهما فراقه ، وأحزنهما أن سيكون بينهما وبينه هذا البحر

الفسيح وهذا البر العريض ، وأن يهزهما إليه الشوق ، فلا يستطيعان إليه سبيلا ، و يحترق الصدر وجدا وهيهات الشفاء .
فى هذه الليلة رأى حسن أخته فى المنام ، ولقد غادرها فى مصر حليفة السقم ... أما اليوم فقد ابتسمت إليه حين رآها ، وطلبت منه أن يعود إليها رجلا عظيما ... عجباً ! كيف حالهم اليوم ؟ وهل يختلف الجديدان عليهم بالسعادة والنعيم ، أم بالشدة والشقاء ؟ .
وهل اعتادت الأم فراق الابن الوحيد ، الذى لم يفترق عنها منذ أن رُزِقته بعد يأس ، فكان قرة العين ، وشفاء ما بالصدور ؟..

وها هو ذا قد اضطر لأن ينزح عن داره ، وأن ينزل هذه المدينة الداوية الصاخبة ، وقد التحق بجامعتها ، وأخذ يجد فى طلب العلم . ومضى عليه تحت هذه السماء الرمادية اللون أسبوعان ، لم يكتسب فيهما صديقاً جديداً ، ولم يحاول أحـد أن يتعرف به أو يتقرب إليه ... كان كِذْبا ما زعمه المتشدقون من أصحابه فى مصر : أن الناس فى هذه البلاد يُقبلون على الغريب ، و يجدّون فى إرضائه واكتساب صداقته ... لقد كان الناس يجيبون على سؤاله إذا سأل بجواب هادئ قصير ، لا يحمله على المضىّ فى الحديث . بل سرعان ما أشعر أن بينه و بينهم سوراً غليظاً وعرا هيهات له أن يجتازه . ولم تطل به الحال حتى اعتاد أن يقابل

البعد بالبعد والصد بالصد ... وهكذا أمسى وأصبح وحيداً غريبا وسط هذا المزدحم الزاخر من الناس .

واستيقظ فى صباح هـذا اليوم ونهض من فراشه فى شىء من النشاط ... وكان ذاك آخر أيامه فى هذا (البنسيون) الذى قضى فيه هذين الأسبوعين ، وكان عليه اليوم أن يبادر بإعداد حقائبه وجمع ما تناثر من أمتعته . وكان مغتبطاً ناعم البال ، لأنه وفّق أخيراً إلى هذا المسكن الجديد فى المنزل رقم ١٧ . . . فمنذ اليوم سيكون له حجرتان : حجرة يجلس فيها ويطالع أسفاره ويتناول طعامه ، والأخرى لنومه وراحته . ولقد كان من حسن الطالع أن غرفة نومه تطل على تلك الحديقة الغناء ، فيستطيع أن يطالع من نافذته ابتسام الربيع وقهقهة الصيف ، وهدوء الخريف ووجوم الشتاء ... أما هـذا البنسيون فى (اكسفورد ستريت) فلم يكن له فيه سوى غرفة صغيرة ، ولم تكن إقامته فيه إلا ريثما يتحول عنه . . . ومع هذا فإن صاحبته اليهودية لم يُرضها منه أن يغادر البنسيون . فلم تكن تلقاه — منذ علمت قرب انتقاله — إلا عابسة غاضبة ، فكان أنفها البارز المحدب ينتفض ويضطرب ، وعيناها البراقتان يتطاير منهما الشرر ، إذا طلب قليلاً من المـاء الساخن ليستعين به على حلق لحيته . . .

والويل له إن تخلف عن موعد الطعام قليلا ، فإنه كان يجد المائدة قد رفعت ؛ فإذا نظر إلى ما حوله ألفى وجوهاً عابسة تنذره بالشر المستطير إن هو حدثته نفسه بالحصول على شيء من القوت الذى فاته . فكان يؤثر الصمت وينسل إلى غرفته فى سكون وهدوء .

إن هذا الاضطهاد العجيب كثيراً ما كان يضحكه ؛ وكثيراً ما سأل نفسه : أيمكن أن تقسو عليه هذه اليهودية كل هذه القسوة لا لسبب سوى أنه يؤثر ان يسكن فى ظاهر المدينة حيث الهواء الطلق والسكون الشامل ؟ إن أحد الناس أخبره فيما بعد أن هذه اليهودية لم تظلمه ولم تضطهده إلا لكى تثأر منه ، لما جناه أجداده الفراعنة فى الزمن القديم على بنى اسرائيل ، حين كانوا يذبحون أبناءهم و يستحيون نساءهم ... وكثيراً ما أغرب حسن فى الضحك كلما خطر له هذا الرأى الظريف ...

ومهما يكن من أمر ، فإن هذا اليوم من تشرين الأول هو آخر أيام الاضطهاد وأول أيام الحرية . فلن يطالبهم اليوم بالماء الساخن ؛ و إذا قدم إليه الشاى بارداً والبيض فاسداً فى طعام الفطور ، فإنه لن ينبس بكلمة ... ثم أخذ يعد أمتعته و يحزم حقائبه . وقبيل الظهر بساعة كان قد أعد العدة للرحيل ...

ومشى على استحياء إلى ربة المنزل ، فحيته فى تكلف وفتور . أما هو فابتسم لها ابتسامة ظنها ابتسامة الظفر ؛ وقدم لابنتها الصغيرة « إستر » صندوقاً جميلاً مفعماً بالحلوى ؛ ونفح الخادم بضعة شلنات أنطقتها بالشكر .

ثم انطلقت به السيارة و بأمتعته وحقائبه تلقاء ذلك المنزل رقم ١٧ المطل على الحديقة الغناء ؛ وصدره مملوء غبطة لم يحس مثلها منذ نزل على ضفاف (المرزى) . وأخرج من جيبه مرآة صغيرة فأصلح الرباط الذى يحيط بعنقه ، والذى تزعزع كثيراً أثناء نقله لحقائبه من الغرفة العليا إلى التاكس . .

لم يكن حسن قبيح الصورة ، ولكنه من غير شك كان أسمر اللون . وقد أخذ يحس إحساساً مبهماً أن هذه السمرة قد تكون من جملة الأسباب التى أغلقت دونه أبواب القلوب . . لكنه كان بعدُ فى شك من هذا الأمر ... ولم يكن قد وقر فى نفسه بعد وأصبح عقيدة راسخة . . . فكان فى يومه هذا باسماً مستبشراً .

هاهى ذى السيارة قد وقفت لدى المنزل رقم ١٧ ! وقد أوشك أن يقلب صفحة جديدة من صفحات حياته . . . فلتنتظر السيارة قليلاً ريثما ينزل و يستأذن أهل الدار فى الدخول

ثم يأخذ فى دق الجرس ... عجباً ! ليس من مجيب ... إن السيدة قد ذهبت — دون شك — إلى بعض شأنها وليس بالدار أحد . فلينتظر قليلا ... ولـكن ... أى شىء هذا ؟... إن النافذة تفتح وهذه مسز هرفى نفسها .. ولـكنها تنظر إليه بوجه عابس متجهم .. إنها تبدى أسفها الشديد لأنها لا تستطيع أن تقبله فى منزلها .. أجل ... ولا يهمها أن تكون قد سبقت كلمة منها إليه .. إنها لا تقدر أن تؤوى لديها أحداً من أهل آسيا ، فليرجع بسلام ..

آسيا ؟ ولـكنه ليس من أهل آسيا ... إنه من أهل مصر !

سيان لديها ، من أية الجهات مصدره ، ما دام أهل الحى لا يروقهم شكله ومنظره ... فليرجع إلى أحد فنادق المدينـة فإنهم سيرحبون به هناك . أما منزلها هذا فليس إليه سبيل ...

ويطأطئ حسن رأسه ويمشى إلى سيارته مطرقاً واجماً . ويهمس فى أذن السائق اسم أحد الفنادق ويرتمى فى مقعده مجهداً متعباً . وتحين منه التفاتة إلى يديه وبشرته السمراء ، فيدرك أن فى العالم جريمة هائلة دونها كل إثم وكل جرم ، وأنه — ويا للأسـف — لاسبيل إلى الخلاص منهـا ، ولا إلى الابتعاد عنها ...

شرقا وغربا

شرقاً وغرباً :

في يوم قديم من أيام هذا الزمن السرمدى ، جلس يافث وسام ابنا نوح ، فى ظل شجرات من الأثل ، ليستريحا ساعة من النهار . وإلى جانبهما جدول يجرى ، له خرير هادئ وديع ، وانسياب معتـدل ، ليس بالسريع ولا البطيء ... ولأغصان الأثل حفيف دائم ، فيـه رنة حزن بادية ، كأنها انتحاب الثاكل أو أنين السقيم .

كان العالم حديث عهـد بالطوفان الهائل الذى غمره ، ورحضه رحضاً عنيفاً قاسياً لـكى يطهر مما به من رجس ، و يصفو مما به من كدر ، ويعود نقيًا بريئاً نظيفاً ...

يا للعجب ! أ كلما تدنس وجه الأرض ، وغشيته الأقذار ، انتابته هذه الـكارثة وأرسل إليه طوفان ليغمره و يطهره ؟ لقد علاقت الأرض بعد هذا الطوفان طُهراً ، كأنمـا خلقت خلقاً جديداً ، وعاد ثغرها باسماً ، وجبينها ناصعاً ، ووجهها زاهراً . لـكن — تباركت اللهم — ألم يكن الثمن غاليـا ، والقربان

جسيما ؟ أما من سبيل غير هذه لكى تطهر الأرض مما تمتلئ به من الأدران ، وما قد يغشاها من الرجس ؟ وإلا فهل من سبيل لأن يسود هذا العالم الصفاء والطهر ، فلا ينغمس فى الأقذار ذلك الانغماس المروع ، الذى لا مفر معه من كارثة ماحقة ، تعيد إليه الصفاء والنقاء ؟

لا بد أن يكون هنالك سبيل غير هذه السبيل ، وطريق لإصلاح العالم غير تلك الطريق ... فهل لهذه العيون الحائرة من قبس من النور القدسىّ يهديها تلك السبيل ؟

* * *

كانت هذه الخواطر تتردد فى فكر سام ويافث ، وهما جالسان ينظران إلى تدفق الجدول ، أو يحدقان فى السحاب المنتشر فى السماء ، أو يصغيان لحفيف الأثل ، أو يرسلان الطرف بعيداً إلى قمم عالية يغشاها الثلج الأبدى . وهما فى الحقيقة لا يريان ولا يسمعان من هذا كله شيئاً ، إذ شغلهما ما أهمهما من هذه الأفكار المتدافعة تدافع الموج ، فكان كل منهما يقطب جبينه حيناً ، ثم يقلّب فى الفضاء نظرات حائرة ، لا تكاد تعرف لها قرارا ...

وأخيراً تكلم يافث :

أى سام ! لقد حُمّ الفراق ، ولم يبق بد من أن يتخذ كل منا فى هذا العالم سبيله ، فعلام عولت ؟ ... إن هذا الطوفان الذى غمر الأرض ، وعم الغور والنجد ، قد طهر كل ركن من أركان البسيطة ، وأزال ما قد علق بها من رجس ، لكنه قد اكتسح أناساً ، وأهلك خلقاً كثيراً ... ولقد أتى أمر الإله بأن ننتشر فى الأرض ، وأن نضرب فيها طولا وعرضاً ، وأن نتناسل ونتكاثر ، وأن نملأ الأرض بذرياتنا ؛ وقد حم الفراق ، وستذهب فى ناحية وأذهب فى أخرى ، فعلام عولت ؟

قال سام :

إن الفراق أليم ، والضرب فى البيداء أليم ، وقطع السهول والحزون أليم ، ولكن أشد من هذا ألماً ذلك الظلام الحالك الرهيب الذى يكتنف الأيام المقبلة والسنين ، ويتجاوزها إلى الأجيال والقرون ، وإنى كلما أرسلت بصرى باحثاً مستطلعاً ، ارتد إلىّ البصر خاسئاً حسيراً ، قد أجهده الضلال ، وسط ظلام دامس ، متراكم بعضه فوق بعض ، لا يُعرف له آخر ولا يُدرك له حد .

سوف نتكاثر ونتناسل ، ونملأ بذرارينا الأرض ، حتى يعمر الخراب ، وتمتلئ الأقطار ؛ ثم — من بعد هذا كله —

تنهمر السيول من السماء ، وتنفجر الأنهار من جوف الثرى ، ويعم العالم طوفان مخرب مدمر ، يفتك بالناس ، ويهلك الحرث والنسل ... أمن أجل هذا نلد ونتكاثر ، لكى نسلم ذرارينا إلى هذا المصير الحزين ، كلما دارت الأيام دورتها ؟

قال يافث :

لقد استفحل خطب العالم ، وتكدست فوق البسيطة أدران أفسدت الثرى والهواء ، واستحالت معها الحياة ، فلم يكن بد من أن يجتاح الأرض هذا الطوفان ، فيملأ كل مكان ويغسل كل بقعة من البقاع مما علق بها من الدنس ... فلماذا يحزنك الجزاء الحق ، والقضاء الذى لا مفر منه ؟ ونفسى تحدثنى أن هذا الجزاء الصارم لا يكون إلا مرة ، وأكبر ظنى أن العالم بعد أن رُحض هذا الرحض العنيف ، لن ينغمس فى الحمأ ، ولن يغرق فى الموبقات بمثل تلك الصورة البشعة التى استوجبت ذلك الجزاء ، سيكون فى الناس أبدا من تدفعه نفسه الأمارة بالسوء إلى مجاهل الشرور . لكن العالم فى أمان ما غلب خيره على شره ، وحقه على باطله . وإن علىّ وعليك واجباً : ألا نلد لعمارة هذا العالم غير الأنفس النقية والذرية الصالحة ، التى ترهب الإله وتلزم سننه ؛ ولئن صلح نسلى

ونسلك ، فما أجدر العالم أن يغلب طهره على رجسه ، وصالحه على فساده ؛ الأمر إذن راجع إليك وإلى فتلام عولت ؟

قال سام :

مِنْ هذا العبء الباهظ أفرق ، ومن تأمل ذلك الواجب المضني تملكني رِعدة الحائر ، وجزع العاجز ... لست أدرى يا يافث كيف يولد الشر ، ومن أين ينبع الرجس ! لقد يكون العالم وما به إلا كل بر كريم ، ثم ينقلب فى عشية أو ضحاها : فإذا الشر قد طغى وساد ، والبِر أوشك أن يمحى من الأرض !

إن الدم الذى يجرى فى عروقى — علم الله — لطهور . وأخلق بنسلى ألا يرث منى سوى الخير والهدى . ولكن مَن لى بأن أضمن له ألا يحيد عما ورثه ، وألا تجمح به النفس الهوجاء فينزل به السخط ويحل البلاء ويجتاحه طوفان كالذى شهدناه ؟

قال يافث :

لقد مالت الشمس نحو الأفق ، وتوشك أن تتوارى خلف تلك الجبال ، تاركة خلفها سحباً عسجدية صفراء . إن مغرب الشمس قد استهوانى يا سام ! وكأنما فيه قوة قوية تجذبنى أبداً إلى الغرب ! ولقد طالما جلست فى ظل هذه الأثلات أتأمل الغروب ، وأفكر فى هذا السكون البديع الذى تميل نحوه ذكاء ،

وفى كل مرة كنت أحس دافعاً شديداً يدفعنى إلى الغرب !

إلى الغرب إذن سأمضى ، وفى الغرب سأحيا ، وتحيا ذريتى ونسلى . وهنالك فلنحاول أن ننشر اليمن والعمران ...

أنا أيضاً لست أدرى كيف تولد الشرور والأصل فى العالم البر ، ولا أدرى كيف ينمو الرجس ، وأساس الكون الطهر . على أنى — وإن أجهدت فى هذا خاطرى — ليس بضائرى أن أعيا به ، وأن يقصر عن إدراكه فكرى . فسواء لدى أكان الشر مما يخرج من الأرض أم يهبط من السماء ، فإن على وعلى ذريتى أن نعد العدة لسحقه ، وأن نهيئ الأسباب لحربه فلا تكاد شجرته أن تنبت حتى تجتث من أصولها ، ولا يكاد رأسه أن يرتفع حتى يلقى ضربة فاقرة . وإنى أحس أن فىّ وفى نسلى قوة كامنة ستسير بالناس حتما إلى الخير ، وتردهم — ولو بعد لأى — عن كل منكر . وما هذه القوة سوى قوة الفكر البشرى : الفكر الباحث الذى يتناول الأشياء بالنظر وبالتأمل ، ولا يزال مسترسلا فى البحث وفى التحقيق حتى يسلمه الإمعان فى التفكير إلى سبيل الرشاد . ويريه ما انطوى عليه العالم من أسرار ، وما خفى فيه من الحقائق ... وسيخطو العالم خطوات بعيدة يوم يعلم الناس القوى التى تمسك الأجزام وتربط الأكوان ،

وما كمن فى الأرض من كنوز ، وماجرت به الأنهار من خيرات ؛ هنالك تعم السعادة ، و يقضى على الشرور .

إلى الغرب إذن سأمضى ، وهنالك سأغرس شجرة العلم ، لكى تؤتى زهرها يانعاً ، وثمرها شهيا رائعا . وأنت يا سام ، علام عولت ؟

قال سام :

الآن يشرق القمر بدراً كاملاً : وهو أحسن ما يكون حين يطلع فى المشرق ، إذ لا يرتفع فوق الأفق إلا أذرعا ... لست أدرى : هل تخدعنى عيناى ؟ لكنى أراه وقت الشروق أكبر حجما ، وأملح وجها ، وألطف نورا . وما زلت منذ درجت يستهوينى الشروق ، وتعجبنى الشمس والنجوم ساعة تطلع على العالم . ولقد طالما جلست أرقبها إلى جانب هذا الجدول الجارى . فتوحى إلىّ بما يطمئن له القلب الثائر ، والطرف الحائر . الشرق هو المبتدأ ، والغرب هو المنتهى ؛ فهنيئاً لك الغرب يا يافث ! أما أنا ، فإن هوى نفسى فى الشرق ، لا أبغى به بديلا .

فى الشرق إذن سأحيا ، وتحيا ذريتى ونسلى ، وهنالك فلنأخذ فى نشر أسباب العمران .

ولست أدرى هل أقدر أن أسلك وذريتى السبيل التى رسمت ، والنّهج الذى تريد أن تنهج ؟ ولئن قدرت أن أسلك

سبيلك تلك ، فما أدرى أمُنجيتى وذريتى من الويل ، وهاديتى ونسلى إلى الرشاد ؟ إن عهدى بالفكر البشرى أنه كثير الضلال ، كثير الخبط فى بيداء لا تفضى إلى خير . وقلما يصيب الحق إلا بعد أن يتيه فى الباطل دهراً طويلا . وما أشد خوفى يوم يطّلع أبنائى على ما ثوى فى الطبيعة من قوة ، وما كمن فيها من كنوز . عند ذلك قد يلهيهم التكاثر أو يتملكهم الجشع ، ويتناحرون من أجل مادة قد لا تغنى عنهم شيئا ... كلا ، ليس العلم أو الفكر بالذى ينقذ الناس ، فإن طريقه طويلة وعرة ...

الآن تنكشف الغشاوة عن عينى وأرى السبيل واضحة جلية . إن أبنائى سيولون وجوههم شطر الدين ، وبالدين سيبلغون بالعالم أقصى مراتب السعادة والطهر .

وسيبلغون حقائق الدين بالإلهام ، وبالوحى ينزل من السماء ، لا بالبحث والحفر والتنقيب فى الأرض . فذلك هو الهدى الذى ليس بعده هدى ، والنجاة التى لا تعدلها نجاة . ولقد يتناحر الناس من أجل الدين ، ويكيد بعضهم لبعض ، ويصيبهم من هذا أذى كثير ، غير أنه دم طاهر يسفك من أجل مأرب طاهر ، لم تدنسه المادة ، ولم يلوثه الطمع ...

أجل ، وإنى لأرى الساعة كيف ينبغ من أبنائى رسل

مبشرون ومنذرون وكيف ينتشر أبنائى فى العالم ، فيرفعوا علم الدين وينشروا الهدى ، ويحطموا الأصنام ، ولقد أسمع الساعة صوتاً ينبعث من أرض كنعان ، فيملأ الأرض حبا ورحمة ، ثم أسمع بعد فترة صوتاً قويا رزينا ينبعث من الصحراء فيملأ الأرض عدلا وأمنا ، فيتردد صداه من المشرق إلى المغرب فإذا الأوثان تتكسر ، والشرك يمحى ، والأغلال المذلة تتحطم ، وصروح الباطل تندك .

لا خوف إذن على العالم من طوفان يمزقه ، أو لهيب يحرقه ، ما دام فيه رسل تهدى ، ودين ينير الظلام .

إلى الشرق إذن سأمضى ، وهنالك فلتُغْرس شجرة الدين . أصلها ثابت وفرعها فى السماء . وارفة الظلال ، طيبة الثمر .

* * *

ثم سكت الأخوان ، وأطرقا زمنا ، ولبثا جالسين يحدقان فى السكون ، دون أن ينطقا بكلمة ، حتى دَجى الليل ؛ ولمعت فى السماء النجوم ، وبرد الهواء ، فنهضا وجعلا يمشيان الهوينى صامتين .

حتى إذا اقتربا من منازلهما مد الأخ الأكبر يده مصافحاً :

— فليهنئك الشرقَ يا سام !

— وليهنئك الغرب يا يافث !

حنـــــجرة

حنجرة :

أشهد أن الطبيعة قد تمنح فتسرف فى المنح ، وتعطى فتجزل العطاء ... وتنسى نفسها أحياناً ، فتكيل السعادة لمن رضيت عنه بمكيال هائل ، وتبذير منقطع النظير ! وكان ذلك شأنها يوم أفرغت على الرجل العجيب (أنطون سوكيلوف) أسجال الهبات : بأن منحته تلك الحنجرة الثمينة الرائعة !

أجل ، وإن المرء لتأخذه الدهشة عن يمينه وشماله ، ومن ورائه وأمامه ، ومن فوقه ومن تحته ، حين يفكر فى الوسائل المختلفة العديدة ، التى تتوسل بها الآلهة ، لكى ترفع من تحبه على الناس درجات ، وتحلق به فى ملكوت السموات — ترضى عن هذا فتمنحه المال عن وفر وعن سعة ، وتحب هذه فتكسوها أثواب الجمال ثوباً فوق ثوب — كأنها ورق الكرنب — ويحلو للآلهة أن تنعم على ذاك ، فاذا هو ذو جاه عريض طويل ، عميق غليظ .

ولكن أغرب شىء تهبه الآلهة هو — من غير شك —

تلك الميزات الجسدية : تلك القطع من اللحم والعظم والغضروف والجلد — يجرى فيها الدم أحياناً ؛ وأحياناً لا يجرى فيها دم مطلقا ، وطورا يكسوها الشعر ، وكثيراً ما تكون صلعات عارية من الشعر — تلك الأجزاء الجثمانية ، التى يحسبها الجهال من مصادفات الولادة ، أو من غلطات الوَلَّادة ، وفى الواقع وفى الحق هى السر البائع الذى يحرك الفلك وتدور له الكرة الأرضية من الغرب إلى الشرق .

وما على الذى يشك فى صحة هذه الدعوى ، أو يريد أن يتهمنا بالغلو والمبالغة ، إلا أن يلقى نظرة يسيرة على التاريخ المكتوب وغير المكتوب ، ويكفى أن يلقى النظرة على عجل وهو مغمض العينين ، ليرى كم من صلعة لامعة قد ساست الممالك ، ودوخت الجيوش ، وكم من ذقن غليظ استطاع إخضاع الأقطار وتسخير كل جبّار . وها نحن نسوق للقارىء أمثلة لا تحتمل الشك أو الإنكار .

هذه كيلوباطرة ! بأى سلاح و بأية قوة استطاعت أن تخضع يوليوس قيصر ، وتلفه حول إصبعها الخنصر ؟ أبالقنابل والأساطيل ؟ أم بالجيوش والدبابات ؟ أم بالغازات الخانقة وغير الخانقة ؟ لا بهذا — لعمرك — ولا بتلك ، بل بقطعة

أنف مستدق مستطيل : خارت أمامها عزمة العاهل الرومانى الهائل ، الذى فتح الغال و بلاد الاسبان ، واستولى حتى على بريطانيا العظمى — التى لم تكن عظمى فى ذلك الوقت .

ثم شمشون : الجبار شمشون ، الذى استطاع أن يقتل ألفا من الفِلِسْطِيِّين وما بيده سلاح سوى عظمة الفك الأسفل لحمار نَفَقَ حديثاً ، والذى استطاع أن يقبض على العمودين الذين يمسكان الهيكل الأكبر — وقد احتشدتْ فيه أعداؤه آلافاً مؤلفة — أمسك عمودا باليمين ، وعمودا بالشمال ، ثم مال بالعمودين وهو يقول : « على وعليهم يا رب ! » فاذا الهيكل يتداعى ، والسقف ينقض بمن عليه ، والبناء يندك بمن فيه ، و إذا الآلاف المؤلفة تقبر ، بما فيهم دليلة الخائنة الماكرة !

ألا رحم الله شمشون ! أنَّى جاءته كلّ هذه القوة وهذا الجبروت ؟ ذلك هو السر الخطير ، الذى أدلى به إلى دليلة الخائنة ، حين أنبأها أن قواه كلها كامنة فى تلك الشعرات التى نبتت فى رأسه كما تنبت الأشعة فى رأس الشمس .

وهكذا كان عضو بسيط من أعضاء الجسم سبباً فى تحويل سطح الأرض ، وفى قلب مجرى التاريخ ...

إذن لماذا نعجب من أن الآلهة حينما أرادت أن تغدق

النعم على (أنطون) لم تزد على أن وهبته حنجرةً ؟ لم تهبه مالاً ولا عقلا ، ولا ذكاء ولا فهماً ، ولا طرفاً ناعساً ، ولا وجها وسيما ، بل كل ما منحته وحبته به حنجرة .

* * *

نفسُ عصامٍ سوّدت عِصاما
وعلمته الكرّ والإقداما
وصيّرته ملكا هماما

هذا جائز فى عصام المذكور . أما (أنطون سوكيلوف) فلم تكن له نفس تستحق الذكر ، ولم يكن شجاعا ولا هماماً ، ولا يعرف كرا ولا إقداماً . ولم يكن صاحب علم ولا جاه ، بل صاحب حنجرة فحسب ، يملكها وتملكه ، وليس له من حطام الدنيا شىء سواها ، وليس لها من حطام الدنيا شىء سواه ؛ وكانت هى سر سعادته ؛ واستطاع هو أيضاً أن يجعلها سعيدة مُنَعَّمَةً .

ليس على فضل الإله من حرَجْ
إن شاء ضاق الأمرُ ، أوشاء انفرجْ
ويدرك العليــاء من به عرَجْ
وترتقى حنـــجرةٌ أعلى الدَّرَجْ

* * *

إن سر النجاح فى الحيــاة هو ما قاله سقراط : أن تعرف نفسك ؛ وهكذا فعل أنطون ، فقد خلا إلى نفسه يوما ، وجعل يجهد فكره الكليل فى معرفتها ، وفى الكشف عن أمرها . لعله أن يرى فى ركن من أركانها كنزاً مخبوءاً ، أو قوة مدفونة ، فهداه طول التفكير ، والتدبير الكثير ، إلى أن له حنجرة ليس لها فى العالم نظير ، أجل ، وإنها لجديرة بأن ترفعه ويرفعها إلى المقام الأسمى والسِّماك الأعلى . وأن ينفض بواسطتها غبار الفاقة الذى يوشك أن يقبره ويقبرها .

وكانت ساعة إلهام أدرك فيها أنطون أن برلمان انكلتره — أبو البرلمانات جميعاً — هو ميدانه الوحيد وميدان حنجرته العزيزة ... عجباً كيف لم يوفق إلى هذا الكشف الهائل من قبل ، فيقضى على عيش الضنك والفقر الذى لازمه طوال هذه السنين ؟

* * *

فى مساء ذلك اليوم الخطير كان أنطون جالساً — وحنجرته — إلى رئيس (المحافظين) يحدثه حديثاً شائقاً طليًا ، والصوت يدوى من حنجرته دويا — ولولا أن الريح فى ذلك المساء كانت تهب من الجنوب ، لسمع أهل فرنسا صدى

تلك الحنجرة تنبئ الساكنين على ضفاف السين ، أن على ضفاف التاميز رجالا .

وأدرك رئيس المحافظين — ويا سرعان ما أدرك ! — أى كنز قد ظفر به ، وأى ذخر ثمين قد قدمته الآلهة له ولحزبه ! إنهم بفضل هذه الحنجرة الرَّعْدِيَّةِ لن يلبثوا طويلا حتى يتربعوا على دست الحكم ، ويتحكموا فى الدولة التى لا تغرب عليها الشمس .

ولم يبرح أنطون مجلس الرئيس إلا وقد حمل فى صدره — وفى جيبه — ألف دليل على أن نجم نحسه قد أودع بطن الثرى ، وأن نجم سعده قد أشرق فى السماء لامعاً صاعداً .

* * *

كان أنطون من رعايا الروس ، وقد حاول السنين الطوال أن ينال الجنسية البريطانية ، فلم تلق جهوده إلا الفشل . إن الجنسية البريطانية أجل وأثمن من أن تمنح للصعاليك أمثاله ... أما اليوم فقد جاءته تلك الجنسية تجرر أذيالها ، وهى تمشى على استحياء : نَزَلَتْ عليه من المحل الأرفَع من بعد طول تَعَزُّزٍ وتَمَنُّعٍ .

وفتحت بين يديه نوادى المحافظين ، المفرطين فى

أرستقراطيتهم وفى عزلتهم ، فجعل يغشاها هو وحنجرته التى كان صـداها يدوى فى تلك الحجرات الهائلة ، فتمتلئ بها الآذان وتميل نحوها الأعناق .

ولم تمض أسابيع قلائل حتى أخليت له دائرة من دوائر البرلمـان ، وحتى أقسم يمين الطاعة للملك ولدستور الدولة العظمى التى قلما تغرب الشمس عليها .

هنالك بدأت معجزته الهائلة تقرع الأسماع ، وتأتى بكل إبداع ، يوم تبوأ مقعده فى (وستمنستر) وقد لف على الحنجرة العزيزة كوفية من الدمقس الخالص ، برًّا بها وعطفاً عليها ، وهى بهذا لعمرى جديرة ، بعد أن أصبحت ينبوع ثروة ، ومبعث قوة وصولة ، وعماد حزب ودولة .

ولم يك إلا أن جالت هذه الحنجرة جولة أو جولتين حتى سقط (الأحرار) المساكين ، صرعى لا حراك بهم ، وسقطت حكومتهم ، التى كانت تحسب أنها باقية على الدهر ، فاذا هى تندحر وتندثر وتَمَزَّقُ كلَّ ممزَّق .

ثم أذَّنَ مؤذن بالانتخابات الجديدة للبرلمـان الجديد ، فاذا حنجرة أنطون تكتسح كل شئ أمامها ، وتجوب البلاد من جنوبها إلى شمالها ، فتندك أمامها المعاقل والحصون ، وتعنو

لها الرقاب والأعناق ، وتنجلى معارك الانتخاب عن فوز ساحق ماحق يفوزه المحافظون ، ويعودون إلى البرلمان ، يجرون ذيول التيه ، ويبرمون شوارب الخيلاء .

وفى اليوم التالى غدا أنطون إلى شركات التأمين ، فأمن على حنجرته بمائة ألف من الجنيهات !

حقًّا إن الآلهة قد تمنح فتسرف فى المنح ، وتعطى فتجزل العطاء

فى ملعب الكرة

في ملعب الكرة :

... وفى ذلك اليوم ذهبت بصديقى إلى ملعب الكرة ... لم أذهب به إلى دور العلم أو إلى حلقات الأدب ، حيث ينصت إلى لجاج الفقهاء ، وحوار الأدباء ؛ فلقد طَعِمَ من هذا الغـذاء الدسم الشهر كله : وشهد المعركة الطاحنة بين اللائحة والشرعة ، و بين الأريكة والسرير ؛ و بين الفنون الرفيعة والغليظة ؛ و بين الفتوة والمروءة ، و بين الكوفة والبصرة ، و بين المستشرقين والمستغر بين ...

* * *

انتزعتك يا صديقى من بين هذا كله . فلعمرى لقد آن لك أن تمسح عن جبينك المجهد المعنّى عرق النحو والصرف والفقه ، وأن تزيل عن عينيك ما علق بهما من قذى البحث العميق ، عن اللفظ الدقيق ، والمعنى الأنيق : ذلك البحث الذى طالما أضناك وأذواك ؛ ثم عدت منه صفر اليدين ، أو رجعت بشئ زهيد لا يطفئ غلة ، ولا يغنى من جوع .

فتعال اليوم نتبوأ هذا المقعد العالى ، ونشرف منه على هذا

الميدان الفسيح ، كما يشرف النسر من ذروة الطَّوْد . ولنرقب ما يجرى بين أيدينا من الحوادث الجسام ... أراك تبتسم ابتسامة الشك أو الإنكار ، كأنما تظن أن ما يجرى هنا ليس إلا ضرباً من العبث أو اللهو ؛ فلا وأبيك لن تبرح حتى تشهد فى هـذا الملعب من دروس الحكمة ومن عبر الحياة ، ومن المعانى البديعة العميقة ، ما لم تجده بعد فى الكثير من أسفار أصحابك الخالدين .

هاهم أولاء اللاعبون قد أقبلوا ، فدوى رعد الهتاف والتصفيق ، أرأيت هذه الأجسام الفتية التى أفعمت صحة وقوة ، والتى لا تكاد تستقر فى مكان مما بها من نشاط ومرح . ولكنها قد تثبت فى مواقفها حينا فكأنها الجبال الرواسى . ثم تنقض على الأثر كأنها صخور تهوى من قمة طود ؛ أو تندفع طائرة كما تندفع السهام عن القِسِىّ . وهى بعد هـذا كله لا تشكو كلالا ولا ملالا ، كأنمـا يتفجر نشاطها من ينبوع لا يغيض . . . إن هذه السيقان التى تراها تحمل تلك الأجسام ، ما نبت هذا النبو ولا اكتسبت تلك القوى فى يوم أو بعض يوم ... بل هى ثمار المران الطويل شهوراً وسنين . وليس من هؤلاء الفتيان من لم يأخذ نفسه بأنواع من الجد والدأب ، وبالحرمان من ضروب اللهو والعبث ، كى يبلغ هـذه المرتبة العالية من القوة ومن الرشاقة ؛

ومن جمال الفتوة ، والرجولة الصحيحة .

حدثنى بالله ! ألا ترى فى النظر إلى هذه الأجسام القوية الفتية متعة للنفس وللحس ، بعد الذى شاهدته من تلك الأجساد المترهلة ومن تلك البطون الناتئة ، واللبات المترامية على الصدور والأقفاء المطوية فى ثنايا عديدة مديدة ، والسيقان الغلاظ التى لا تستطيع المضى ميلا أو بعض ميل . ألا أن عيوننا لتقذى برؤية هؤلاء الأسبوع كله . فلينم طرفنا اليوم بمنظر الصحة الدافقة والقوة الباهرة ... بعد هذا فلنضف فصلاً جديداً إلى كتاب الفتوة ، فصلاً تبنيه على المشاهدة والعيان ، لا على الأخبار والأقوال ...

إن الرياضة قد أدبت هؤلاء الفتيان فأحسنت تأديبهم .. انظر إليهم كيف تركوا ضيوفهم يسبقونهم إلى الملعب . وفى إثرهم ينزل أصحاب الدار على مهل ، كأنما يمشون على استحياء . وهم على هذا كله خصوم ، ستدور بينهم معركة لا هوادة فيها ولا لين . ولا محاباة فيها ولا مداراة : معركة سيبوء فيها الضعيف بالخزى والخسران ، ويرق النصر بالمنتصرين إلى أعلى مراتب السمو .

هذه المعركة هى بيت القصيد . وإن فى صورها العديدة

لما تنشرح له الصدور وتطمئن القلوب ... فها هنا معركة تنشب بين فريقين قد تكافآ فى العدة ، وتماثلا فى العدد . فان يكون الفوز فيها إلا للجد والجلد ، وللبراعة والإقدام ... ونحن فى عالم طالما نشهد فيه تألب الأقوياء على الضعفاء ، وطغيان جيوش الظلم على جنود الحق . واستبداد الكثرة الغاشمة التى تُزهى بعُدتها وعديدها ، ويحلو لها أن تمعن فى الجور وتسرف فى العدوان . فما أسعدنا اليوم إذ نتناسى ذكر هؤلاء حينا ، لكى تنعم أبصارنا بشهود معركة نظيفة بريئة بين أكفاء وأنداد ...

أجل ، وإنك لتهتز طربا إذ ترى هذه المعركة تدور رحاها بين يديك فى وضح النهار . معركة ليس فيها خفاء ولا لبس . الميدان كله أمام أعيننا — من أدناه إلى أقصاه — نتأمل كل ما يجرى فيه ولا يخفى علينا من أمره شئ . . . فلننس الآن — ونحن ننظر إلى هذه الحرب الطاهرة — تلك المعارك الغريبة المريبة ، التى تدبّر فى الخفاء وتنمو فى الظلام . وتُنصب فيها الحبائل ، ويشتد فيها الكيد ، ويُتناسى فيها الشرف ، وتحنث فيها الإيمان ، وتُخان فيها العهود . والتى لا يحلو فيها الطعن إلا على غرة ، ولا يُتحارب فيها إلا بأسلحة الجبن . . . هذه — ويا للأسف — معارك قد امتلأت بها حياة الناس ، فلنستعن

على نسيانها الساعة بهـذه المعركة النبيلة التى بين أيدينا ، والتى تبـدأ جهاراً ، وتجرى جهاراً ، وتنتهى جهاراً ... وعلى كل لاعب رقباء من هذه الآلاف المؤلفة ، التى احتشدت اليوم لـكى ترقب حركات كل لاعب وسكناته . والويل لمن يحيد عن الصواب لمحة العين ، فيستثير من آلاف الأفواه صيحات الإنكار والاستهجان .

أجل و إن لهذه الحرب الضروس لقواعد وشروطا قد نصت عليها قوانين مقدسة الرعاية ، ولن ترى فى العالم كله قانوناً ينفذ فى شدة وصرامة ، وفى قوة وحزم ، كما ينفذ هذا القانون ، الذى ليس فى تنفيذه تسويف ولا (تأجيل) . بل سرعان مايلقى الآثم جزاء إثمه ، قبل أن يتحول عن مكانه ، وها هنا الحـكَم النزيه اليقظ الذى يحصى الصغيرة والـكبيرة ، ولا يعرف المحـاباة ولا المداراة .. فإذا كنت — ياصديقى ! — قد أهمك وأحزنك أن رأيت العدل يصرع ، والقانون يداس بالنعال فى مشارق الأرض ومغاربها ، فلتسرِّ الهموم عن نفسك برؤية هذا الحـكم العدل ، الذى لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، والذى يرى القوى المدل بقوته ضعيفاً عاجزاً ، حتى يقتص منه ويرده إلى جادة الصواب .

* * *

والآن ، ألست تراك شديد الإعجاب بما تراه الساعة فى الفريقين من عزمة وثبات ودأب لبلوغ الغاية ، ومضىّ لما وطنوا النفس عليه . فلقد يخطئون الهدف المرة بعد المرة . من بعد ما أجهدوا قواهم سعياً وطلبا ، ولكنهم يعودون بعد الإخفاق إلى السعى والعدو ، لاتنيهم العقبات إلا ريثما يتأهبون لاجتيازها ولا يرتدون لحظة إلا ليأخذوا العدة للتقدم . وكأنما لا يعرفون طعم اليأس ، ولا يؤثر فيهم الإخفاق ، فهم أبداً كموج البحر لا يتراجع إلا ليندفع ، ولا يضعف إلا ليشتد .

* * *

وها قد انقضت الساعتان كأنهما لحظتان . ففى وسعك الآن أن ترجع إلى أسفارك وأخبارك ، ونحوك وصرفك . وأحسبك الآن قد آمنت أن هـذا الميدان البرىء لا يخلو من الحكمة والموعظة الحسنة . أجل وأنك لتحدثك نفسك الساعة بمثل الذى تحدثنى به نفسى :

ليت لعب الحياة كان جدا ؛ ويا ليت جدها كان لعبا !

دار الاصلاح

دار الإصلاح :

كنا نتذاكر حديث الحُسْن الموهوب والمجلوب ، فقلت لصاحبي : رحم الله ذلك الشاعر العربي القديم ، الذى كان ينادى بأنه ليس ممن يخدعه مظهر الجمال ، ولا يستهويه طلاء مصطنع ، أو رواء متكلّف ، ولا يفتنه حسن مجلوب بتطرية ، أو جمال مشترى من دكان العطار . وكأنى أراه إذ يجلس على دكّة أمام داره يتأمل الوجوه الحسان إذ تروح وتغدو ، فاذا رأى وجهاً عليه من التجمل أكثر مما به من الجمال ، أقبل على جلسائه ضاحكا ، وأنشدهم من شعره أبياتاً ساخرة ، يختمها بالسؤال المشهور :

« وهل يُصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ »

وكان يلقى السؤال فلا يسمع من جلسائه سوى الاستنكار .. ذلك أن الناس فى ذلك الزمان قد حكموا على العطار المسكين حكما قاطعاً بأنه عاجز كل العجز أن يصلح ما أفسده الزمان ... وأكبر ظنى أن العطار نفسه — وإن أنكر هذا الحكم جهاراً — قد آمن به سرا ..

قال صاحبي : غير أن هذا الحكم الصارم ما هو إلا كسائر الأحكام عرضة لأن يتغير و يتبدل ، حين يتغير الزمان والمكان ، ولم يبق لدىّ اليوم شك فى أننا بتنا فى زمن قد علت فيه دولة العطار ، وتألق نجم عزه ، وأصبح قادرا على أن يُثبت أن فى وسعه إصلاح ما أفسده الزمان !

فأنصت إلى كى أحدثك عن (دار الإصلاح) ، فان حديثها طريف معجب ...

قصدت فى الصيف الماضى إلى بلاد الانكليز ، وقضيت شطراً من الزمن فى عاصمتهم ، وأنت تعلم أن من عادتى أن أقضى الصيف فى مدينة النور ، غير أنى اضطررت هذا العام أن أستبدل بها مدينة الظلام ؛ ولا أحسبنى آسفاً على زمنى الذى قضيته هناك .

أما الدار التى أدعوها (دار الإصلاح) ، فقد كان من أمرها أنى ذهبت ليلة ألتمس ملهى أقضى فيه المساء ، فجعلت أطوف بشوارع لندن ذات الطول والعرض ، متنقلا بين اكسفورد ستريت إلى شافتسبرى أفنيو ، إلى بيكادلى ، إلى لستر سكوير ... متأملا المسارح ظاهراً ، ومستفسرا عما اشتملت عليه باطناً ، حتى وقعت عينى على مسرح (الحمراء) ، فأعجبنى منه ذلك المظهر الشرقى المتقن ، كما أعجبنى ما بداخله من نقوش

عربية بديعة ، فيها ما يكفى لتبرير ذلك الاسم الأندلسى ، وكانت به عندئذ جماعة من الراقصين الروس ، وهم حديث الأندية فى لندن فى ذلك الوقت ، فلم يطل ترددى وبادرت بشراء تذكرة !

ونَعِمْت ليلتى تلك بمشاهدة رقص عجيب ، والإنصات إلى نغمات موسيقية شائقة ، فلقد نبغت تلك الجماعة فى محاكاة الموسيقى الدقيقة العويصة بحركات جسدية ناطقة . وفى ترجمة النغمات المطربة المشجية إلى وثبات وخطوات واهتزازات ، تكاد تفوقها شجوا وطربا وإبداعا . ولست أنسى حتى الساعة كيف مثلوا لأعيننا (الحظ) بحركات الراقصين والراقصات على عزف الآلات ، فكنت كأنما أرى بعينى — مجسما أمامى — كيف يُقبل الحظ ، فاذا السعادة قد ملأت الكون ، وإذا الوجوه تطفح بالبشر ، وإذا السرور باسط جناحيه ، ثم نراه بعد ذلك مدبراً ، فاذا السرور قد استحال حزناً ، وإذا العالم قد امتلأ هموماً وشجناً ... ولا حاجة بى إلى الإفاضة فى ذكر ذلك الرقص الذى لم يكن له صلة بدار الإصلاح ، لولا أننى فى فترات الاستراحة كنت أنظر فى كراسة اشتريتها قد اشتملت على برنامج الحفلة ، وعلى كثير من الاعلانات ، وكانت

الفترات طويلة ، فأعدت قراءة هذه الكراسة مرارا ، ولم يفتنى مما بها شئ . وقد لفت نظرى إعلان بها عن (دار الإصلاح) ، فرأيته يزعم أنها دار معجزات ، تدخلها العجوز الشوهاء ، فتخرج منها غانية حسناء ... وكأن ليس بالعالم دمامة مهما قبحت ، ولا سحنة مهما انقلبت ، إلا وفى وسع أصحاب هذه الدار أن يحيلوها إلى حسن باهر وجمال بارع ، ويزعمون أن ليس الإصلاح لديهم من سبيل الترقيع الذى يزيد القبيح قبحا والدميم دمامة ، بل هو إصلاح شامل كامل . يلف المرء من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ... قرأت هذا كله فابتسمت ابتسامة الساخر . وعند مغادرتى المسرح هممت بأن ألقى بهذه الكراسة بعيداً ، ولكنى لم أفعل ، بل طويتها باعتناء ووضعتها فى جيبى ، وكأنما كنت حريصا ألا يضيع منى عنوان تلك الدار ... فمن يدرى لعلى يوما أن تثور نفسى على هذه الصورة التى صحبتنى كل هذه السنين ، فأريد أن أستبدل بها صورة أحسن منها ...

ومضت على تلك الليلة أيام قلائل . وإنى لجالس فى صباح يوم أطالع (التيمس) فى شئ من الكسل ، إذا بصاحبة الدار تعلن إلى أن صديقاً يريد أن يرانى . وكانت دهشتى غير قليلة حين رأيتنى أصافح صديقى عيسى الذى تركته فى القاهرة ؛

وكنت أحسب أن بينى و بينه أقطاراً و بحارا ... «عجباً ما الذى أتى بك ؟ » .

فحدثنى أنه قضى أياماً فى البحث عنى ، حتى اهتدى بعد لأى إلى مكانى ... ولقد غادر مصر فجأة حين نصحه أصدقاؤه أن يلتمس علاجا فى هذه البلاد لتلك الحال القاسية التى لم يعد يطيقها .. ذلك أن المسكين قد زاد وزنه ، واكتسى اللحم والشحم طبقات بعضها فوق بعض .

فقلت له حُييت أيها الصديق ، وأيا كانت الدوافع التى جاءت بك إلى هذه الديار ، فإنها من غير شك دوافع قوية حتى تستطيع أن تحرك هذا الجسد العظيم — فمرحباً بك على كل حال ؛ ولست أدرى يا عيسى هل يتاح لك أن تظفر ببغيتك فى هذه البلاد . إننا قد سمعنا من قبل عن معجزات الأنبياء رضوان الله عليهم الذين استطاعوا أن يبرئوا الأكمه والأبرص ، وأن يحيوا الموتى بإذن الله .

ولكن لم نسمع بعد بالأنبياء الذين يستطيعون أن يجعلوا منك شابا رشيق القوام .

قال أحسبك قد نسيت أننا فى زمن العلم والاختراع ، وفى عصر الكهرباء والبخار . ولو أنك تذكر هذا لما استكثرت

على العلم الحديث هذه العملية اليسيرة التى تدعوها معجزة .

قلت حقا إن فى عصرنا لمعجزات كبرى . فلقد استطاع البخار أن يحملك من غير عناء كبير ، حتى أبلغك هذه الديار . ولكن قل لى بأبيك ، أليس من نكد الدنيا على الحر أن مثلك لا يدفع ثمناً لنقله من مصر إلى لندن أكثر مما يدفعه مخلوق ضئيل هزيل مثلى ، ولو كان فى العالم إنصاف لاقتضوك الثمن أضعافاً مضاعفة . فإن عشرة من أمثالك على ظهر باخرة ، لخليقون أن يحولوها عن مجراها فتشرّق بدلا من أن تغرّب ، وتميل إلى إفريقية بدلا من أن تتجه نحو لندن .

فقال إنك مازلت فى ضلالك القديم ، ولم تلطف حلاوة هذه البلاد من طبعك الحامض ... فاعلم إذن أن الأمر عكس الذى توهمت . فإن أصحاب البواخر يغتبطون لوجود الركاب ذوى الوزن الثقيل ، لأن هذا مما يجعل السفينة تمشى فى رزانة واتزان . ولو لم يتح لهم أمثالى ، لاضطروا أن يستعيضوا عنا بعدد عظيم من أكداس الرمل يجعلونها فى قاع السفينة ... والآن هلم بنا ننطلق إلى إحدى تلك الدور التى يدعونها معاهد الجمال . فقد سمعت أن فى هذه المدينة منها عدداً ليس بالقليل . وأفهمت أنهم يستطيعون أن يحيلوا المرء إلى أية صورة شاء .

عند ذلك ذكرت الليلة التى قضيتها فى (الحمراء) . وتناولت تلك الكراسة . وقلت لصاحبى — وأنا أحاوره — لست أدرى أيليق بنا أن نسمى تلك الدور معاهد الجمال . أو ليس الأقرب إلى الصواب أن ندعوها معاهد الدمامة ؛ إذ لا يؤمها من الناس إلا من كان مثلك يحاول إصلاح ما أفسده الدهر ... وإنى لهذا السبب قد سميتها دور الإصلاح ، وقد ألقت المصادفات فى يدى إعلاناً عن واحدة من تلك الدور . ولست أضن عليك بأن أصحبك إليها ...

* * *

وقفت بنا السيارة أمام دار فى حى (سوهو) لاينم ظاهرها المتواضع عن باطنها الفخم . ولم يكن استخراج عيسى من بطن السيارة بالأمر اليسير . ولقد نفحت السائق نفحة حاتمية جملته يغض الطرف عما عانته سيارته من جهد ومن عناء . وقد علمتنى التجارب أن الدراهم خير لجام للأفواه فى لندن كما فى سائر البلدان .

ودخلت إلى دهليز الدار أجرّ معى هذا الكثيب العظيم من اللحم والشحم . فأسلمنا الدهليز إلى فناء فى جوانبه أرائك وكراسى ، وقد طلب إلينا أن نجلس قليلا ريثما يؤذن لنا .

فاخترت لعيسى من الكراسى أصلبها عوداً وأشدها مراسا .
وجلسنا نتأمل فيما حولنا فرأينا فناء مفروشاً بشىء كثير من الذوق وحسن اختيار للألوان ، وكان يغلب فيه اللون الأزرق والأحمر ، وعلى الأرض وفوق الجدران بسط وطنافس شرقية . وفى أحد الأركان موقد لم يكن به نار ، بل كان مستوراً بغطاء مزخرف ، وفى هذا الفناء خمسة أبواب يفضى كل منها إلى حجرات عديدة ، وفى ناحية منه سلم ينتهى إلى الطوابق العليا .

فقلت لصاحبى محاوراً : إن اليوم لشديد الحرارة ، وأراك أخذت تتصبب عرقا . فعسى هذا الحر أن يذيب قليلاً من هذا الشحم لكى تقل نفقات (الإصلاح) . . . على أنى لو كنت مكانك لادخرت هذا العرق إلى حين تلقى المدير الأعظم لهذه الدار . فإنه سيفاجئك بامتحان عسير ، لم يكن ليخطر لك ببال ؛ علمت أنهم سيطلبون إليك أن تجلس على كرسى واطىء ، وأن تضع رجلك اليسرى على اليمنى ، وتلفها حولها لفا محكما ، وأن تميل برأسك إلى الأمام حتى تمس به ركبتيك ! ثم تستلقى على ظهرك من غير حراك ، ويؤتى بدبابة متينة فيمرون بها على بطنك ذهاباً وإياباً . أجل ، هذا وأمثاله من الأمور التى ليس لك منها مفر . فاستبق عرقك إذن ، فإنك فى حاجة إليه . ولا تظن أن

فى قولى هذا غلوا . فإن الإصلاح ليس بالشئ الهين ... سل المصلحين قديماً وحديثاً ينبئوك أن إصلاح بنى الإنسان من أشق الأمور .. وناهيك بالجوع الشديد الذى لابد لك أن تشقى به بضعة أشهر ، تحرم فيها الطعام والشراب إلا قليلا . فلا يكون لك مندوحة عن أن تأكل من لحمك ودمك كما يفعل العشاق .

وعلى ذكر العشاق ، لقد هممت أن أقترح عليك العشق علاجا شافياً مما ألم بك ، فلقد يزعمون أن الهوى باعث على النحول والانضمار — خصوصاً إذا بلغ المرء فيه مرتبة الشغف والهيام والوله — ولقد هممت أن أسألك أن تعشق لكى تكتسب النحول والرشاقة . ولكننى راجعت نفسى وذكرت أن الحب لن يصيب أمثالك ، فإنه سيلقى من دون قلبك هذا السور المنيع من الدهن والدسم ، الذى لا تنفذ منه سهام الحب ، ولا تخترقه قنابل الغرام ... وأى حب يحترم نفسه يرضى أن يسكن مثل هذا المنزل ؟ إذن لم يبق بد من تلك الطريق الوعرة التى تساق إليها الساعة ...

هذا وقد جعلت أتأمل فيما حولنا من الناس ، فإذا هم مجموعة من الكائنات ما كنت أحسب أن فى العالم حجرة تستطيع أن تضمهم جميعا . قد كان عن يمينى زنجى مفلفل الشعر أسود البشرة

وعن يسارى رجل من المغول أفطس الأنف ، أصفر الجلد مائل العينين ؛ وكان هناك نساء ورجال . ليس فيهم من لم يرزق من شـذوذ الخلق طرفة نادرة وتحفة عجيبة . وقد جاءوا جميعاً ينشدون (الإصلاح) .

ولم يطل جلوسنا ، حتى ذهبوا بنا إلى إحدى الحجرات ، فإذا نحن أمام امرأة نصَف ، مليئة القوام ، مستديرة الوجه ، ضاحكة السن ، قد قصت شعرها الأسود الحالك قصا محكما ، بحيث أصبح رأسها المستدير أشد استدارة ؛ ولم تكد ترانا حتى هشت لنا و بشت ، وقالت : « أما صاحبك فلست بحاجة لأن أسألك ما خطبه ... وأما أنت فما أكاد أتبين ما تشكوه ... لعلك تشكو اعوجاجا قليلا فى الأنف . فإن به ميلا يسيراً عن (السمترية) ... وعلاج هذا أمر هين ، فان لدينا عدداً من الجراحين ذوى أيد صناع ، لا همّ لهم فى الحياة غير تقويم ما اعوج من الأنوف ، وتخفيض ما نتأ منها وما برز ، ورفع الأفطس منها و إعلاء شأنه بين الملأ ، ولقد يصادفون فى هـذا السبيل عقبات ، لـكنهم يتغلبون عليها ، برغم أنفها ...!!

« وأعجب شىء لدينا رجل من الصين ذو أنف شديد الفطَس حتى لا تكاد تراه ، وكأنما الناس قد اتخذوا وجهه مقعداً

أو متكأ ، وكنا أول الأمر عاجزين عن معالجته بما لدينا من الآلات ، لكنا الآن قد اتخذنا له آلات خاصة ، ولا شك عندنا في النجاح العاجل ، فيخرج هذا الصيني من معهدنا بأنف معتدل جميل ، يستطيع أن يشق به لنفسه طريقاً في الحياة ... أما أنت فخطبك يسير جدا ... حدق في وجهي ! ... إن ميل أنفك عن السمترية لا يتجاوز الخمس درجات ...

هكذا أخذت تحدثنا هذه المرأة . ولكني كنت راضياً عن أنفي ، ولم يكن لي في إصلاحه مأرب ... فسألتها أن تعنى بصاحبي ، وتبذل كل ما في دارها العظيمة من وسائل الإصلاح حتى يعود رشيقاً نحيل القوام . فنادت خادما وسألتها أن تذهب بصديقي إلى المكتب الثاني عشر ، فانطلقا وبقيت مكاني ، لا أدري ما أفعل ... فقالت : اجلس فإن صديقك سيعود بعد لحظة ، فأستطيع متى وصلني التقرير عنه أن أخبركما عن مدة العلاج والأجر الذي نتقاضاه . إن معهدنا هذا قد اشتهر أمره حتى بات كعبة القاصدين من أطراف العالم ، أما أنتما فلا أشك في أنكما من أهل مصر ، فقد أصبحت لكثرة ما رأيت من الوجوه لا يكاد يخفى على أمر أحد .. إن علم الجمال العملي قد ارتقى ، حتى أصبح لدينا علاج ناجع لكل شائبة تشوب

الجسم وتنقص من حسنه ، ولدينا أقسام تعنى بالقوام ، وأخرى بالشعر وبالوجه و بسائر الجوارح والأعضاء ؛ ولدينا قسم جليل الشأن همه أن يكسب الكهول من رجال ونساء رونق الصبى ومظهر الشباب ، وكم من غانيات قد خرجن من هذا المعهد ، وقد لبسن فيه حلل الجمال والدلال ...

عند ذلك قاطعتها وقلت لها متحمساً : بالله لا تذكرى الغانيات ، فإنما الغانية هى من تستغنى بطبع جمالها عن التطبع ، وبحسنها الموهوب عن المجلوب ...

قالت : ذلك المذهب القديم أيها الصديق ، أما غانية اليوم فهى التى تستطيع إنفاق قدر زهيد من المال فى هذا المعهد النافع ، فتصبح من الغوانى الحسان .

قلت : هذا لعمرى مذهب أخرق ، وخداع تخدعون به الناس .

قالت : لعلكم متى رخص الجمال ، وأصبح فى متناول النساء جميعاً ، أن تثوبوا — معشر الرجال — إلى رشدكم ، فلا تعبدوا جمال الجسد تلك العبادة المزرية ، ولعلكم أن تفكروا قليلا فى جمال الروح ...

وأغلننى قد أفحمنى هذا الرد ، فقد سكت لحظة لا أحير

جواباً ، ورجع عيسى و بيده ورقة ، تناولَتْها وقرأتها ، وقالت : إن (إصلاح) صديقك سيتم فى مدى شهرين ، وسيكلفه هذا الإصلاح خمسين جنيهاً .

* * *

قال صاحبى : ولقد رجعت منذ أسابيع ، ومعى عيسى ، وقد غدا فتى رشيقاً نشيطاً ، وسيما قسيما ...ألست ترى الآن أن دولة العطار قد ارتقت ، وأنه قد استطاع أخيرا أن يصلح ما أفسده الدهر ؟

قلت : بلى ، ولـكن ألست ترى أنك قد بالغت فى تنميق قصتك وتزو يقها ؟

قال : وهل تحسبنى من أولئك الطغام الذين يقصون عليك الحديث كما جرى ملتزمين الصدق البارد الجاف ؟

قلت : معاذ الله أن تكون منهم ، على أنى سأذكر دائماً ما قالته لك تلك المرأة ؛ بأنه سيجىء يوم لا يأبه الناس فيه لجمال الجسد ، ويلتمسون فيه جمال الروح ، وعندئذ قد يكون لمثلك ومثلى فى الحياة شأن غير هذا الشأن .

الرجوع إلى البـاطل
خير من التمـادى فى الحق . . . !

صفحة من حياة تشلينى

صفحة من حياة تشليني[1] :

الرجوع إلى الباطل ، خير من التمادى فى الحق ...

ذلك هو الدرس القاسى الذى ألقاه القضاء الساخر والقدر الجائر على فنان فلورنسا العظيم بنفنيتو تشليني ، فى يوم بدأ ضاحكا وانتهى عابساً مُتَجَهِّماً ...

ذهب الفنان إلى الحجرات الخاصة فى قصر دوق فلورنسا ، ليشرف على الأعمال الفنية التى كُلِّف القيام بها : من تزويق وتنميق فى الجدران والأثاث ، وتحلية بالذهب والفضة ، ومن نقوش بديعة وتماثيل بارزة ... ولم يكن فى فلورنسا كلها فكر أبرع ، ولا يدٌ أقدر من فكر بنفنيتو تشليني ويده ، ذلك الرجل

---

(١) « بنفنيتو تشليني Benvenuto Cellini من كبار رجال الفن الايطالى فى عهد النهضة ، ولد فى مدينة فلورنسا عام ١٥٠٠ وتوفى بها عام ١٥٧١ وقد نبغ أولا فى صياغة الذهب والفضة صوراً وتماثيل غاية فى الدقة والجمال . وبعد ذلك استطاع النبوغ فى صناعة التماثيل من الحجر والبرنز ، وقد عاش فى روما وباريس حيث دعاه فرانسوا الأول ليعمل عنده ، وقضى الشطر الأخير من حياته فى وطنه فلورنسا ، وله مؤلفات فى الفنون التى مارسها وله كتاب ضمنه مذكرات عن حياته الحافلة بالحوادث ، وعلى إحدى هذه الحوادث قد بنيت هذه القصة »

الذى لم يكفه أن نبغ فى صياغة الذهب والفضـة والأحجار الـكريمة ، فأتى فى هـذا الضرب من الفنون بالرائع الساحر ، بل أراد أن ينافس المثالين والنحاتين فى صناعة التماثيل الضخام ينحتها من الصخر أو يصبها من البرنز . فكان له ما أراد ، وبات نابغة زمانه فى الصناعتين الدقيقة والجليلة .

وكان يحلو لدوق فلورنسا أن يمر به وهو يشتغل وعماله فى الجناح الخاص بقصر الأمير ، فيتحدث إليه عن الفن وعن رجاله وأنصاره ، ويناقشه فى رأى ارتآه الفنان أو خطة أراد رسمها وكان بنفنيتو حلو النادرة ، سريع البادرة ، فى شىء من غرور النوابغ ، وغطرسة الواثق بنفسه .

وفى اليوم الذى نحن فى صدده ، جاء الدوق فتحدث إليه قليلا ، ثم عاد لينظر فى بعض أمور الدولة ... وسألت الدوقة عن تشليني ، فقيل لها إنه جالس وحده يشرف على الأعمال التى كلف القيام بها فى جناح الأمير الخاص ، فلم تمض لحظات حتى كانت الدوقة جالسة تتحدث إلى تشليني وتطرى ما قام به من أعمال الزينة فى قصر الأمير ، ثم أرته عقدا من اللؤلؤ يشتمل على ثمانين لؤلؤة وقالت : أيعجبك هذا العقد ؟ قال : إنه لعقد جميل يا مولاتى ! قالت : فإنى أريد أن يشتريه الدوق لى ،

فلا بد لك أن تقول له ما شئت فى مدحه والإشادة بذكره ، وأن تبالغ فى إطرائه ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

كان تشلينى يظن أن الدوقة قد اشترت العقد وقُضِىَ الأمر . ولهذا بادر إلى مدحه و إطرائه . أما الآن — واللآلئ لم تشترَ بعد — فقد رأى واجباً عليه أن يطلعها على ما يراه فيها من عيوب ، ولم يكن فى فلورنسا كلها أقدر منه على نقد الجواهر واللآلئ ، ولا أبصر بمواضع العيوب منها .

فقال : مولاتى ! حسبت العقد مِلْكاً لك فبادرت إلى مدحه . فأما وأنت تهمين بشرائه ، فإنى أرى لِزَاماً علىّ أن أطلعك على ما به من عيوب بينة تحط من قدر هذه اللآلئ ، ومن أجلها لا أستطيع أن أنصحك بالشراء .

قالت : لقد رضى التاجر صاحب هذه البضاعة أن يبيعنا إياها بستة آلاف دينار ، ولو لم تكن بها تلك العيوب الطفيفة التى تذكرها لما رضى بأقل من اثنى عشر ألفاً .

فجعل تشلينى يبذل النصح الثمين ، و يقول للسيدة الكريمة إن هذه اللآلئ لو كانت خالية من كل عيب ، و بالغة أقصى غاية الكمال ، لما جاز لأحد أن يدفع فيها أكثر من خمسة آلاف . فأما وقد اشتملت على كل هذه النقائص ؛ فإنها لن

تساوى نصف هذه القيمة ، وفوق هذا كله ، فإن اللآلئ ليست كالأحجار الكريمة نفاسة وقيمة . إنما القيم النفيس هو الماس ، والياقوت ، والزبرجد ، والعقيق ، والفيروز . هذه هى الأحجار الكريمة التى تزداد على مدى السنين رونقاً وبهاء . أما اللآلئ فليست سوى قطع من محار البحر ، وعظام السمك ، لا تلبث أن تفقد بهجتها ورونقها بعد سنين قلائل !

لكن الأميرة كانت صُلبة كصلابة الماس ، وقد وطّنت النفس على حيازة هذا العقد ، وفى رأسها عينا امرأة قد بهرها لمعان اللؤلؤ . فأوحتا إلى قلب المرأة الذى بين جوانحها ، فإذا القلب قد اشتهى ذلك العقد ، واتخذ لحيازته إرادة لا تنثنى ، ورغبة لا تقبل الجدل ، ورأى تشليفى أنه غدا بين نارين ؛ فإما أن يُغضب الأميرة أو يخدع الدوق....

فقالت له : هوّن عليك الأمر ، فأنا الضمينة بأن الدوق لن يمسك بسوء ؛ بل وستنال أجرك منى يوم تغدو هذه اللآلئ لى ، وقد وطنت النفس على إحرازها . فاذهب بها الآن إلى الدوق ، وأطنب فى مدحها ما استطعت .

* * *

كان من أكبر ما يفخر به تشليفى الصراحة والأمانة ،

ولقد طالما جنت عليه الأولى ، وأفقدته الثانية شيئاً كثيراً من المكسب والمغنم ، ومن قبلُ ما جنت عليه صراحته يوم كان فى بلاط فرنسوا الأول ملك فرنسا . فرأى نفسه فجأة وقد غضبت عليه مدام « ديتامب » معشوقة الملك ، وأصبحت له عدوا عنيداً ، لا تجدى مع عداوتها صداقة أحد ، حتى ولا صداقة الملك نفسه . فلم يلبث أن اضطر إلى مغادرة أكبر ملوك العالم وأغناهم وأسخاهم ، والآن أيغضب الدوقة العظيمة ، دوقة فلورنسا ! من أجل كلمة تريد أن يقولها ، فيرتكب فى فلورنسا — وطنه العزيز — ما ارتكبه فى فرنسا من قبل ؟ و يفقد ماناله فى قصر الدوق من حُظوة ومن مقام رفيع !

تناول العقد ، ومشى به إلى الدوق — وقد عزم على أن يقول كلمات قلائل يمدح بها العقد ، ولعل الدوق أن يغفر له هذه الخطيئة من أجل الأميرة ... فلما رآه الدوق قال : — ما الذى جاء بك يا بنفينيتو ؟

قال : عقد جميل من اللؤلؤ أردت أن أنصح مولاى بشرائه فإنى ما رأيت عمرى ثمانين لؤلؤة كريمة قد نظمت فى عقد بمثل هذا الحسن الباهر ، وهذا التنسيق البديع .

قال الدوق : ما أنا بالذى يشترى لآلئ مثل هذه ، فلقد

رأيتها من قبل ، فلم يرقنى منظرها ولا حسنها ، وما هى بالنادرة كما تزعم ولا النفيسة !

قال : عفواً مولاى ! إنها و إيم الحق درر غوال ، ولا أعرف أن عينا رأت عقداً منظوماً كهذا العقد ، حوى درراً كهذه الدرر !

قال الدوق — والله يا بنفنيتو ! لو أن هذه الدرر من النفاسة بحيث تذكر لما ترددت فى شرائها ؛ فإننى فى حاجة أبداً لإحراز هذه الجواهر الثمينة ، حبا فى إحرازها ، و إرضاء للأميرة زوجى ، ولكى تكون هذه الكنوز ذخراً لأبنائنا و بناتنا ، وأنا أعلم أنك أبصر الناس بهذه الأمور ، وأن عينك لن تخطئ فى نقدها وتقديرها . كذلك أعلم أنك رزقت الصراحة فى القول ، والأمانة فى النصح ، فأصدقنى الخبر ، ولا تخش بأسا ! هل تنصح لى حقا بشرائها ؟

أصغى تشلينى إلى كلمات مولاه ، فكأنما سقط عن كاهله عبء ثقيل . لقد كان يمدح تلك اللآلئ بلسانه و يلعنها بقلبه . وكان يعلم وهو يطريها أن هـذا المدح يذرى به كفنان له رأيه السديد فى تقدير الجواهر ، ويذرى به كرجل اتخذ الأمانة والصدق شعارا . لهـذا انكشفت عنه الغمة حين سمع الدوق

يناشده الصدق والصراحة ، وقال : إنى لأخشى يا مولاى — إن أنا صدقتك الخبر عن هـذه اللآلئ — أن يشتد على غضب مولاتى الدوقة ، وتصبح لى من ألد الخصوم ، فأضطر إلى مغادرة فلورنسا — وطنى المحبوب — مرة أخرى . واليوم وقد تقدمَتْ بى السن فإن مغادرة الوطن علىّ شىء عسير . فأستحلف مولاى أن يحمينى من سخطها ؛ إذا لم يضمن لى رضاها ! ولقد وعدتنى مائتى دينار إن أنا استطعت إقناع مولاى بشراء تلك اللآلئ . وقد كان خوفى من غضبها أكبر من طمعى فى جائزتها . أما الآن وقد ناشدنى مولاى الصدق ، فإنى لا يسعنى إلا أن أخلص فى النصح . إن شراء هذه اللآلئ بذلك الثمن صفقة خاسرة . فإنها لا تساوى أكثر من ألفَىْ دينار ؛ فإذا كان لا بد من شرائها فلا يدفع الأمير فوق هذا القدر درهما واحدا ...

قال الدوق — كن مطمئنا ! إن الدوقة لن تعلم شيئا مما قلته لى الآن ، ولن يمسك منها أذى . وسأذكر لك أبداً هذا الإخلاص فى النصيحة !

* * *

عنـد ذلك دخلت الأميرة ؛ وقد ظنت أن قد مضى من الزمن ما يكفى لإقناع زوجها بشراء العقد . وأن قد آن لها أن

تضم صوتها إلى صوت الفنان فقالت :

— عسى أن يكون مولاى الدوق قد راقه هـذا العقد النفيس فإنه قلما وقعت عينٌ على عقـد يضاهيه حسناً ورونقاً ، وما أشد رغبتى فى اقتنائه وادخاره !

— لست أرغب فى شرائه .

— لمـاذا يضن علىّ أميرى الـكريم بهذا العقد الثمين ؟

— لأنى لا أريد أن تذهب أموالى هباء .

— أيظن مولاى أن أمواله تذهب هباء ، حين يقتنى بهـا درراً غالية كهذه الدرر التى قلّ أن يكون لهـا فى العالم نظير ؟ كيف و إن بنفنيتو نفسه — الذى يضع فيه مولاى بحق كل ثقته — قد رآها فبهرته وسحرته ، وقال إن الأمير لو دفع فى هذه اللآلئ ستة آلاف دينار لـكانت صفقة رابحة .

قال الدوق : إن بنفنيتو لم يقل شيئاً من هذا . بل لقد ذكر لى الساعة أنها لآلئ خسيسة ؟ وأن شراءها مضيعة للمال . انظرى أنت إليها ! إنها ليست مستديرة ، وليست متساوية فى أحجامها . وكثير منها قديم فقد الرونق والحسن . تأملى فى هذه ... وهذه . كلا ... إنى لن أرمى بأموالى من أجل هذه السفاسف .

***

دهش تشليني حين سمع الدوق يخاطب زوجه بهذه الصراحة ويفشي لهما سره ، ولم تمض لحظات على ائتمانه عليه .

ونظرت إليه الدوقة نظرات تلتهب فيها نار الغيظ . ثم خرجت من الحجرة وهي تهز رأسها هزة الثائر المتوعد . فاستولى الرعب على الفنان وجعلت الحجرة تدور أمام عينيه . وكاد أن يغشى عليه .

وعاد في ذلك المساء إلى داره مهموماً منكس الرأس ... وقد هم أن يعد العدة لمغادرة فلورنسا ليلتمس الرزق في غيرها من المدائن ... ولكنه رأى أعماله التي أخذ ينشئها ، وعز عليه أن يتركها لتهمل وتنسى . أو ليتناولها أعداؤه بالمسخ والتشويه . وعز عليه خاصة ذلك التمثال الضخم الذي أوشك أن يتمه ، والذي يمثل فِرْساوُس قابضاً على رأس الميدوزا — وهو يُعَدّ اليوم من أبدع مخلفات عهد النهضة — أجل ، عز عليه أن يترك أعماله هذه التي يوشك أن يتمها . ويوشك أن يزداد بها صرح الفن علواً وشموخا .

لو أن هذا الحادث جرى له في شبابه لبادر إلى مغادرة المدينة في ساعته تلك ، أما اليوم وقد نيف على الخمسين فقد رأى أن يتريث قليلا ، لعل الدوق أن يستطيع حمايته ونصره ، وأن يصلح ما بينه وبين الأميرة .

فى اليوم التالى غدا تشلينى إلى قصر الدوق امله أن يلقاه كسابق عادته . ولكنه لم يكد يبلغ القصر ، حتى لقيه أعوان الدوقة ، واضطروه لأن يعود أدراجه بعد أن ناله منهم شىء كثير من الإهانة والعنت . واضطر الفنان أن يلزم داره أياماً لا يكاد يجرؤ على مغادرتها . ومن قبل كان الدوق يأمر حجابه بأن يفتحوا له أبواب القصر فى أى وقت شاء ، وألا يحولوا بينه وبين الأمير . أما اليوم فإن الدوقة قد أمرت بعكس هذا . وأمرها النافذ ... !

* * *

وزار تشلينى أحد الأصدقاء ، فأنبأه بأن الدوق قد اشترى ذلك العقد ! أجل ، ولقد دفع فيه ستة آلاف من الدنانير الذهبية راضياً طائعاً ... ذلك أن الدوقة حين أعيتها الحيل . أمسكت العقد بيدها ، وجثت بين يدى زوجها ، وتناثرت من جفونها درر غوال كانت أكثر بهاء وأشد وقعاً فى نفس الأمير من درر ذلك العقد ! وقالت له وهى تنتحب ، إنها إذا حُرمت ذلك العقد فقد حُرمت كلّ سعادة ، وقد كُتب عليها الشقاء والذل مدى الحياة . وسيعلم الناس جميعاً أن الأمير زوجها العزيز ، وسيد أمراء إيطاليا ، الذي تفتديه بروحها ، قد بخل

عليها بعقد من اللؤلؤ . وأنها لن تطيق الحياة متى علم الناس بما هى فيه من هوان و بلاء ! .. عند ذلك أمر الدوق — لساعته — بشراء تلك اللآلئ . . . ولم يكد يفعل حتى رقأ دمع الأميرة وأبرقت أسار يرها ، وابتسمت عن لؤلؤ آخر ، كان فيه للملك خير عوض عن اللؤلؤ الذى اشتراه .

* * *

ومضى تشلينى إلى القصر ، وهو لا يكاد يصدق ما سمعته أذناه . فرآه الدوق مقبلا ، فأمر بأن يؤتى به إلى حجرته . فلما مثل بين يديه ، قال له من غير تلطف ولا مجاملة :

و يحك يا بنفنيتو أيها الشقى ! كيف بلغت بك الجرأة أن تغضب الدوقة مولاتك ، التى طالما أيدَتْك ونصرتك ؛ فجعلتنى أعرض عن شراء تلك اللآلئ النفيسة ! يا لك من شقى لا يعرف معنى للوفاء والإخلاص ! إذهب أيها التعس الآن إلى حجرة الأميرة ، واجْثُ على قدميك بين يديها . واسألها الصفح والمغفرة عن جريرتك . وارجع إلى الحق أيها الجاهل . فإن الرجوع إلى الحق فضيلة . . . وعساها تصفح عنك وتعفو عن خطيئتك !

* * *

وفتح تشليني عينين ملؤهما الدهشة والحيرة .

— مولاي أي حق . . . !

— لا تنبس أيها الشقي بكلمة . واذهب الساعة فافعل ما أمرتك به .

ومضى تشليني مطرقاً برأسه يمشي في بطء شديد ليلتمس من مولاته الصفح . لأن الرجوع إلى الحق فضيلة على كل حال .

معهد الطفيليات

معهد الطفيليات :

وأخيراً أتاحت لى الأسفار تلك الأمنية ، التى طالما تقْتُ إليها ، وهى زيارة هذه الجامعة ، التى لم تشتمل أرض الصين على أكبر ولا أضخم منها ...

وسار بى (الأستاذ) سيراً حثيثاً ، ليطلعنى على ما اشتملت عليه تلك الجامعة الهائلة من دور وفصول ، ومن مدارس ومعاهد ، فلم نزل نتنقل من بناء شامخ إلى قصر مشيد ، إلى أفنية فسيحة ، إلى مغانٍ ذات طباق بعضها فوق بعض ...

ثم وقف بى أمام دار فخمة ضخمة ذات صروح وأبراج ، ولها باب عظيم ذو عمد من الرخام وسلالم من المرمر الأملس . وقد انفتح المصراعان ، وبدا لنا من ورائهما دهليز كبير تحف به عمد رفيعة موشاة بالذهب والأحجار الكريمة ؛ ومن فوقها سقف مزين بأبدع النقوش وأبهى الألوان .

فقال صاحبى : « الآن أريك أجل شىء فى هذه الجامعة الجليلة ، إن هذا البناء العظيم الذى تراه أمامك هو « معهد الطفيليات » قد عنيت الجامعة بتشييده وإعداده ، ولم تألُ

جهداً ولا مالا فى زخرفته وتأثيثه ، ليكون منه مرتع خصيب للطفيليات : تمرح فيه ما شاء لها المرح ، وتنعم فيه بكل ما تشتهيه نفوسها التى لا يرضيها القليل ، ولا تقنع إلا بالغالى النفيس .

« وسأمضى بك الآن إلى المتحف العظيم ، الذى حشدنا فيه ما استطعنا حشده من طفيليات هذه الأرض ؛ وما أحسب أن لجامعة من الجامعات متحفاً كهذا المتحف ، شاملا لما اشتمل عليه من طفيليات عزيزة نادرة ، حقيقة أننا لم نستطع أن نجمع هنا كل مافى الأرض من هذه الكائنات ! إن هذا مرام بعيد . ومن ذا الذى يستطيع للطفيليات عدًّا . فضلا عن جمعها وإيوائها ، وتربيتها ، وتغذيتها ، وتأديبها ؟ لكننا نستطيع أن نفتخر — بحمد الله — أن ليس فى القارات كلها جامعة بها من الطفيليات ما بجامعتنا هذه .

« فَلْنَمْشِ الآن بين هذه الصناديق الزجاجية . وليكن سيرنا عليها فى هدوء وتؤدة . فإن هذه الطفيليات رقيقة المزاج جدا لا تكاد خطرات النسيم تجرح خديها فحسب ، بل تقتلها قتلا . وهى علينا جد عزيزة . ويجب أن نحرص عليها غاية الحرص ، إمش إذن برفق لكيلا يسمع لنعليك صوت ، ولكيلا ترتج لوقع أقدامنا هذه المنازل البديعة التى آوت إليها الطفيليات .

« والآن فلأشرح ما أغلق عليك من أمر هذه الكائنات ! إنك يا صديقى من الأدباء . ولديكم فى الأدب طائفة أظنك تعلم من أمرها ما أعلم — من كل كويتب أو شويعر . عاجز كل العجز عن أن يخرج من صدره أو قلبه أو رأسه رأيا أو خاطرة أو فكرة . يفتش فى نفسه فيلفيها خلاء بلقعاً قفراً . فيعمد إلى دواوين القدماء وكتبهم ، يستخرج منها القصيدة أو الرسالة ، ولا يزال بها يحاكيها ويقلدها ، ويحذف لفظاً ويضيف لفظاً ، حتى يتم له مسخها وتشويهها ثم يلصق فى آخرها اسمه الكريم فإذا به قد أصبح ذا شأن وخطر ، وإذا النوادى تتحدث بأمره والصحف تنوه باسمه ، والمحافل تتلقاه بالإكرام والترحيب ، وإذا صورته الفخمة تطالعك من صدر كل صحيفة سيارة وغير سيارة لتنبئك ، وتنبئ الجاهلين أن قد نبغ فى هذا الزمان الأخير أديب خطير ، وشاعر كبير !

«ونحن يا صديقى فى عصر قد علا فيه كعب هؤلاء وعظمت دولتهم ، وقويت شوكتهم . ولا تحسب أنهم وقف عليكم أهل مصر بل إن لدينا منهم فى مملكتنا هذه خلقاً كثيراً . وفى وسعك أن تقسمهم إلى قسمين عظيمين : الأول طائفة الطفيليات القومية أو الوطنية وهم الذين يعيشون متطفلين على قومهم العرب مثلا

وأمتهم العربيـة . غذاؤهم وحياتهم مما يمتصونه أو يبلعونه أو يمسخونه من شعر القدماء ورسائلهم . ناهيك أن فى أدبكم العربى أسفاراً لا تزال مودعة فى خزائن مظلمة فى دور الـكتب؛ مخطوطة لا يصل إليها إلا الباحث الجليد ... وما أولع الطفيليين بالبحث والتنقيب ، وما أشـد صبرهم وجلدهم ! فهم يجدون فى هذه الأسفار المنسية ضالتهم ، ويصيبون منها الغـذاء الذى يكسبهم الشهرة والعظمة . ومنهم من لا يكلف نفسه عناء البحث فى خزائن الـكتب ، بل يعمد إلى الشائع المتـداول من كتب القدماء والمحدثين ، فلا يزال بها يحولها ويحوّرها ، ويربعها ويدورها ، حتى يرى فيها الطغام شيئاً مخترعاً ، وأدباً مبتدعا ... ولعل هذا الطراز أبرع من الأول وأقدر ، لأنه يعتمد على مقدرته الهائلة فى المسخ والتشويه ، بينما الأول يعتمد — قبل كل شىء — على بحثه وتنقيبه عن المجهول من الـكتب ، والخفى المستور من كنوز الأدب .

« تلك إذن طائفة الطفيليات القومية . تعتمد كما ترى على تراث قومها . أما الطائفة الثانية فهى جماعة الطفيليات الغربية ؛ ننعتها بهذا الاسم لا لأنها جاءت من الغرب . بل لأنها تتغذى من الثمار الغربية . وتعيش على أجساد الـكتاب من أهل

الغرب والكاتبات ، الأحياء منهم والأموات .

« وهذه الطائفة قد استفحل أمرها ، واشتد مراسها ، منذ انتشر فى بلادكم تعليم اللغات الغربيـة ، فوجدت أمامها أودية خصبة ومروجا ممرعة ، لايكاد الطرف أن يدرك مداها . فأقبلت عليها فى شَرَهٍ لا يعرف شبعا ، ونَهَم لا يعرف حدّا . إذ رأت أن المجد الأدبى قد دنت قطوفه ، وسهل تناوله ... فجعلت تجنى من ثمار الغرب ما شاءت وشاء لهـا الجشع ؛ ثم مسخته قليلا أو كثيرا ، ثم جلته للعيون الشرقية ، على أنه من ثمـارها ومن نتاج روحها . فأكبر الناس تلك الثمار ، وسبحوا بحمد تلك الطائفـة . ورفعوها على الأعناق ، و بوءوها مقاعد السيادة فى الآداب أو فى العلوم ... »

عند ذلك قاطعت الأستاذ ، وقد تملكنى الضجر ، وقلت :

« أعن هؤلاء تريد أن تحدثنى ؟ وهل هؤلاء هم الذين أودعتموهم فى معهدكم هذا ؟ اللهم إنى لفى غنى عن رؤية أمثال هؤلاء ، وما جئت سائحاً فى بلادكم العظيمة ، لكى تطالعنى على تلك المناظر التى طالما أقذت عينى وأحرجت صدرى ! »

قال : « لا تخف ! فهيهات أن نجد مكاناً فى معهدنا هـذا على ضخامته وسعته لكل تلك الطوائف ! كلا يا صـديقى !

وما ذكرت لك أمر هؤلاء إلا لأنك ممن يعنون بالأدب ، ولأنى أريد أن تفهم عنى أمر الطفيليات التى حشدناها هنا ! فأردت تقريب الأمر إلى ذهنك ، متنقلاً بك مما تعرف إلى ما لا تعرف !

« وخلاصة الحديث ، يا صديقى ، أن الطفيليات هذه هى كائنات — أجل ، وإنى لمضطر لأن أدعوها كائنات — لا تستطيع أن تحيا وأن تعيش من نفسها ومن جهودها ، بل لا بد لها من كائن آخر ، تستمد حياتها من حياته ، وكثيراً ما تكون حياتها سبباً فى فنائه . وهى على كل حال لا بد لها من أن تضعف الجسم الذى يمدها بالحياة ، حتى توردة موارد الدمار . . .

« هذه الكائنات لا تكد ولا تكدح فى طلب الرزق ، بل تدع السعى والطلب إلى غيرها ، وليس لها أسنان تمضغ ، أو معدة تهضم ، أو أجهزة تحيل الطعام الخشن والشراب إلى غذاء وحياة ، بل تبقى كامنة فى الأجسام الحية ، ثم تنتظر حتى تكد هذه وتعمل ، وتجمع الرزق من نواح شتى ، وحتى تتناول طعامها وتهضمه وتمثله ، وتحيله إلى تلك العناصر التى توت فيها القوة والحياة ، عندئذ تبادر الطفيليات ، فتمتص منها الحياة

والغذاء ؛ من غير جهد ولا عناء . . . هذه الطفيليات لا تحسن عملاً ، ولا تجيد صنع شيء ؛ اللهم إلا شيئاً واحداً ، هو : الالتهام .

« تأمل قليلاً فى هـذا الكائن البديع ، القرمزى اللون ! إنه لا يعيش إلا فى الشرايين ، لا يحلو له أن يتناول إلا الدم الطاهر الزكى : يستقيه سائغاً شهيا حين يقذفه القلب إلى كل شريان . . . وهذه صورة رجل قد حلت بجسده هذه الكائنات ! إن وجهه الشاحب قد علته صفرة الموت . . . وعينيه الغائرتين لا تجدان كفايتهما من الدم المغذى . وعلى عظامه الناتئة جلد رقيق ، يوشك أن يكون شفافاً . . . إن حياة مثل هـذا لن تطول ، فإن هذا الضرب من الطفيليات من أقتلها وأفتكها بمن يعيش فى جسده .

***

« إنتقل بنا الآن إلى هـذا الكائن الأبيض المنتفخ ! إن خطبه أيسر من خطب الأول ، ودأبه أن يعيش وسط الدسم والشحم . فهو لا يسكن من الجسم إلا حيث الدهن متراكم متكدس . فإذا رأيت من بنى آدم من أضخمته النعمة ، وأشحمه الغنى ؛ فإن هذا الشقى لن يلبث طويلاً حتى تتألب عليه هـذه

الكائنات الشرهة ، ترتع فى نعمته ، وتمرح فى شحمه ودهنه ، وما تزال مكبة عليه تمتص منه وتلتهم ، حتى تذره نحيلاً هزيلاً قد وهى عظمه ، ورق جسمه حتى لم تبق منه إلا بقية ضئيلة ، لا تلبث أن تذهب ، فيهلك الجسم وتهلك معه تلك الطفيليات .

« وأظنك تشاطرنى الرأى أن ليس بمستغرب أن تتجمع الطفيليات على مثل هذا المخلوق السمين ، حيث المرعى الخصيب والخير الوفير ، والنعمة السابغة . . .

« ولكن ما بال هذه الطائفة — التى تراها عن يمينك — قد تألبت على غير ذى دسم ، وتجمعت على غير ذى نعمة ، ولا يحلو لها أن تمتص الحياة والرخاء إلا من كل بائس شقى ، قد عضه الفقر من جانب ، والجوع من جانب ، ممن يقضى حياته فى كد وكدح ، من أجل اليسير من الزاد ، والزهيد من القوت لا يكاد يصل إليه إلا بإهراق عرق الجبين ، وبذل الجهد الجهيد ، وإيراد الروح موارد العذاب : ثم يغدو المسكين وإذا قوته ودمه يذهبان غذاء سائغاً شهيا لهذه الطوائف النهمة من الديدان الملتوية !

« ومن عجب أن ليس فى الطفيليات كلها ما هو أشد نهماً وأكثر شراهة من هذه الكائنات ، التى تعيش وسط الفقر

المدقع ، فتراها غنية وسط الفاقة ، سعيدة وسط الشقاء ، مدلة بنفسها عزا وكبرا برغم ما يحيط بها من الذل والضعة ، وهى إلى هذا كله قصيرة النظر ، لا تكاد أن ترى شيئاً ، لأنها لو استطاعت أن تبصر لعلمت أن ليس فى عيشها ذاك مايبعث الكبر والغرور ، ولأدركت حقارة شأنها بين الكائنات .

* * *

« والآن أنتقل بك إلى هذه المجموعة الفريدة ؛ إنها ستبدو لك لأول نظرة كأنها ديدان لما بها من الالتواء والانحناء ؛ لكنها فى الحق ليست بديدان ، بل حشرات طفيلية جميلة الصورة ، حسنة الهندام ؛ أما هذا الالتواء والانحناء ، فراجع إلى طبع غريب مغروس فى نفوسها ، ذلك أنها مولعة أبداً بالركوع حيناً والسجود حيناً ؛ مغرمة بتمريغ الجبين فى مواطئ النعال . فهى تبدى للجسم الذى تمتص خيره وبره عبودية وخضوعا ، وتتملقه تملقاً بديعاً . وما تنفك تهتف باسمه ، وتسبح بحمده . ولا يحلو لها الزاد الذى تمتصه وتغتذى منه ، مالم يصحبه كل هذا الركوع والسجود ، والملق والخنوع . . . وهذه الحشرات لا تعيش إلا فى الجسم القوى ذى البأس الشديد ، والعزة والجبروت . ولقد يحلو لهذا الجسم أن يؤوى هذه

الحشرات ، وأن تمتص من خيره ومن رحيقه ، لأنه يعجبه منها هذا الخضوع الظريف ، وهذا الملق الساحر ، وهـذا الركوع الدائم والسجود . ولا يرى على نفســه بعد ذلك بأساً فى أن تأكل هـذه الحشرات من مخه ومن دمه ، ومن لحمه ومن عظمه ، لأنه قوى مدل بقوته ، بئيس مفاخر ببأسه ، يظن أن كنوز قوته لن تنفد مهما كبر ذلك الجيش الجرار من الحشرات فتراه يستكثر منها ويستزيد ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

« ومن عجب أن هـذه الحشرات قد تحل بها حشرات أخرى أحقر منها ، لـكى تعبدها وتتزلف إليها ، وتمتص خيرها ؛ وهـذه أيضاً على حقارتها تمو حولها طائفة أخرى أحقر منهـا ، وهلم جرا . ولن تستطيع أن ترى هذا كله بالعين العادية ، بل لابد لك من التحديق فى المجهر : انظر هاهنا وأمعن فى التحديق حتى تعتاد عينك رؤية هـذا العالم الطفيلى المدهش ! أرأيت كيف تتابعت هذه الـكائنات تتابعاً مطرداً : من الـكائن الأكبر إلى الأصغر فالأصغر ، حتى تبلغ إلى الحقير التافه الذى لا تـكاد تراه حتى بالمجهر !

« وبرغم ما تراه فى هذا الجيش العرمرم من مظاهر القوة والنشاط ، والحركة الدائمة ، فإن هذا مظهر خداع . ولابد أن

يدركه الفناء فى لمحة الطرف . ولابد للمسكين من يوم تدول فيه دولته وتذهب ريحه ، وينظر فإذا قوته قد فنيت وبأسه قد زال ، وإذا هو صريع وسط تلك الجيوش الجرارة من الطفيليات التى أفنته وأفناها ، وأهلكته وأهلكها » .

* * *

والتفت الأستاذ إلى ، فرأى الدم يتصاعد إلى وجهى فقال : « أحسبك قد نال منك التعب ، ولا جرم فإن عالَم الطفيليات عالم عظيم جسيم . ولكن لن تبرح حتى ترى هذه الحشرات السوداء التى لا تعيش إلا على جثث الموتى . وتخشى الأحياء وترهبهم . . ألا تراها تذكرك بأصحابك الذين يُغيرون على شعر القدماء ، وأدب القدماء . ولا حياة لأمثال هؤلاء إلا بما يدره أولئك الموتى !

والآن تأمل هذه الكائنات الدميمة التى تراها عن يسارك ! وقل لى هل رأيت فى حياتك أشد منها دمامة ، وأقبح منها منظراً ؟ وهى مع ذلك لا تعيش إلا حيث يوجد الحسن والبهاء ! ولا تحيا إلا على كل من رزق الوسامة والقسامة ، وضرب فى الجمال بسهم ، وحيثما رأيت الشباب الغض والحسن الباهر ، تر هذه الكائنات الدنسة ، قد تراكمت من حوله وتألبت عليه . . .

لـكن أراك قد تصاعد الدم إلى وجهـك ، واحمرت عيناك ، وانتفخت أوداجك ، فهـل تحس ألمـا أو دواراً ، أو ترانى قد أتعبتك بكل هذا الشرح الطويل ؟ »

قلت : « ليس ما أحسه الآن تعباً أو ألمـا ، ولـكنه الغيظ قد استولى على ، وأخذ يحرق صـدرى ، ويوقد النار فى دمى ، وبودى لو تناولت عالمك هذا كله بالتحطيم والتدمير ، فلا أدع فيه دودة ولا حشرة ، قائمة أو قاعدة ، راكعة أو ساجدة ! »

قال : « من حسن الحظ أنا تركنا عُصِيَّنا بالباب ، فهلم بنا لنخرج من هنا ، قبـل أن يذهب بك الجهل مذاهب الطيش والنزق ، فإن هذه الطفيليات أعز على الدهر من أن نعرضها لسخط الحمق ، الذين لا يعرفون مالها من المنزلة الفريدة والمكانة العزيزة فى نظام هذا الـكون الأبدى » .

ثم انطلقنا ، وصاحبى يبتسم ، وأنا أكاد أتميز من الغيظ .

إنصاف المترجم

انصاف المترجم

أتى على المترجم حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . وقد طال هـذا الحين وامتد ، حتى كدنا نظن أن ليس لليله المُدْلَهِمّ من آخر . وإن من الناس لمن يظن أن المترجم ذو مكان تافه يسير ، وأنْ سيبقى مكانه مدى الدهر تافهاً يسيراً .

ولقد طالمـا أصغى المترجم إلى هذه الإشارات والعبارات ، التى تنزله من عالم الأدب والـكتابة أصغر المنازل . فيلقاها حيناً بالامتعاض ، وحيناً بالاستسلام ؛ وقد بات فى حـيرة من أمر نفسه ، فجعل يدعو نفسه أحياناً المترجم ، وأحياناً المعرب ، لعل فى هذا ما يحسن من شأنه ومن حاله ؛ ثم يتواضع أحياناً فيكتفى بأن يقول : نقله عن الفرنسية ... فلان ، ويوصى الطابعين بأن يكتبوا اسمه بحروف صغيرة ضئيلة ... وليس هذا كله بمغن عنه شيئاً ، فليس الزهو بنافعه ، ولا التواضع بمـانعه .

وبالرغم من أن حاله باعثة حقا على الرثاء ، مثيرة حقا للدموع والبكاء ؛ فإنا قلما نجد له بين الورى منصفاً . كأنمـا

أجمع الناس على ظلمه واضطهاده . وما كفاه السهر الطويل المضنى ، والانكباب على البحث ، والتنقيب عن الألفاظ والعبارات ، و إجهاده الفكر فى فهم ما لا يُفهم ، و إنقاذ ما لا يمكن إنقاذه ؛ حتى إذا ما أتيح له بعد لأى وعناء ، أن يخرج مترجَمه إلى عالم الكتب ، جعل يتقدم به إلى القراء ، فى حياء وتردد ، كأنما ارتكب وزراً يريد أن يعتذر منه ، و يسبق الناقدين إلى النقد فيقول لكل من يراه — بل ولكثير ممن لا يراه — إن الترجمة تشويه على كل حال ! .. وهو يريد بهذا أن يستل سخيمة الناقدين ، وأن ينتزع حمة العقرب ، أو على الأقل يهدئ من ثورتها . وشأنه فى ذلك كشأن الطبيب الذى يطعمنا للجدرى ، فيعطينا المرض فى شكل صغير لكى يدرأ عنا الخطر الكبير . . .

لكن هذه الحيلة لا تجديه نفعاً ؛ وهذا الاعتراف ليس بمنجيه من العذاب . فلا يلبث الناقدون أن يتناولوا المترجم بالتأنيب والتجريح ، وترجمته بالتنكيل والتعذيب ، و يعطرونه النقد المرير أينما ذهب ، وحيثما نزل ، فى مجالس الأدب وفى غير مجالس الأدب ؛ وفى الصحف السيارة وغير السيارة ؛ ومن النقد ما يلقى إليه مشافهة ، ومنه ما يلقى إليه كتابة .

هذا يتهمه بعدم الأمانة ، لأنه تصرف فى اللفظ من أجل الحرص على المعنى . فالويل له كيف يتصرف فى اللفظ ، وهو أثمن شىء فى الوجود ! والآخر ينعته بالجمود ، وبالتمسك بالحرف وبالحرص على اللفظ ، حتى جاءت ترجمته فى حاجة إلى ترجمة : لا هى عربية فتفهم ، ولا أعجمية فتُتفهم ، ويقول الثالث : أجل وإن المترجم لذو شخصية ضعيفة ضئيلة ، حتى لقد غمرته شخصية المؤلف ، وطغت عليه ومحته محواً تاما . فقارئ الترجمة لا يجد فيها سوى روح المؤلف . أما المترجم فلا روح له ! ويقول رابعهم مداعباً : إن هذه الترجمة والأصل كالزنجية الشوهاء وخيالها فى الزفت ! ويقول الخامس : ما كان أغنى قراء العربية عن ترجمة مثل هذا الكتاب ؛ فياله من مجهود ضائع ! ويقول السادس وهو يتكلف الظرف : إن هذه الترجمة لكتاب (هملت) من الإبداع ، بحيث يجب أن تترجم مرة أخرى إلى الانكليزية ! ليرى شكسبير كيف يجب أن يكتب (هملت) !

ثم من بعد هذا كله فما هو فى نظر الجميع سوى مترجم ! رجل أعوزته المقدرة على الابتكار ، فانصرف إلى النقل ؛ فهل يكون لمثل هذا فى عالم الأدب أو العلم مكان ؟ وأين هو من زيد وعمرو وبكر الذين ألفوا وصنفوا مجلدات فتحت فى العلم

أبواباً وطرقاً وشوارع ؟ حتى إن منهم لمن يبيع لتلاميذه الملزمة الواحدة بعدة دراهم ؟

* * *

ينصت المترجم المسكين لكل هذا وهو مطرق الرأس ، مغمض الطرف ، وقد أخذ الندم يأكل قلبه وكبده ورئتيه ، وهو ، على هذا ، يعلم أنه ليس شرا من أولئك المؤلفين ، وأنه لو شاء أن يسلك السبيل التى سار فيها زيد أو بكر لما كان من الصعب عليه أن يجمع الفصول من بعض الأسفار ؛ ثم يسىء وضعها وترتيبها ، ويعرضها على أنها من مؤلفاته القيمة ، ومن بنات أفكاره ، ودلائل إعجازه . ولكنه آثر أن يسلك سبيلاً غير ذى عوج ، وأن يعمل فى وضح النهار . فى زمان ساد فيه الالتواء والظلماء .

لا شك أن المترجم المسكين مهيض الجناح ، مهضوم الحق ، وقد بلغ من هوان أمره على بعض الناشرين أنهم ربما نشروا الكتاب ، ولم يعنوا حتى بذكر اسم المترجم !

ومع ذلك فلقد يلقى المترجم من حين إلى حين منصفاً يكون بمثابة جزيرة من الأمل وسط هذا البحر الفسيح من القنوط !

ومن أحسن ما يذكر فى إنصاف المترجم ما قاله الأستاذ طه حسين

فى مقدمة الترجمة العربية لكتاب هرمن ودوروتيه . وقد جاء فى كلامه العبارة الآتية :

« إن الذين يترجمون آيات الأدب والفن والفلسفة ينسون أنفسهم ، ويمحون شخصياتهم ، ويقنعون بمكان المترجم الذى ليس هو بالقارئ المستريح ، ولا المنتج النابغة ، لكنه صلة بين الرجلين : لا حظ له من راحة الأول ، ولا حظ له من مجد الثانى ، وإنما هو خادم مخلص أمين ؛ يرفع القارئ إلى حيث يذوق جمال الفن وجلاله ، وحيث يشق لآثار النابهين من الأدباء والفلاسفة طرقاً جديدة ... هذه منزلة المترجم يراها الناس يسيرة وأراها عظيمة جليلة الخطر . وحسبك أنها هى التى تحقق الصلة القوية بين الأجيال والشعوب . فتزيل ما بينهم من الفروق وتدنى بعضهم إلى بعض » .

هكذا أنصف الأستاذ طه حسين المترجم ؛ وردّ إليه شيئاً من حقه المضيع . ويحق للمترجمين أن يغتبطوا بأن قد صدر لصالحهم فى هذا الأسبوع حكم آخر من ناحية لم يكونوا يتوقعون منها كل هذا العطف . وألذ النعماء ماجاءك من حيث لا تحتسب . ذلك أن القضاء المصرى قد قضى فى هذا الأسبوع — ولا راد لما قضى — بحكم لعله أكبر غنم يستطيع المترجم أن يظفر به .

وها نحن أولاء نثبت هذا الحكم ها هنا بنصه وفصه :

« إن ما يلاقيه المترجم من صعوبة وعناء النقل من لغة إلى لغة ، وإصلاح فى عباراتها يستلزم كدا وعلماً معاً ؛ حتى لقد يفضل المترجم أن يكون صاحب تأليف ، أو أن يصرف وقته فى التأليف بدل أن يصرفه فى الترجمة والنقل ، لأنه فى التأليف مطلق ، يثبت ما يريد من المعانى ، ويضيف ما يريد من الألفاظ ، ويقدم ويؤخر ، ويحذف ويثبت على حسب ما يرى . أما فى الترجمة فنجده مقيداً بما ينقل من نظام وترتيب ، وإثبات وتقييد . ولابد له من أن يدرك المعنى إدراكا واضحاً ، ويلبسه زيه من الألفاظ والجمل فى اللغة التى ينقل إليها ، كما يكون أميناً فى نقله ، صادقا فى ترجمته . ولا يكون أهلا لذلك إلا إذا ملك ناصية اللغتين ، وعرف فيهما الشارد والوارد ، وأدرك دقائق كل منهما : من معان خفية ، وأسرار فى التراكيب . وأن تكون نفسه قد مرنت على هذه الصناعة ، ووقف على أسرارها ، واتخذ له طريقة واضحة فيها . وكثيراً ما تزل أقلام المترجم الأمين ، الذى يريد أن ينقل من قلب الشاعر كما يقولون ؛ فناهيك بما يلاقى من تعب وكد فى معرفة غرض الكاتب ، فيلتجئ إلى معاجم اللغة ، يقلب صفحاتها ويرجع إلى عبارات كبار الكتاب وأساليبهم ، لعله يصل إلى معرفة

مثل هذا التعبير ، أو ما يقرب منه ، أو يعثر على شرح له فى كتب الأدب . ولقد يقطع المترجم أياما فى البحث عن كلمة واحدة ! ... و إن هناك فى الترجمة عقبات منشؤها خفاء المعنى ، أو غرابة اللفظ ، تظهر فى بلاغة الكاتب . وتمكنه من امتلاك نواصى الأساليب ، بعبارة يسهل إدراك معناها ، ولكن يصعب على المترجم نقلها ووضعها فى قالب آخر ... »[١]

ذلك هو الحكم القاطع الذى صدر فى إحدى القضايا منذ بضعة أيام ، وصدوره هو الذى حملنا على كتابة هذا المقال ! ولعل مثل هذا الحكم هو أعظم حادث فى عالم الأدب — على الأقل فى عامنا هذا — فليغتبط المترجمون ، فإن لهم من هذا الحكم سيفاً بتاراً يقطعون به رأس الجحود والنكران . وليحذر الذين يضعون من مرتبة المترجم بعد اليوم — فليس حكم القضاء بالشىء الذى يجوز معه العبث أو المراوغة ؛ فليبادروا بالتوبة وبالتكفير عن سيئاتهم الأولى ، و يعترفوا صاغرين بما للمترجم من المنزلة العالية والمقام الرفيع .

وأنتم معشر المترجمين ، هلموا اليوم فشمروا عن ساعد الترجمة وأقبلوا عليها إقبال من يعرف مالها من جليل الخطر ، وما عليكم من رسالة تؤدونها فى أمانة و إخلاص جديرين بذلكم الحكم الباهر .

---

(١) راجع الأهرام فى ٢٤ مايو سنة ١٩٣٤

الشريد

الشريد :

لِمَنْ العينان الزرقاوان ، كأنهما قطعتان من الفيروز ؟ قد أحاطت بهما أجفان امتلأت ذبولاً فوق ذبول ، وغضوناً فوق غضون !

لمن هـذا الشعر الأصفر ، كأنه أسلاك من النُّضار ؟ وما لعسجده البراق الملتهب ، قد خالطته الفضة الشاحبة الفاترة ؟

ليست هذه الدار بالتى ترتاح لمرآها تلك العيون ، ولا بالتى يلمع فيها ذلك النضار ! إن هذه أرض سوداء يسكنها قوم سود فكيف ارتضاها الفيروز الأزرق داراً ، والعسجد الثمين وطناً ؟ هذه أرض زَنجية ، وقومها من الزنج !

هذه الأيدى ذات البشرة السوداء ، التى امتدت لتتناول طعامها الخشن من غير شوك ولا سكين ، هى أيد زنجية . وتلك الأفواه الناتئة ، ذات الشفاه الغليظة ، هى شفاه زنجية ، لأفواه زنجية ، وقد أخذت تلتهم ذلك الطعام الزنجى ، بشهوة زنجية ، وأصوات زنجية .

وتلك الأسنان البيضاء الناصعة ، التى ليس للبيض مثلها ،

تبدو من خلال الشفاه منضدة مرصوصة ، قاطعة ماضية ، هى أسنان زنجية لا شك فيها .

أجل ، إن كل شىء ههنا زنجى ، لا ريب فى ذلك ولا مراء ! . . .

زنجية هذه الجماعات المنتشرة حول أكواخها ، وزنجية هذه السهول التى قل نبتها وزرعها ، ولو كان فيها خيرٌ ما تركها البيض للسود .

زنجية هذه الأدغال والأحراج ، يسكنها وحش زنجى ، وطير زنجى ، وأقوام من الزنج . . .

زنجية هذه الجبال الجرداء ، التى تبدو فى الأفق الشرقى ، ومن فوقها تطل على القوم كل صباح شمس زنجية السحنة ، والملامح ، والتقاطيع !

كل شىء زنجى فى زنجى !

فلمن هاتان العينان كأنهما قطعتان من الفيروز ، ولمن ذلك الشعر الذهبي الملتهب ، تتخلله قطع من الفضة الفاترة الشاحبة ؟

أما الوجه الأبيض ، الناصع البياض ، فقد لوحته شمس إفريقية لا ترحم ، وأكسبته سمرة كالحة غريبة نابية ، لا تزين المحيا ، ولا يروق العين منظرها .

وأما الجبين والخدود فقد حفر فيهما الدهر سطوراً طويلة عميقة . . . وقد أخذ الشعر ينبت و يطول على بشرة لم تألف أن ينبت عليها الشعر و يطول . . .

فما لهذا الشمالى قد انحدر إلى هذه البيئة الإفريقية الجنوبية ؟ هل أراد أن يستبدل بالأهل أهلاً و بالدار داراً

إن الثياب التى تكسو الجسد الناحل الهزيل أوربية الشكل والطراز ، لكن كيف أضحت رثة بالية بهذا القدر ؟ هل أبلاها تقادم العهد أم تراكم الأقذار ، أم البعد عن الديار التى ألفتها والعناية التى عُوّدتها ؟

وهذا الكوخ الصغير الذى لايختلف فى شىء عن أكواخ (الزولو) ، بل هو دون الكثير من أكواخ الزّنج جمالاً ورواء وتنسيقاً ، وفى داخله هـذا الحصير الخشن والعشب اليابس والأوانى الزنجية البسيطة الشكل الملقاة فى زواياه ! . . . أبهذا يستعاض عن المنزل الأوربى الفخم ، وعن الأثاث والأوانى التى تعد كل قطعة منها تحفة فنية بديعة ؟

وهـذه الزوجة السوداء التى جلست إلى جانب الكوخ مطرقة كئيبة ، تلاطف طفلا خلاسيا حزينا كئيباً ، تلاعبه وما بها من لعب ، وتضاحكه وما بقلبها ذرة من الضحك . . .

هذه السوداء لم تخل من حسن زنجى جذاب لولا أن معالمه قد درست وآثاره قد عفت ...

أبهذه الزنجية يستعاض عن بنات الشمال اللواتى يبدون فى مثل إشراق البدر ونضرة الزهر ؟

ما الذى هوى بهذا الشقى التعس إلى هـذا العيش الزنجى الدنىء ، ولقد جاء أجداده هذه البلاد الإفريقية الجنوبية غزاة فاتحين ونزلوها سادة كراماً واتخذوا من أهلها رقيقاً وعبيدا ؟

ما لمثل هـذا العيش جشّم أولئك القوم أنفسهم كل ذلك العناء . إنهم نزلوا أفريقية لـكى يسكنوا القصور و يركبوا الأعناق ويمرحوا فى السـعادة وينغمسوا فى النعيم و يشربوا كؤوس الترف مترعة سائغة ؛ من أجل هذا هجروا الوطن ، ولهذا ركبوا ظهر الموج واقتحموا الشدائد وخاضوا غمار حروب سهلة هينة ، انتهت بإذلال السـود واستعبادهم ، وتسخيرهم لخدمة البيض ولإسعادهم ، ومن أبى منهم حياة السخرة والرق أقصى إقصاء ، واضطر لأن يعيش فى أرض قليلة المـاء فقيرة الزرع ، مما عافته نفوس البيض ولم يرغبوا فيه .

فلماذا غادر « ادمند » منازل السادة البيض ، على ما بهـا

من ترف ونعيم ، وآثر عليها مواطن الزنج على ما بها من شدة وشقاء !

ليس من شك فى أن صاحبنا « إدمند » لم ينزل دار الشقاء راضياً مختارا . إنه كان عالما بما فيها من خشونة لم يألفها ، وبما فى نزولها من إذلال للنفس العزيزة وإرغام للأنف الكريم ؛ وقد نزلها كارهاً مكرهاً حين تقطعت به أسباب الرزق ، وفقد المورد الذى كان يدر عليه الخير ويوفر عليه النعمة ، فإن هـذه البلاد التى امتلأت ذهباً وماساً وجوهراً ، قد كثر قاصدوها ونازلوها ، وتألبت عليها جماهير الطامعين فى فضتها ونضارها ، واشتد بينهم التناحر ، وأخذ كل يحاول أن يستأثر بالخير وأن يصد عنه أخاه ، على نحو ما ألفه البيض فى أوطانهم وديارهم ، فجعلوا يتدافعون بالأيدى والأرجل ، وبالصدور والأكتاف ، حتى انتهى فريق إلى الفوز والنصر الباهر ، وفريق ناله من الفوز نصيب يسير . . . وهنالك فريق دفعته الأيدى وداسته الأرجل ، وألفى نفسه فجأة وقد تقدمه الناس جميعاً ، وغادروه وليس له سوى الحرمان نصيب .

وأصبح « إدمند » يوما فإذا الفقر يسعى إليه ، ولم يكن يعرف الفقر ، ورأى الشقاء يتهدده وما لمثله خلق الشقاء ،

إنما جعل الشقاء لأولئك الزنوج ذوى الأنفس الذليلة والبشرة السوداء ، ذوى الأنف الأفطس والشعر المفلفل ، الذين كتب عليهم أن يشقوا ليسعد البيض وأن يعيشوا عيش الكفاف لكى يحيا البيض حياة النعيم والترف ، ذلك أنهم من سلالة تعسة بائسة ومن جنس واضع ذليل ، فكيف جاز للشقاء اليوم أن يحدّق فى وجه رجل من البيض ؟ كلا إن هذه سحابة صيف ، وهذه الشدة لن تلبث حتى تنفرج ، وهذه الصعاب لن تبرح حتى تهون ، ولديه قليل من المال المدخر ، فلينفق منه شهراً أو بعض شهر حتى تنفتح أمامه أبواب الرزق ، ويبسم له الحظ مرة أخرى .

ومن ذا يلوم « إدمند » على التعلل بالأمل وعلى حسن ظنه بالأيام ؟ أليس من أمثال قومه السائرة قولهم : « لا يزال المرء عائشاً فى الأمل حتى يموت فى اليأس ؟ » فلا جناح عليه إذا طار به طائر الرجاء محلقاً فى السماء ، والجسد ثاوٍ على أديم الثرى .

لكن ثغر الزمان أبى أن يبتسم لادمند ، وظلت أبواب الرزق موصدة وطرقه منسدّة ، وأخذ المدخر من ماله يتناقص على مر الأيام ، فماذا عساه يفعل يوم يغدو وليس بيده شىء من المال ؟ لا بد له أن يبادر فيحتال للأمر قبل أن يداهمه الفقر

المدقع ؛ إنه يستطيع من غير شك أن يستبقى هذا المال القليل زمناً طويلاً ، لو أنه عاش عيشاً متواضعاً ، مجتزئاً بالقليل عن الكثير وباليسير عن الجليل وبالتقشف عن الترف وبالخشن الجاف عن الناعم الطرى ، وهذه الحال لن تدوم إلا ريثما تفتح أمامه أبواب العمل الذى يليق به . وهذه — لعمرك — إن بقيت موصدة زمناً فإن هذا الزمن لن يطول ، ولن تمضى أشهر قلائل حتى تصافحه السعادة مرة أخرى .

فلن يضيره اليوم أن يتخذ لنفسه مسكناً صغيراً وأن يعيش فيه عيش القناعة والرضى ، بل لن يضيره اليوم أن يتخذ لنفسه كوخا كأكواخ الزنج وفراشاً كفراشهم ، ويعيش فيه كما يعيشون .

أجل وليس فى هذا ذلة أو ضعة ، فانه لن تكون له بهم صلة سوى صلة البيع والشراء ، وسيزدريهم وينبذهم كما كان من قبل يزدريهم وينبذهم ، ولئن كان فى رؤيتهم كل ساعة غضاضة على نفسه ، فسيهوّن عليه هذا رؤيته للبيض كل يوم ، حين يقصدهم باحثاً عن عمل ومرتزق ، وفى هذا ما يذكّره — إن كان فى حاجة إلى مذكر — بأنه ما برح من البيض ومن جنس السادة الفاتحين .

وضحك كثيراً — وكان بعد قادراً على الضحك — حين خطر له أنه سيغدو يوماً فى حاجة إلى ما يذكره بأنه من البيض ، ونظر بارتياح إلى مرآة أمامه متأملاً شعره العسجدى وعينيه الزرقاوين وبشرته الناصعة البياض . . . كلا إن عيشة الزنج و بيئة الزنج عاجزتان عن تغيير هذه الملامح وتبديل هذا اللون ، ولن تجعلا منه زنجيا …

* * *

لقد كان « إدمند » يحسب أنه لا يلبث أن يجاور الزنج حتى يهرعوا إليه رجالاً ونساء ، وحتى يضايقوه بازدحامهم حول بابه وتهافتهم على خدمته وتنافسهم لاكتساب رضائه ، وكيف لا وقد تواضع فهجر منازل البيض وقصورهم ، ونزل مواطن الزنج وسكن أكواخهم … وأنى لهم — وهم ذلك الجنس المزدرَى — أن يظفروا برجل من البيض يعيش عيشهم و يقيم فى جوارهم ؟ فليس بعجيب أن تتدافع جموعهم نحو كوخه الصغير لتتفانى فى خدمته وطاعته ، فكيف يتقى هذا الفضول الذى يضجره و يؤلمه وما به حاجة إلا لليسير من خدمتهم و إخلاصهم ؟

بهذا كان « إدمند » يحدث نفسه ، وكان يحسب ألف حساب لذلك اليوم العصيب ، يوم تزدحم وفود الزنج ببابه فيضيق

بهم ذرعا؛ ولا يعرف كيف يقصيهم عن خدمته و يذودهم عن داره

ولكن يا عجبا لهؤلاء القوم السود ! ها هو ذا قد جاورهم ونزل ديارهم وأخذ يعيش عيشهم ، فلم يُقبل عليه أحد منهم ، وصدف عنه القوم جميعهم نساؤهم ورجالهم وصغارهم — وكأن ليس نزول أبيض بين الزنج بالحادث الخطير ، وكأن ليس فى أن يعيش رجل من البيض عيش الزنج ، قانعاً بكوخ زنجى وفراش زنجى وطعام زنجى ، وبالزنوج جيراناً و بوطنهم وطناً . . كأن ليس فى هذا كله ما يبعث اهتمامهم و يثير دهشتهم .

كلا ! إنهم رأوه من غير شك ، وراقبوه عن بعد ، وعلموا من خطبه كل ما يهمهم علمه ، ولقد رأوا أمثاله من قبل ممن نبذهم البيض وعجزوا أن يعيشوا عيش السادة ، فجاءوا ليعيشوا عيش العبيد ، ما هؤلاء بالذين يحفل بهم (الزولو) و يظهرون لهم مودة أو يرعون لهم حرمة ، ما هؤلاء بالسادة ولا أشباه السادة ، فيقصدهم الناس و يقبلوا عليهم مرحبين ومسلمين ، وما هم زنوج مثلهم جاءوا ليباشروهم معاشرة النظير للنظير والصديق للصديق ! إنما ساقتهم الحاجة ودفعتهم المتربة ، فليس هؤلاء ممن يقام له وزن وليس لمثلهم إلا أن يُهجروا و إلا أن يتركوا لأنفسهم .

على أن « إدمند » و إن أدهشه إعراض الزنج عنه ،

لم ير فى هـذا أول الأمر بأساً كبيراً ، ألم يكن قصارى مناه ألا يضايقه السود بجفاوتهم وخدمتهم ؟ حقيقة إنه كان يود أن يكون هو البادئ بالهجر ، وكان يتوهم أنه سيضطر لأن يأمرهم — فى غطرسـة البيض وكبريائهم — أن يتركوه وشأنه ، وألا يحرجوا صدره بفضولهم ، وكانت مثل هذه الحال أجدر به من أن يتركه الزنج من تلقـاء أنفسهم دون أن يعبأوا به أو يكترثوا له . . . كان فى هذا له بعض الألم ، غير أنه رغم هذا كان راضياً — أول الأمر — بعزلته ووحدته مسـتريحاً إلى حياته الجديدة التى لا تكاد تكلفه من النفقات إلا الشىء اليسير

وجعل يختلف إلى المدينة كل يوم وفى صدره زهرة الأمل يانعة ناضرة ، ثم يعود آخر النهار وقد ذبلت أوراقها وذهبت بهجتها ، وتمضى الأسابيع والشهور وأبواب الرزق ما برحت مغلقة . وتأبى عليه كبرياؤه زمناً أن يمارس الدنىء من الأعمال ولـكن مر الشهور أخذ يأكل ماله المدخر حتى أتى عليه ، ودفعه سائق الحاجة الملح إلى قبول موارد للـكسب الزهيد ما كان يظن أن يرد مثلها سوى الزنوج .

ويعيش « إدمند » فى عزلته تلك ، يقضى النهار باحثاً عن مرتزق يسد منه الرمق ، ويقضى الليل فى كوخه الصغير ، ولـكن

الليل فى تلك الديار الزنجية ليس مما يرتاح إليه من يعيش فى عزلة وانفراد ، فهو ليل حالك مظلم ووحدته هائلة مرعبة ، وليس به مصابيح تنار ولا أناس يلهون ولا أصوات تأنس لها النفس . ولئن كان الزنج يأنسون بعضهم ببعض ويخفف من وحشتهم اجتماع بعضهم ببعض ، فإنه لم يكن له من يأنس به ويذهب بوحشته ، والليل حالك الجلباب يبعث فى قلب المنفرد رهبة ورعبا . وهذه حال إن أطاقتها النفس أشهراً فإنها لن تطيقها على طول المدى ، ولا بد له من أن يلتمس لها علاجاً .

ترى هل يَضِيرُه أن يتَّخِذَ لنفسه زوجةً من بنات الزَّنج تؤنسه ؟

وتثور فى صدر « إدمُنْد » عاصفة عنيفة مخيفة حين يخطر له هـذا الخاطر ... عاصفة قد امتزج فيها الغضب والاحتقار والكراهية والمقت ، ويوشك أن يضرب رأسه بالصخر جزاء له على أن فكر ذلك التفكير أو خطر له مثل ذلك الوهم ... لكن هذا الخاطر لا يتركه ، بل يلح عليه إلحاحاً . ويملك عليه مذاهبه وكلما اشتد فى ذوده عنه اشتد فى الإلمام به ، حتى لم يعد قادراً على الخلاص منه .

ولا يمضى زمن طويل حتى ينقلب ذلك الغضب إلى حزن

واكتئاب ، وذلك الاحتقار والمقت إلى استكانة واستسلام .
وتشرق الشمس ذات يوم فإذا هو قد اتخذ لنفسه زوجة من بنات الزنج لكى تؤنس وحشته وتخفف آلام وحدته . لم يُقبل على زواجه هذا فى غبطة وسرور وانشراح صدر كما يفعل المعرسون فى العالم كله ، بل سار إليه فى كآبة وألم كأنما يساق إليه سوقا أو كأنما يتردّى فى هوة لا يجد عنها مصرِفاً .

***

وفى صدره بقية من الرحمة تمنعه من أن يشتد فى القسوة على زوجه وعلى الغلام الصغير الذى لم تلبث أن ولدته له ، لكنه لم يجد فى قلبه ذلك العطف الذى يحسه الوالد نحو ولده . وكيف يستطيع أن يعطف على هذا الشىء الأسود الصغير الذى يحبو حول كوخه ؟ أهذا الذى سيخلد ذكره ؟ أو يكون له قرة عين ؟ وما هو إلا مذكر له بالهوة السحيقة التى هوى إليها والدرك الأسفل من الشقاء الذى انحدر إليه .

فيا عجبا ! كيف يستطيع أن يطيق هذه الحياة ويرتضى هذا العيش ؟ ولماذا لا يقضى على هذا كله بعد أن طحنه الكمد وأخنى عليه اليأس ؟ لماذا لا يقطع حبل هذه الحياة التى كلها ألم مبرح وعذاب مهلك ؟

مسكين إدمند ! لقد حطمت نفسه الأحداث ، وداست همته قدم الدهر حتى لم تعد فى قلبه ذرة من النخوة تساعده على قطع ذلك الحبل والقضاء على ذلك العيش . لقد سعى إلى النهر غير مرة وجلس على حافة الجسر مطرقاً متردداً . . . يفتش فى صدره عن بقية من الهمة لتحمله إلى قرارة ذلك النهر فيستريح ويريح ، لكنه كان يعود فى كل مرة مطأطئ الرأس ذليل النفس قد لبس كآبة فوق كآبة وكمداً على كمد ، ثم لم يلبث أن أقلع حتى عن تلك المحاولات الطائشة وراض النفس على القناعة بالموت الآجل حين أعوزه الموت العاجل .

ولم يزل فى كل يوم يغدو إلى المدينة ليعمل فيها عملا تافهاً يتقاضى عنه أجراً تافهاً ثم يعود مع المساء إلى كوخه الحقير وعذابه الأليم ، وقد نبذه البيض لأنه أصبح أدنى إلى السود ، وازدراه السود لأنه شريد طريد ، ولم يبق ما يذكره بالماضى البعيد سوى تلك العيون الزرقاء كأنها قطع الفيروز ، والشعر الأصفر البراق كأنه أسلاك النضار .

لدى موقد النار !

لدى موقد النار !

إننى — يا صديقى ! — منذ تعلمت أن العرب كانت تفخر بنيرانها المشتعلة التى يراها السارى فى دجى الليل البهيم ، فيهتدى بسناها إلى حيث الدفء والنور والقِرى ، والكرم والمروءة ؛ وأنا أود أن لو كانت لى نار متواضعة ، أجلس إليها مع رفاقٍ متواضعين ، نقضى المساء فى سمر متواضع ، وعسى ألا يخلو الأمر من قليل من القِرى المتواضع أيضاً ...

واليوم قد تحقق لى بعض هذا الرجاء ، فقد أصبح لى بحمد الله موقد . وقد أخذت النار تشتعل فيه شيئاً فشيئا ؛ والدفء ينبعث منه قليلاً قليلا ؛ فتعال أيها الصديق نجلس معاً إلى هذا الموقد الدافئ ، ونُلْقِ فى حرارته وفى ناره بعض ما يصادفنا فى النهار من جفاء و برود ، ومن ثلج وجليد .

أَجَلْ ؛ ولا تَخْشَ يوماً أن تخمد فى موقدى النار ؛ أو أن يقل اشتعالها والتهابها ؛ فإن لها ذخيرة عظيمة ؛ أَوَّلها عندى ، وآخرها إن شاء الله عندك . ذخيرة لا يمكن أن تنفد ، و يستحيل أن تنقص ، لأنها دائبة فى الازدياد فى كل حين ، وتترا كم فى

كل لحظة ... ذخيرة كنا لا ندرى ماذا نفعل بها ؛ وقد أعيتنا فيها الحيلة ، وضاقت بنا وبها السبل ، وسيخلصنا منها هذا الموقد العظيم ... فلكم من صحف ومقالات كانت تترامى على وعليك ، فنضيق بها ذرعا ، ولا ندرى ماذا نصنع بها ، وقد تكدست فوقنا ومن حولنا ، حتى أوشكت أن تقبرنا . فاهنأ اليوم يا صديق ! فقد وجدنا لها سبيلا يليق بها وتليق به . وسنبعث بها برفق فى ذلك الطريق . وأعِدُك أننا لن نذرف عليها دمعاً ، أو نصعِّد خلفها زفرات .

لعمرى — ولعمرك أنت أيها الصديق — إن للنار لمعدةً عبقرية هائلة ، لا تشكو ألما ، ولا تخشى مغصا . فالمقال الحقير أو القصيدة التافهة ، التى كانت تورثنى وإياك الصداع والألم ، والهموم والسقم ؛ وتصرفنا عن الطعام والشراب يوماً وليلة ، هى عنـد هذه النار لا شىء . أو أيسر من لا شىء . فهى تفتح لها فماً عظيما ، وتلتهم كل قصيدة « عصماء ! » مهما كان فى قوافيها من الركاكة ، ومهما كان فى وزنها من الاضطراب .

تباركتَ اللهمَّ !

أيُدهشك الآن يا صديقى — وأنت ترى ما للنار من قدرة عجيبة — أن الله تعالت حكمته قد جعلها مثوًى لكل عُتُلٍّ

كريه ذميم لئيم ؟ إن النار هى الشىء الوحيد الذى يستطيع — من غير اكتراث — أن يضم إلى صدره بعض هذه المخلوقات ، التى تقذى بها العيون ، دون أن يناله من جراء ذلك سأمٌ أو سَقَم . . .

فاطمئن إذن أيها الأخ العزيز ، فإن نارى المتواضعة لن تشكو جوعاً ولا فقراً ، وعندنا لها كل هذه الذخيرة العظيمة ، التى لا تزداد على مر الأيام إلا عِظماً وضخامة . ولقد غذّيتها بالأمس غذاء طريفاً ، تَفَنَّنْتُ فى اختياره واقتطافه ؛ فكان أكلة من أشهى الأكلات .

بادرت ، أول الأمر ، فناولتها — بمثابة فاتح للشهية — ديواناً من الشعر المرسل ، قد اصطكت قوافيه بعضها فى بعض ، كما تصطك رُكب العجوز فى ليلة من ليالى أمشير ، وقد أمسكت كل قافية بتلابيب الأخرى ، وناهيك بما كان بينهما من تدافع وتنافر ؛ طالما صدَّعَنِى و إياك ، وأعيانى وأعياك .

فغَرَتِ النار لالتهام هـذا الديوان فماً عظيما واسعاً ، كأنه فم صديقنا المفوَّه (محمود) الذى يمتد من أذنه اليمنى إلى أذنه اليسرى ، ولم يكد يستقر فى جوفها ، حتى أخذت تندفع من وسط النار ألسنةٌ عديدة ، مختلفة فى الطول وفى العرض ،

وفى السمو والضعة ، مختلفة فى أشكالها وفى ألوانها ، وفى حركاتها وسكناتها ... ومن كل لسان صوت مُنكر غريب ؛ وليس بين الأصوات انسجام ولا انتظام ، ولا اتفاق ولا اتّساق !

فسبحان الله القدير على ما يشاء !

إن المولى الذى خلق الفكر الذى يخرج ذلك الديوان ، قد خلق هذه النار لالتهامه ، فانظر ياصديقى إلى حكمة الله كيف غفلنا عنه طوال هذه السنين ، فشقينا بهذه الأشعار ، وبَرِمْنَا بها ؛ مع أن الأمر هين لين ؛ وسبيل الخلاص سهل لو أننا توخيناه وسلكناه . . . لماذا كنا جميعاً من الغفلة بحيث لم ندرك أن بعض الكتب للقراءة ، والبعض للموقد الدافئ ؟

* * *

ثم فتحتْ النار فاها العظيم — بعد أن أثار الديوان شهوتها للطعام — فناولتها الصنف الثانى ، وهو « مجموعة من البلاغات الرسمية عن الحرب العمومية » التى تعب أخونا حسن فى ترجمتها عن لسان الإنكليز . ونحن نفهم أن يتعب المرء نفسه فى ترجمة الصادق من الحديث ؛ أما أن نعنى بترجمة الأكاذيب ، وأمَّا أن نجمعها فى أسفار ، وأن نخرجها للناس ، ونحتال عليهم حتى يشتروها ، ويطالعوها ، فذلك مالا يقول به من فى قلبه ذرة من الرحمة للنوع البشرى .

ولا تسل يا صديقى كيف التهمت النار تلك (المجموعة) .
فإن لنارنا هذه مقدرة عجيبة على ابتلاع الأكاذيب والخرافات .

أتدرى كيف احترقت تلك البلاغات الرسميـة ، لهيبٌ واحدٌ هائل ، ارتفع فجأة وأمعن فى الارتفاع ، وأسرف فى الاشتعال والاضطرام ؛ ثم لم يلبث أن خبا وانمحى ؛ وكأن لم يكن شىء . . .

ونظرتُ فإذا بنارى قد فغرت فمها الواسـع تقول : هل من مزيد ؟

* * *

فى هذه المرة أخذ التردد يتلاعب بنفسى ؛ فلقد أردتُ أن ألقىَ فى النار بشىء ظل عزيزاً عليها زمناً طويلاً ، شىء كنت أحسب أن فى الاحتفاظ به فائدة ؛ ثم أصبحت وقد ضاق به صدرى ، ووَدِدْت أن أتخلص منه : ذلك الشىء الذى سبب لى كل هـذا الحرج هو مسوّدات كُتُبى . . . ما بالى قد أبقيت على هذه المسودات ، وأَحَطْتها بألوان العناية ، فجعلت من حولها أوراقاً تصونها ، وتقيها عدوان الحشرات والديدان ، وأحكمت لفّها وربطها ، وأودعتها من الخزانة فى مكان أمين وحرز حريز ! مالى فعلت بها هذا كله ؛ وبماذا استحقت منى كل هـذا الحفظ والصون ؟ ألأنها أسهرت طرفى وقرحت

جفنى ؛ وألبستنى الهموم فى كتابتها وفى نشرها ، ومن بعد كتابتها ونشرها ؟ . . أم لأنها جرائم قد ارتكبت ؛ ويجب أن تُستَرَ معالمها عن العيون ، وأن تخفى آثارها عن الأبصار ، ولهذا أودعت بطن الخزائن ؟ . . أم حرصت عليها لأن الوهم سوّل لى أن لها قيمة وشأناً وخطراً ، وأنها ذخر سيعتزّ به البنون والأحفاد ؟ . .

وهكذا لبثت تلك المسودات مودعة لدى ، تلقانى وألقاها ، كلما فتشت عن كتاب ، أو تناولت صحيفة .

لكنى بالأمس أهَبْت بما فى القلب من قوة ومن عزم ، وبما فى النفس من شجاعة وإقدام ، وحكمت على تلك الصحائف بأن تكون غذاء لموقدى الجديد . ولم أكن أشك فى أنه سيرتاح لالتهامها ؛ وأنها — أخيراً ، وبعد صبر طويل — سيسطع ضياؤها ، وينبعث منها الدفء والحرارة والنور ، بعد أن لبثت هذه السنين فى مكمنها المظلم البارد .

بيد أنى ، ولا أكذبك الخبر ؛ أحجمت بعد ما أقدمت ، وترددت بعد ما اعتزمت . وجعلت أسأل نفسى لعلى أخطأت فى الحكم ؛ ولعل هذه المسودات أن يكون لها شأن قد خفى عنى أمره اليوم . على أن هذا التردد — وأبيك — لم يطل ،

وتناولت تلك الحزمة بيد قد ملئت مَضاء وعزما . وألقيت بها فى الموقد إلقاء ، من غير مارحمة ولا إشفاق . . .

فلم تلبث ألسنة النيران أن اندلعت ، وأخذت تنبعث منها تارة أصوات خافتة حزينة ، ونغمات ملؤها الأسى والألم ، كأنها أنين سقيم أو جريح أو ذبيح . . . . وأحيانا كان لها اضطرام عنيف مخيف ، ولهيب لافح محرق ؛ وطوراً كان لهـا صوت كصوت المستسلم للقضاء : هادئ رزين كأنه خرير نهر أو هديل قمرى ، وتارة كانت النار تزأر ، ويتطاير شرارها ، كأن بها مسًّا من شيطان أو عفريت ، وهكذا ظلت تحترق زمنا غير قليل ، وهى تلبس فى كل لحظة لباسا ، وتبدى فى كل آونة وجها جديداً . .

وما كنت أحسب أنى واجد يوماً فى مسوداتى كل هـذه التسلية المنقطعة النظير ، فلقد عوضتنى هـذه اللحظات القلائل خيرا ولذة عما عانيته من أجلها شهوراً وسـنين ؛ ولست أدرى لم لا يفعل الـكتاب مثل ما فعلت ، إذن لوجدوا فى كتبهم لذة ومتاعا لم يخطرا لهم ببال ؛ فإن أعوزهم الموقد والنار ؛ فان موقدى لا شك مفسح لهم صدرا رحيبا ، وفاغر لاستقبالهم فما عظيما .

* * *

وها هو ذا لا يزال يلتمس المزيد . وها هى ذى المكدسات الثقال من صحائف وأسفار ، وقصائد أدبية ومقالات افتتاحية ،

تذهب شيئاً فشيئا ، وتستحيل هباء ودخانا . . .

ولو كنتَ حاضرنا يا صديقى حين ألقيت فى النار بمحاضر الجلسات ، لأبصرت منظرا عجيبا ، وسمعت نغما غريبا مريبا . فإن تلك (المحاضر) قد اشتعلت اشتعالا يهولك منظره ، ولكنه خال من كل دفء أو حرارة . تصاعدت منها أصوات عديدة منكرة متنافرة ، ليس لها نظام ولا انسجام ، فعجبت لها كيف تذكرنا — حتى وهى تحترق — بما كانت عليه تلك الجلسات من الفوضى والاضطراب والاختلال .

وعلى ذكر هـذه المحاضر ، ألا تستطيع أن تُفْهِمَنى كيف كانت جمعيتنا العزيزة حريصة كل الحرص على تسطير كل حرف ، وتسجيل كل لفظ ، خوفاً على دررنا الغوالى أن ينالها الدهر بالمحو والعبث . وضَنًّا بجواهر حكمنا أن تضيع على مدى الأجيال ؟ أجل وكأننا ضمِنَّا لها الخلود يوم دفعنا بها إلى المطابع فأخرجت لنا منها مئات من النسخ أودعناها الخزائن والرفاف ؛ فجعلت العثّة تمرح فيها وتجول ، والدود يخترق خطب رئيسنا المبجل اختراقا ؛ فيدخل فى أولها ويخرج من آخرها .

لـكم كانت خطب رئيسنا هـذه تسئمنا وتضنينا ؟ ولـكم حاولنا باللين تارة و بالشدة تارة أن نفهمه أن واجب الرئيس أن يرأس لا أن يخطب ، وأن ينظّم الحوار لا أن يحاور . فلم يكن

يكترث لما نقول لأنه كان مغرما بصوته ، مولعا بالإنصات إلى اهتزازات لسانه ، وفتحات فمه ، وصيحات بلعومه . يظن أنها تشتمل على حكمة الأولين و إبداع المتأخرين . . .

أتذكر تلك الليلة الليلاء التى قضيناها إلى قبيل الفجر نتجادل أشد الجدل ، وقد حمى وطيس الكلام ، وأخذ كل منا يصيح مدافعاً عن رأيه ؟ لم يتفق منا فى تلك الليلة اثنان على رأى واحد . وكنا جميعاً نتصايح فى آن واحد ونفس واحد ، وليس منا إلا من يهمه أن يقول ولا يهمه أن يسمع . . . . ولم ينته جدلنا إلا حين أرغمنا على السكوت حين بحت الأصوات ، وأتعبت الحناجر . وقد مضى من الليل أكثره ، ولم نقطع فى أمر من الأمور بشىء .

ولقد حار كاتبنا فى تلك الليلة ماذا يكتب وماذا يترك ! وأنّى له أن يسطر هذه الصيحات ، التى كانت تنبعث من كل ناحيــة فى آن واحد ، وليس للمسكين سوى يد واحدة وعقل واحد ؟ غير أن الأعضاء — حفظهم الله — أدركوا أن آراءهم السديدة قد لا تلقى من الكاتب ما تستحق من العناية ؟ فغدا عليه كل عضو فى اليوم التالى ، وأملى عليــه خطبة ذات طول وعرض واتساع وانفراج ، لكى تدرج فى المحضر ، وتطبع

وتوزع ؛ ليعلم نسلنا من بعدنا بما كان عليه آباؤهم من حصافة وكياسة ولباقة ، أجل ولقد حسبنا أننا ضمنا بهذا لتفاهتنا الخلود ، ولتُرّهاتنا أن تبقى على مدى الزمان . . . لا — وأبيك — إن التفاهة لفانية بائدة ، وإن حفرت حفراً فى الصخر الجلمد .

***

وبعد أرانى أطلت الحديث عن جلساتنا ، وما أردت إلا أن أتحدث إليك عن موقد النار ، فلا تنس أن تزورنى قريبا لنقضى معاً ليالى الشتاء فى سمر هادئ وادع ، وحديث صع برىء .

ولا تنس أن تحضر معك رزمة من رسائل الحب ؛ فإن عندك من هذه البضاعة الشىء الكثير ؛ وقد حدثنى من أثق بقوله ، أن ليس فى العالم شىء ، أزكى طعاما للموقد ، من رسالة غرام أملاها قلب مولع ، وجنان «ملتهب» ؛ خصوصاً إذا برّح به الشوق وتيمه الهجر . وقد قيل لى إن لمثل هذه الرسائل لهيبا بديعا ذا رواء وبهاء ، وإن الحرارة التى تنبعث منها غاية فى الدفء وفى الإنعاش .

فلا تبخل علينا ببعض رسائلك ؛ فأنت تعلم أن وِطابنا صِفْر من هذه البضاعة .

وإلى اللقاء القريب !

مناظرة بين بحر ونهر

مناظرة بين بحر ونهر :

أخذ النهر ينحدر من أعالى الجبال ، وهو يجمع ماءه من الجداول والعيون ، ومن الثلوج المتراكمة والبحيرات المنتشرة ، ثم لم يزل يهوِى من مُنْحَدَر إلى منحدر ، ومن جندل إلى جندل ، ومن واد إلى واد ، حتى وصل بعد سير طويل ، وجهد غير قليل ، إلى بحر عظيم فسيح ، فأخذ ينصب فيه انصبابا ، وينسكب فيه انسكابا .

ثم قال له بعد أن دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى : « أيها اليم الخضم المفعم ! نعمت صباحا ، ولقيت نجاحا ، ولا زلت ممتعاً بصحة وعافية ، وعيشتك ناعمة راضية .

« يا حبذا أنت أيها البحر ! لولا أن ماءك ملح أجاج ، وأنك دائماً فى غضب وهياج ، وارتعاد وارتجاج ؟ وأنك تكثر الزئير والصياح ، ثم لا تتحرك إلا إذا دفعتك الرياح ، أولست أنت يا نسل الأمجاد ، الذى قال فيك العقاد :

يا حبذا البحر فى عمق وفى سعة
لو كان من سكّر أو كان من عسل

فأمّا وأنت خال من السكر ومن العسـل ، فإنى لا أراك تنفع فى الدنيا ولا تشفع فى الأخرى ! » .

قال الراوى فلم يكد البحر يسمع هـذا المقال حتى استولى عليه الغضب ، وأخذ يرغى و يزبد ، وانبعثت من سطحه أمواج كالجبال . فاندفعت نحو النهر فصفعته ، ثم عادت فلطمته .

وقال للنهر : « و يل لك من لُكَع ، سيء الأدب لا تعرف لنفسك قدراً ، ولا تدرك مما فى الوجود أمراً ، ما أنت أيهـا المجرى الحقير الضئيل ، الذى له طول وليس له عرض ولا عمق ، والذى لو شئت لطمسته طمساً ، ومحوته من الوجود محواً ، لعمرى إنى لجدير بابتلاعك أنت والأنهار جميعاً ، لولا أنك وعصبتك أحقر من أن أ كترث لـكم ، أو أضيع وقتى فى جدالـكم » .

فقال النهر : « على رسلك أيهـا الشيخ ! وأخلق بك أن تهدئ من غلوائك ، وتخفض من كبريائك ، و إلا فمتى اختلت موازين الأمور ، فأصبح الفضل للضخامة والجسامة ؟

« ماذا يجدى حجمك العظيم وسطحك الطويل العريض ، وهذا ماؤك مالح ، ووجهك كالح ، وعملك غير صالح ، انظر إلى ! ما أعذب مائى السلسبيل ، وما أحسن خريره وقت الأصيل ،

وما أبدع مجراى من منظر جميل ، الناس جميعاً يغترفون من مناهلى ، فكم رويت ظمآن وأشبعت جوعان ! ومن ذا الذى يقرن الملوحة إلى العذوبة ، ويفضل المرارة على الحلاوة ، فاعترف إذن بقصورك وعجزك ، ودعنى من همزك ولمزك .

* * *

قال الراوى فعند ذلك زخر البحر وزمجر ، وعلا واستكبر ، ووضع رجلا على رجل ، وجعل يبرم شاربه بيساره ويشير مهدداً بيمينه . وقال للنهر : « يا وضيع النسب ، وقليل الأدب ، أما تعلم أنى أنا الذى أمدك بالماء ، إذ يتصاعد من سطحى البخار ، ثم تحمله الرياح سحاباً ، ثم تلقى به مطراً ، ثم يسيل جداول وأنهاراً حقيرة مثلك . فيالك من كافر بالمنة ، جاحد للنعمة . والله لئن منعت عنك الماء والمطر ، لجف أيها الشقى حلقك ، وشاه خَلْقك ، وانطمست معالمك ، وجفت مسايلك ، ولكنى لحسن حظك أنت وزمرتك رجل واسع الصدر ، لا أحفل بالصغار أمثالك ولا بالصغائر . فدعنى أيها الحقير فإنى عن جدال مثلك فى شغل » .

فأجابه النهر وهو يحاوره ، لكن فى شىء من السخرية والتهكم اللاذع على طريقة الجاحظ أو طه حسين وقال : « أجل

لعمرى ، إنك لفى شغل حقا ! فى شغل كثير عنى وعن أمثالى !
ولولا أننى أجرى فى أرض مصر وهى بلاد المضحكات ، وقد
ألفت رؤية المضحكات واستماعها حتى لم تعـد تضحكنى ،
لولا ذلك لقهقهت ضاحكاً حتى بدا لك ما بقاعى من الحصى
والرمال . . . أنت إذن فى شغل عنا أيها البحر ! عظيم جدا ،
ولـكن قل لى بأبيك — إن كان لك أب — ما هـذا الذى
يشغلك ؟ أهو شىء آخر سوى التخريب والتدمير ، والإغراق
والإزهاق ؟ تسليتك الكبرى أن تظفر بسفينة مسكينة فتسلط
عليها أمواجك ، ثم تتلاعب بها ذات اليمين والشمال ، و بعـد
أن تمعن فى تعذيب ركبها تأخذ فى ابتلاعهم والتهامهم . أَجَلْ ،
و إن بك لجوعاً لا يشفى ، وعطشاً إلى الدماء لا يروى ، وشرهاً
ونهماً ليس للضوارى مثلهما . و بطناً أعترف لك أنه واسع
فسيح ، ولـكنه ملآن بالسحت و بالمـال الحرام . فأى فخر لك
فى هذا لو أن بك من الفهم بقدر ما لك من الحجم ؟

« أمّا أنك المصدر الذى يمدنا معشر الأنهار بالمـاء ، فهذا
كلام قصير النظر الذى لا يرى أبعد من أنفه ، ولو أنك لبست
منظاراً ترى به الأمور على حقيقتها لأدركت أن الماء الذى
يتصاعد بخاراً ، ثم يصير سحاباً ، إنما تثيره الشمس بحرارتها ،

وترفعه إلى السماء رغم أنفك ، ولو كان الأمر إليك أنت ، لما ظفرنا منك بقطرة واحدة ، وعلى كل حال فإنا نرد إليك ماء جارياً لا بخاراً طائراً ، ولو أن ماء الأنهار على كثرته لا يكفى — ويا للأسف ! — لأن يكسبك حلاوة وعذوبة ، وستبقى مدى الدهر صاباً علقماً ، وملحاً أجاجا » .

* * *

هنالك لم يطق البحر صبراً على ما توهمه قحة وبذاءة من نهر حقير ضئيل . فأرسل مده على النهر فطمسه وأخفى معالمه إلى حين .

فياويل الضعفاء والمساكين من الأقوياء المستهترين !

* * *

قال الراوى : وكان مفتش من وزارة المعارف المصرية بالقرب من مكان الحوار ، فأعجبه ما سمع وأقسم ليجعلنه موضوعاً لإنشاء العربية فى امتحان الشهادة الابتدائية [1] .

---

(١) كتبت هـــذه المقالة فى الموضوع المقترح على طلبة الشهادة الابتدائية فى يونيو سنة ١٩٢٣ بناء على اقتراح الأســـتاذ الفاضل رئيس تحرير جريدة كوكب الشرق . وقد نشر بها فى ١٣ يونيو سنة ١٩٢٣ .

عبث القضاء

عبث القضاء :

— ١ —

أخذت « أميرة الهند » تخطو — فى رزانة وهدوء — فوق أمواج زرقاء ، تغشاها رغوة فضية ناصعة البياض . ولم تكن الأمواج ضخمة هائلة ، بل كان خليج عدن فى ذلك اليوم من تشرين الأول أدنى إلى الهدوء ، ولم يكن أحدٌ من ركاب الباخرة يحس دواراً أو يشكو نصبا من ذلك الاهتزاز الخفيف ، الذى قد يعترى « أميرة الهند » وهى تدنو ببطء من مرفأ عدن .

كان الوقت ضُحًى . . وقد أخذ كل راكب يلهو بالذى اختاره وارتضاه من ضروب اللهو والتسلية ؛ فمِن جالسٍ إلى مائدة البرِدْج ، يتسلى بما تأتى به أوراق الحظ من مفاجآت ومن ربح وخسارة ؛ ومن واقف بأفريز السفينة يحدق بمنظار فى مدينة عدن وما حولها من الكثبان ، ومنصرفٍ إلى رياضة يسيرة على سطح الباخرة ؛ من أقراص تُلقى على لوح أو حلقات يُرمى بها فوق شبكة ، أو بِنْج بُنج تترامى فيه الأُكر ، وتتدافع فيه المضارب ؛ ومن جالس أو مستلقٍ على كرسى طويل ،

يقلب صفحات قصة تافهة ، و يطالع سفراً من تلك الأسفار ، التى لولا السفر الطويل ما استساغها قارئ ؛ ومن جالس فى حانة الباخرة يعاطى بعض رفقائه كؤوسا من الوسكى ، على سبيل الاستعداد لتناول الغداء بعد ساعتين ؛ ومن سائر يتسلى بالمشى على غير قصد ولا مأرب ، و يتنقل من سطح إلى سطح ، و ينظر للمرة العاشرة بعد المائة فى الإعلانات والكتابات المختلفة الملصقة ببعض جدران الباخرة .

وهكذا أخذ كل راكب يلهو و يقتل الوقت ، على الطريقة التى تحلو له ، فى أثناء هذا السفر الطويل من غرب العالم إلى شرقه ...

وهنالك بالطبع أنواع أخرى من التسلية لم تدخل فيما ذكرناه . . وأنا أعلم ماذا يجول فى صدرك الآن — أيها الخبيث — إنك تريد أن تسألنى عن العشاق ما خطبهم ، وما بالنا لم نذكر عنهم خبرا ، ولم نتناولهم بالوصف ! هل هذا إكبار لشأنهم ، أو خوف من شرهم ؟ . . وليس من اللازم أن يكون بكل باخرة عشاق ، مهما توهم الخيال المحموم خلاف ذلك . لكن « أميرة الهند » لم تكن تخلو من العاشقين والمعشوقين ، ولو أنها خلت منهم ، لما كان هنالك سبب لأن تكتب القصة التى أسوقها إليك اليوم ، والتى ألتمس منك أن تتلوها بنفس

هادئة ، وقلب خالٍ من كل عنف وقسوة .

الحقيقة أن « أميرة الهند » كان حظها من العشاق فى هذه المرة أكثر مما تصيبه السفن عادة ؛ وقد بلغوا من كثرة العدد والتنوع فى الطراز ، أن باتوا حديث الباخرة ، وضرباً من ضروب التسلية بها ، حتى جرى الحديث بشأنهم فى مطبخ السفينة ؛ وكان كبير الطهاة رجلاً فرنسيا يحب المداعبة ، فأعد للركاب فى إحدى الليالى على سبيل العبث البرىء قائمة للطعام تناسب المقام : أولها حساء جولييت بتربية روميو ؛ وسمك الهجران بمايونيز العتاب ؛ وخروف من ضحايا الغرام ؛ وأكباد وقلوب مفتتة ومشوية بلظى الحب ؛ ودجاجة المجنون بصلصة الهوى العذرى ؛ وبامية محمرة فى لهيب الشوق ؛ وفى الختام كنافة العروس بخشاف شهر العسل . . .

وكان أكثر ركاب الباخرة من الانكليز الذين يستهويهم أمثال هـذه الدعابات ، وإن لم يمارسوها ؛ وقد طربوا لمطالعة هذه القائمة ، ودام طربهم طويلاً . . . ومع أن كثيراً من الخدود احمر خجلاً واكتسى ورداً فوق ورد ، فإن وجهاً واحداً احمر غضباً وهو وجه ربان السفينة . . . فإنه لم يكد يطالع القائمة حتى أرسل فى استدعاء رئيس الطهاة فوراً . . .

ولم يكد هذا يدخل حجرة الطعام حتى استقبلته عاصفة من التصفيق الحاد ، الذى زاد حدة على سكاكين المطبخ ، وزاد حرارة على ما بالمطبخ من فلفل وبهار . . . وصاح كثير من الركاب : « مرحى أيها الطاهى العظيم ! »

عند ذلك هدأ ثائر الربان واكتفى بأن قال له : « أردت أن أذكرك بأن تلتمس الإذن من الربان ، قبل تقديم مثل هذا الطعام ، وكتابة مثل هـذه القائمة ، فإنها قد لا تتفق مع حالة الأنواء وتقلبات الجو ، أفهمت ؟ »

قال : « فهمت يا مولاى ! » قال الربان : « فإلى اللقاء إذن ! »

وخرج الطاهى الأعظم وسط التصفيق الحاد والضحك العالى . . .

* * *

أجل ، لقد كان فى « أميرة الهند » عشاق ، وكان للحب فى الباخرة مظاهر شتى كشأنه فى كل مكان . وكان الغالب فيه أن يتخذ إحدى صورتين : الأولى ذلك الحب اللطيف الذى يقف بالعشاق طويلاً بافريز السفينة يتحدثون فى كل أمر مهما كان تافها ، ويتناولون البعيد والقريب من الموضوعات ؛

حتى إذا أرادوا تغييراً فى الحديث ، انصرفوا إلى سطح الباخرة يتلَهَّوْن بشيء من الرياضة : بكرة يتدافعونها ، أو حلقة يتداولونها حتى يُؤذِّنَ مؤذنٌ بأن قد دنا وقت الغذاء ؛ فينطلق كل منهم إلى غرفته ليصلح من شأنه . ويعدل من مظهره .

وكان مَن بالباخرة ينظرون إلى هذا الضرب من العشق نظرة الرضى ؛ ويغضّون من أبصارهم ، حين يرونه جالساً على سطح السفينة ، حين يظلم الليل ، ويرسل القمر أشعته على صفحات الموج ، ويتحول الحديث إلى همس ، والهمس إلى مناجاة ؛ ولم يزد الحب بهذا كله إلا براءة وطهرا ...

أما الصورة الأخرى فأقل براءة من الأولى ؛ يتخذ فيها الحب شكلا أدنى إلى الريب ، وأبعد عن الصفاء ، فتراه ينفر من العلانية ، ويبغض النور ، ويؤثر الانزواء فى الغُرَف ، وفى الأركان المظلمة ؛ بدلا من سطح الباخرة وأفنيتها ، وملاعبها وقاعاتها ... ولقد يجيء الخادم ضُحىً يريد أن يصلح الغرفة ، فيلقاه ذلك الحب بالقحة والعبوس ، ويأمره بأن يرجع أدراجه ويعود بعد ساعة .

* * *

وهكذا أخذت أميرة الهند بركبها العجيب تخطر فوق

موج من الفيروز وهى تدنو من مرفأ عدن ؛ ثم تريثت قليلا حين اقتربت من باب المرفأ ، واندفعت من بوقها صيحات تنذر أهل الثغر باقترابها ... فما لبثت أن لبى نداءها زورق صغير ، عليه قائد البوغاز ، وهو الخبير الذى يعرف مسالك المرفأ وأسرار أعماقه ، وإليه تلقى السفينة مقاليدها عند باب المرفأ ، وعليه أن يقودها برفق وإشفاق ، حتى يدخلها إلى مستقرها ومرساها

ولم يلبث الزورق الصغير أن وقف إلى جانب السفينة العظيمة كما يقف الطفل الصغير إلى جانب المارد الجبار ، وأدلى له السلم ليصعد ؛ ومن العجيب أنه لم يصعد وحده ، بل صعد معه فتى هندى ، مليح الصورة يحمل باقة هائلة من الورد الجنّى الشديد الاحمرار !

ما خطب هذا الهندى الشاب ، ذى القوام النحيل ، والخطى المتزنة الهادئة ؟ إنه من غير شك يتكلف الهدوء ، لأن يديه ترتجفان قليلا ... ألعله راكب من عدن يبغى العودة إلى وطنه ؟ فماذا دعاه إلى المبادرة بالركوب ، قبل أن ترسو الباخرة ؟ وهذه الباقة العظيمة من الورد الجنى أهدية قدمها مُوَدِّع ، أم تحفة يريد تقديمها إلى الربان أو إلى بعض الوجهاء من ركاب السفينة ؟ ...

إن لهذا الفتى لشأناً ، وإلا فما بال ضابط السفينة لم يسأله عن أمره ، بل اكتفى بأن ابتسم له مُحَيِّيا ؟

أسئلة عديدة أخذت تخطر بأذهان ذلك العدد القليل من الركاب ، الذي لم يكن له ما يشغله ؛ ذلك الفريق الذي لم يكن يلهو بمطالعة أو بلعب ، أو غزل أو شراب أو قمار . . . ذلك الفريق المتسكع الذي كان يقضى معظم الوقت ، متنقلا بين مناكب السفينة ، مستطلعاً مستخبراً ، يضع أنفه هنا وهناك ، فى كل ركن وفى كل حجر !

وقد أخذ هذا الفريق يتساءل و يمعن فى السؤال ، دون أن يجد إلى الجواب سبيلا ...

— ٢ —

ونحن أيضاً شأننا كشأن أولئك الركاب ، نريد أن نكشف الغطاء عن أمر هـذا الهندى ، ذى القوام الرشيق ، والعيون الواسعة السوداء . ولهذا نرجع بأنفسنا إلى الوراء قليلا إلى اليوم الأول من شهر تموز ؛ فنرى هذا الفتى نفسه « ميدار داز » واقفاً بمحطة فكتوريا فى مدينة لندن محتضناً شيخاً أسمر الوجه ، طويل القامة ، يقبل يديه فى لهف وشوق ، والشيخ يقبّل جبين الفتى ، وقد اغرورقت العيون بدموع الفرح .

كان هذا اللقاء السعيد بين الأب والابن ، بعد فراق دام خمس سنين ، قضاها الشاب مكبا على طلب العلم فى بلاد الانكليز .

ومنذ أيام قلائل أتم دراسة القانون ، وأخذ يتأهب للعودة إلى بلاده . وقد جاء والده الشيخ لكى يرى فتاه بعد هذا الفراق الطويل ، ويقضى معه أسابيع فى ربوع أوربا ، ثم يعودان معاً إلى الهند ...

وليس بى حاجة لأن أصف لك — يا صديق — فرح الوالد بنجاح وحيده ، وبما أثاره من الذكر الطيب ، والسمعة الحسنة بين رجال العلم من الانكليز ، وقد أخذ يمطر الهدايا على الأساتذة والمعلمين ، الذين كانت لهم صلة بنجله بإسراف شديد تجاوز كل حساب ، حتى أخجلهم ، واضطرهم لأن يسألوه برفق أن يقلل من هباته ، لأن الفضل فى نجاح ولده راجع إلى رجحان عقله ، وانصرافه إلى العلم ، وأن أكبر ما يسرهم ويشرح صدورهم أن يكون لهم طلاب مثل ميدار داز ، وأن تلك الهدايا وإن قدمت بنية خالصة ، قد تحمل على الظن بأن ابنه لم يكن يستحق كل هذا النجاح .

عند ذلك كف الوالد يده قليلاً ، واكتفى بأن أقام لهم

مأدبة فى فندق رِتس ، ظهر فيها الكرم المندى فى أجل وأفخم وأضخم مظاهره .

* * *

وانطلق الشيخ بعد ذلك ونجله إلى بلاد الاصطياف ، يتنقلان بين ربوعها ، متنعمين بما فيها من منظر بهيج وهواء نقى سليم ، حتى أسلمهما السير ، وقادهما القضاء إلى مدينة دوفيل ! بلغاها فى اليوم الأول من شهر آب ، وقد أخذت تموج بأنواع المصطافين ، الذين توافدوا عليها من مختلف الأقطار والبلدان ، حتى كان كل فندق من فنادقها الفخمة كبرج بابل ؛ ضم من الأمم أصنافاً وأشكالاً وألواناً .

ودوفيل هذه — إن كنت تجهلها — هى إنسان عين العصر والحب ، واللهو والقمار ، تبوأت مقعدها على ساحل المانش . . . ولم تكد أن تغتسل حتى أحدقت بها غابات من الصنوبر والسنديان تظللها وتحميها ، وأكب البحر المحيط على أقدامها يقبلها ، ويدفع أمواجه نحو ساحلها الرملى برفق وخضوع ، لا يرجو سوى رضاها ، ولا يلتمس غير خدمتها . . . ونهضت فيها القصور والفنادق شامخة بأنفها ، فخورة بأن يكون مقرها هذا البلد المجيد ، الذى ليس له فى الدهر ضريب .

وغَتْ لدوفيل قوة جاذبة هائلة ، أصبحت جاذبية الأجرام السماوية إلى جانبها كعبث الوليد ؛ فما من كائن إلا تراه مندفعاً منجذباً ، يضحّى بكل غال وثمين لـكى يدنو ولو بضع خطوات من دوفيل .

فهل عجيب بعد هذا أن ترى فيها هـذا المزيج العظيم من الشعوب ، وذلك الخليط المدهش من الأجناس والألوان ، وهى ذلك الهيكل المقدس ، الذى لا بد لطالب السعادة والحظ أن يقصده و يؤمه ، مهما بعدت الدار ، وشط المزار ؟ وهل من العجيب بعد هـذا كله أن قلب ميدار لم يتفتح للحب إلا فى وسط هذا السحر الساحر ، وهذا الجذب الذى لا يقاوم ؟ أكنت تريد منه أن يُجن غراماً وهو مكب على أسفار الحقوق ، كما أكبت أسفار الحقوق عليه ، وأمسكت بتلابيبه ، وأحاطت به من كل جانب ، حين كانت الحياة عبارة عن مجلد فوق مجلد ، وامتحان وراء امتحان ؟ أم كنت تريد منه أن يجن هياماً وسط مدينة مثل لندن غارقة وسط الضباب والدخان والبرد والضوضاء ؟ لقد كانت الأعوام هناك أيام جد وعمل ودراسة ، والآن فى وسط هواء الصيف الخالب ، ونسيم دوفيل الشاغف ، تفتحت الوردة الأبدية فى ذلك القلب البرىء ، وأطل على هذه

الروح الطاهرة نور جديد ، ليس لها عهد بنور مثله .

لم تمض على إقامة ميـدار بدوفيل أيام ، حتى تعرف إلى غانية روسية المولد ، فرنسية الثقافة ، تدعى مارتا سوماروف ، وليس من النادر أن يصادف المرء فى فرنسا فتيات روسيات يرجعن بنسبهن إلى أسرات عريقـة فى الحسب ، ممن أقصتهم البلشفية عن الوطن ، ورمت بهم الغربة المرامىَ ، فاتخذوا من فرنسا وطناً ثانياً . . . ولـكن من النادر أن يكون لفتاة من هؤلاء المغرَّبات ما لمارتا من الحسن العزيز ، والتهذيب الكامل . . .

فلقد كان كل شىء فيها سحراً وفتنة . كانت ساحرة حين تصغى إليك بعينين زرقاوين صافيتين ، ملؤهما الاهتمام والانتباه ، ساحرة حين تبسم للفكاهة البريئة فتفتر الشـفتان عن أسنان منضدة سليمة لم تعبث بها أيدى الطبيب ، ساحرة حين يحمر وجهها لعبارة فيها ثناء أو إطراء ، ساحرة حين تراها فى ثياب البحر ، وقد جمعت شعرها الذهبى فى منديل من الحرير ، وأخذت تلقى بنفسها من لوح الوثوب إلى لجة اليم فى رشاقة واعتدال قامة ؛ ساحرة حين تسبح فى المـاء بقوة وحركات منتظمة سريعـة ، حتى تغيب عن الأبصار ؛ ساحرة حين تحدثك عن دراستها

للموسيقى بباريس ، والأعوام الطويلة التى قضتها تمرن أصابعها العاصية على قرع مفاتيح البيانو .

لقد كانت ساحرة فى كل شىء تعمله ، وكل حديث تذكره ؛ ساحرة لكل من يتحدث إليها . فكيف بها مع فتى نقى الصحيفة مثل ميدار ؟

لئن كان الحب شجرة تنمو على مدى الأيام ، فقد كان أمره عند صديقنا المندى أمراً عجبا . إذ بينما الحب لديه بذرة تبذر ، إذا هو نَبْتٌ ينمو ويترعرع ، وإذا هو دوحة أصلها ثابت وفرعها محلق فى السماء ... ولم تمض عليه فى هذا كله سوى أيام معدودات ...

وانقضت أسابيع كان فيها ميدار ومارتا الخلين الأليفين ، والصديقين الحميمين ؛ يشربان من تلك الكأس الأبدية ملء القلب ، وملء الروح ، دون أن يرتوىَ الأوام ، أو يُطفأَ اللهيب المقدس .

ولم يكن بد من أن تجىء الساعة التى يفتح فيها الفتى صدره إلى والده الشيخ . فيطلعه على ما قد ثوى فى هذا الصدر من الحب ، وما يدور فى القلب من نية لم يبق عنها محيد ..

وكان الشيخ يرقب نجله عن كثَب ، ويود من صميم قلبه

أن تظل هذه العلاقة عبثاً تنتهى بالرحيل عن دوفيل ، و بوداع من تلك الوداعات ، الأليمة مظهراً ، السليمة عاقبةً ومخبراً ، والتى لا تترك وراءها مخلّفات ولا مضاعفات .

كان له فى ما يسمى الزواج المختلط رأى وسط ، لم يكن بالشديد السخط عليه ، ولا بالراضى عنه كل الرضى ، فقد رأى أن بعض ذلك الزواج كان له بالهند بعض التوفيق ، ولكن أكثره قد مُنى بفشل أليم . وقد أسلم للشقاء أُسَراً ما كان أحراها أن تعيش سعيدة ناعمة .

كان الوالد عالماً بالأمر الذى يجهله نجله ، من أن كثيراً من الروس الذين اتخذوا فرنسا مُستَقرًّا ومُقاماً ليسوا على شىء كثير من حسن السمعة ، غير أنه كان ينظر إلى مارتا و إلى محياها البرىء النقى ؛ فيرجو ألا تكون من تلك الطائفة ، وكثيراً ما كان يتحدث إليها فى مختلف الشؤون فيعجبه حسن إصغائها ، وسرعة فهمها ، وحسنها النادر ، وحركاتها الرشيقة ؛ فيتردد فى أمره ، و يخيل إليه ولو لحظة قصيرة أن مثل هذا السحر لا بد سيتغلب فى النهاية ، وأن قد لا يكون هنالك بأس كبير فى أن يرتبط ميدار ومارتا برباط الزواج .

ولكنه إذا خلا إلى نفسه رجعت به الذاكرة إلى الهند

و إلى مدينة بومباى و إلى البيئة التى أعدها ليعيش فيها هو وولده ، فلا يستطيع أن يجد لهذه الفاتنة مكاناً فيها ؛ اللهم إلا إذا أحدث بها تبديلاً وتغييراً ، وتحويراً وتدويرا .

رجعت به الذاكرة إلى تلك الضيعة الجميلة ، التى تفنن فى تنسيقها وتنظيمها ، وفى تعهد تربتها ، والعناية بزرعها ونبتها ، حتى بات ريعها ضخما وغلتها وافرة ، و إلى القصر الفخم الذى شيده وسطها مطلاً من بعيد على البحر ، وتفنن فى إبداعه و إتقانه ، وملأه بكل ما تطلبه النفس من أسباب الراحة واللهو والتسلية ؛ و إلى الملاعب العديدة التى أنشأها من حوله ، وحديقة الحيوانات التى جمع فيها طائفة كبيرة من الوحش والطير ، وحمّام السباحة المشيد بأحجار الجرانيت الوردى الصقيل ! والبيت الصغير المبنى إلى جانبه ، لكى يستريح فيه السابحون ، أو يتناولوا فيه اليسير من الطعام والشراب .

ذلك كله وكثير سواه هو ما أعده الوالد الشيخ ، من أجل ابنه الوحيد ، الذى ليس له وارث سواه : فهو أمل العمر ، وسعادة الكهولة . . .

ولقد طالما كان الوالد يصور لنفسه أيامه الأخيرة فى هذا القصر ، وقد عاد إليه نجله ، وعاش معه فيه ، واتخذ لنفسه

— إن شاء — مكتباً فى مدينة بمباى يمارس فيه حرفته التى اختارها وارتضاها ، فلم يكن القصر شديد البعد عن تلك المدينة .

وليس معنى هذا أن الوالد كان يريد أن يحتكر فتاه لنفسه ، وألا يكون لميدار فى الحياة صديق ولا رفيق غير والده الشيخ ، بل كان أقصى مُنى الوالد أن يرى لنجله زوجة يختارها له على الطريقة الهندية ، من أشرف الأُسر سمعة ، وأعرقهم حسباً ، ولم يفته أن يُعد لهذا الأمر عدته ، وأن يقطع فيه برأى ، قبل أن يغادر الهند إلى أوربا .

تلك إذن هى الصورة التى تخيلها الوالد ، أو على الأقل هذا هو الإطار البديع ، الذى تعب الوالد فى صنعه ، وتهيئته ؛ وقد آن لولده أن يتوسطه ، وأن يكون مكانه منه ، مكان الروح من الجسد .

فهل وجود مارتا يفسد هذه الصورة ، مع أنها قد أُفرِدَ فيها مكان لزوجة ذات حسن وأدب وذكاء ؟

لقد كان الوالد نفسه فى حيرة من أمره ، وظلّ أياماً طوالا لا يكاد يهتدى لرأى . . . كان شديداً عليه أن ينقض الوعد الذى وعده وهو بالهند ، وشق عليه أن يرى تعلق ولده بمارتا ، وأن تضطره تقاليد بلاده لأن يطعن هذا الحب الناشئ طعنة

عنيفة ، لا تقضى على الحب وحده ، بل وعلى الحبيب أيضاً . .

وأى حزم وأى عقل فى أن يعالج الطبيب داء بعلاج يُلقى بالسقيم إلى هوّة الدمار ؟

كان يعرف من طباع ولده كل دقيق وجليل : كان يعلم أنه ليس عليه إلا أن يفتح فمه بكلمة فتنقطع تلك الصلة ، وتنتهى تلك الصداقة . ولكنه كان واثقاً أن هذا لن يكون خاتمة القصة ، وأن حرمان نجله ذلك الحب هو حرمانه السعادة والصفاء ، بل الشباب والحياة .

وحين تردد هذا الخاطر فى صدره ، لم يطل بعد ذلك تردده وطفق يلتمس السبل والوسائل ، ولم يكد يفعل حتى رأى الصعاب تسهل ، والعقبات تزول تدريجيا ، حتى خيّل إليه أنه قد غلا وأسرف فى تصوير تلك المخاوف ... إن من السهل عليه أن يعتذر عن الوعد الذى ارتبط به فى الهند ، وأن يشرح لوالد الفتاة الظروف القاهرة ... ومن السهل عليه أن يسبق العروس إلى الهند ، لكى يمهد الأمور ، ويعد القصر خير إعداد ، لاستقبال تلك الملكة الفاتنة . ولا بأس فى أن يصحبه ميدار ، ليساعده فى هذا ، ثم تلحق بهما مارتا فى أسابيع قلائل ، بعد أن يُهيّأ لها كل شىء ، وبعد أن تنكسر حدة الصيف ، ويبرد

هواء المنىد قليلا ، فلا يُلقى بالسكينة مرة واحدة فى جو حار ملتهب لم تتعوّد مثله .

وهكذا استقر رأى الوالد الشيخ على أن يُتيح لولده العزيز تلك الحياة التى يشتهيها ، وتلك الأمنية التى تنم عنها كل حركة من حركاته ، وإن لم يذكرعنها لوالده لفظا ، أو ينبس بكلمة .

وفى صباح يوم من أيلول خرج الوالد مبكراً يتمشى على ساحل البحر ، وفى تلك الساعة الباكرة لم تكن دوفيل قد استيقظت بعد من رقادها اللذيذ . فلقد كانت دوفيل حقيقة نَؤوم الضحى ، لا ترى من اللائق بمكانها فى المجتمع أن تستيقظ مبكرة ، كأنها بعض الخدم . . . وكيف ينتظر عاقل منها أن تستيقظ قبل الضحى ، وهى التى لم تذهب إلى سريرها إلا قبيل الفجر ؟

فليس بعجيب إذن ، أنه فى تلك السويعة المبكرة التى أراد الوالد أن يتنزه فيها على الساحل ، كانت دوفيل بعدُ ملتفّةً بالأغطية ، متدثرة بالخز والكتان ، راقدة على الريش الوثير ، تتنفس بانتظام وهدوء ، وثغرها البديع يبتسم حتى وهى فى رقادها .

كان الوالد يتمشى وحده ، وهو يفكر ويدبِّر ، ويبدو على

وجهه الهدوء والارتياح . ذلك الهدوء الذى يبدو على المرء ، بعد أن ظل طويلا وسط عاصفة من التردد ، يتدافعه موجها ، وتتقاذفه لُججها ، ثم استقر به القرار ، وبلغ الساحل الأمين ، فاطمأنت نفسه ، واستراح خاطره .

فى تلك الساعة بدا له شبح ، يسبح فى الماء بقوة وسرعة ؛ ثم لم يلبث ذلك الشبح أن خرج من الماء وارتدى بُرْنساً طويلا وأخذ يعدو نحوه . ليس هـذا ولده ميدار ، الذى يقضى مثل هذه الساعة فى المطالعة . كلا ! بل هذه مارتا نفسها ، خرجت لهذه الرياضة الباكرة ، فى هدوء الصباح ، قبل أن يزدحم الرمل بأصناف المستحمين ، وقد رأته يتمشى ، فجاءت لتحييه ...

حبذا هذا الوجه ، الذى أُلْبس الحسن والبراءة والصدق ، ولا حبـذا الأوهام التى كانت تخالج قلب الشيخ فى الأسابيع الماضية ! هذه فرصة قد سنحت ولا بد له أن ينتهزها ؛ وهذه خير ساعة يفتح فيها صدره ويطلع مارتا على ما أعده لها ولنجله إن كانت تحبه صديقاً ، وترضاه زوجا .

كانت مارتا تحدثه بلغة الانكليز فى هدوء وعذوبة واهتمام ، لـكنها تلعثمت ، وأخذت الألفاظ تتعثر فى فمها ، واكتسى الوجه ثوباً قرمزيا ، وخُفِّضَ الرأس نحو الأرض ، حتى انتقل

الحديث من دوفيل ، ونومها الطويل ، إلى ذلك الشأن الخطير ، الذى أراد الوالد أن يتحدث فيه ..

أجل ! إنها لتحب ميدار حبا شديداً ، وليس فى الدهر سعادة أجل من تلك التى يريد الوالد الكريم أن يسبغها عليها.. لم تكن تجيب على أسئلة الشيخ إلا بلفظ واحد قصير ، ثم يحول الحياء دون النطق بالعبارة البليغة أو الجملة الطويلة ، وكان فى تلك الألفاظ القلائل غناء عن كل إسهاب وتطويل .

فاطمأنت نفس الوالد ، ونظر إلى البحر الفسيح باسم الثغر ، راضىَ القلب . . . وأطل من ساحله على المستقبل ، وجعل يحدق فى صفحته تحديقاً طويلاً ، وفى عينيه بريق الظافر ، وهدوء اليقين . . .

* * *

لم تمض أيام قلائل حتى شهدت باريس وداعاً حارا ، وفراقاً شديد الوقع ، لكنه فراق ملؤه التطلع إلى المستقبل القريب ، والسعادة العاجلة ، والنعيم النقى من كل شائبة . . .

واندفع القطار يحمل ميدار و والده إلى مرسيليا ، وأقلتهما الباخرة إلى الوطن ، بعد أن أعِدَّت العُدة ، لأن تلحق بهما مارتا بعد بضعة أسابيع على « أميرة الهند » .

فلقد أراد الوالد والولد أن يشرفا على إعداد القصر والحدائق لاستقبال العروس ، ولم يكن بد من أن يستوثق كل منهما بنفسه أن قد هُيِّئ القصر على أحسن ما تشتهيه النفس ، ويتطلبه الذوق الدقيق ؛ فلم تكد السفينة أن تبلغهما الوطن ، حتى أكبا على العمل بجد وهمة ، وانقضت الأيام ، وكلاهما دائب فى التفنن والابتكار ، وتصيُّد الغرائب ، واقتناء التحف ، وقد اتحد ذوق الشرق وتفنُّن الغرب ، فى البلوغ بذلك القصر وبتلك الحدائق ، منزلة يوشك ألا يكون فيها زيادة لمستزيد .

أرأيت الآن أيها الصديق ، ما خطب ذلك الفتى الهندى الوسيم ، الذى كان يصعد درج « أميرة الهند » ؟ هو بالطبع فتانا ميدار ، وقد انطلق يحمل باقة الزهر ، ورسالة الحب إلى خطيبته مارتا .

لم تكن تلك الزيارة الفجائية فى برنامج الرحلة ، ولم تكن العروس تتوقعها . . . ولكن إعداد القصر قد كمل قبل وصول الباخرة بزمن غير قليل ، فأراد ميدار أن يلقى حبيبته فى عدن ، وأن يقضى معها أياماً سعيدة ، لم تكن تخطر لها ببال .

لأن العشاق — ويحهم — مولعون بالمفاجآت ، وهم يحسبون أن السعادة الفجائية تفوق السعادة المنتظرة أضعافاً مضاعفة . . .

— ٣ —

وبَعْـدُ ! فأيُّ كَوْنٍ ذلك الـكون ، الذى نَسْبَحُ فيه ؟
وأى جوٍّ هذا ، الذى نستنشق نسيمه ، ونتمشى فى ظلاله ؟ وأى
كوكب هـذا الذى أقلّنا على ظهره ، وأخذنا ندُبُّ على ثراه ؟
أىُّ يدٍ تمسكه ، وأى إرادة تدفعه ؟

أىُّ قُوًى هذه التى تحرّك أحلامنا ، وتدير عقولنا ؟

هل فى الأثير المائل ، الذى ينتظم العالم ، كائناتٌ تسبح ،
بين الجِدِّ والعبث ، ويحاولها أن تتصل بكوكبنا الصغير ، وتلعب
بأهله بين الجد والمجون ، وبين السُّخْرية والحكمةِ الغامضة ؟

وإلاّ . . . فلماذا لم يبق هندينا الشاب المسكين فى بمباى ،
منتظراً قدوم « أميرة الهند » تحمل إليه أميرة القلوب ؟

لماذا تمّ إعداد القصر قبل الموعد المضروب بعشرة أيام ،
مع أن هذه الأمور تستغرق من الزمن أضعاف ما يقدر لها ؟

ولمـاذا أبحرت باخرة سريعة من الهند إلى عدن فى ذلك
اليوم العجيب ، لـكى تساعده على تنفيذ ذلك الخاطر الفجائى ؛
الذى خطر لفتانا التعس ، فقرر أن يفاجئ حبيبته فى عدن بدلاً
من أن ينتظرها فى بمباى ؟

ثم ما الحكمة العجيبة فى أن يكون بين ركاب أميرة الهند شاب جُندى من الانكليز ، عائد من إجازته فى أوربا ليلتحق بالحامية المرابطة فى عدن ؟

وأية قوة تلك القوة التى جعلت مارتا تصغى أخيراً إلى ملاطفات ذلك الانكليزى النزق ، بعد أن أغلقت دونه قلبها وسمعها أياماً طوالاً ؟

وأخيراً لا بد لنا أن نتساءل لماذا اعتاد ميدار وهو ذلك الفتى الوديع المظهر ، أن يحمل آلةً من تلك الآلات النارية أينما ذهب ؛ فلا تفارقه حتى فى ساعة هى أبعد الساعات عما أُعِدَّت له تلك الآلات ؟

* * *

فى ذلك اليوم الحزين من تشرين الأول ، لبست « أميرة الهند » الحداد ، ونكِّست منها الأعلام ، ولم يكن ليُرى فى أرجائها الفسيحة ، وغُرَفها الفخمة البديعة ، سوى رءوس مطرقة ، وهمس خافت ، وعيون حائرة وأخرى دامعة . ولم يكن بين الجوانح سوى قلوب واجمة ، وصدور ضيقة حرجة ، قد ملأها الحزن على قتيلين غمرهما النَّجيع ؛ وغريق طلب المنون فى لجج اليم ، وأُخرج من الماء جثة سمراء قاتمة ؛ قد فارقتها تلك

الرشاقة الجذابة ، وذلك الحسن المادئ الوادع . . .

وأقلعت آخر النهار ، يعلوها سكون الموت ، ويظللها سحاب مظلم رهيب .

وفى مساء ذلك اليوم أُطْبق ثرى عدن على أجسادٍ ثلاثة قد أُسْلِمَتْ للفناء ؛ وعلى منحدرات الجبال وراء بمباى شهق شيخٌ جليل شهقة هائلة ، وخرّ صريعاً ، قد بان عنه ذلك السر العجيب الذى نسميه الحياة .

